البرهان في شعب الإيمان

تأليف

علي الشربجي

دار القلم

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

البرهان في شعب الإيمان

الطّبعَة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

تُطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

المقـــدّمَة

الحمد لله ربّ العالمين، حمداً يـوافي نعمـه، ويكافئ مزيـده، والصلاةُ والسلامُ على مَن أرسله الله بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، سيدنا ونبينا، وحبيب قلوبنا محمد، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغرِّ الميامين، ومَن تبعهم، وسارعلي هديهم إلى يوم الدين.

وبعد:

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «الإيمانُ بِضْعٌ وسَـبْعونَ، أو بِضْعٌ وسـتُّونَ شُعْبَةً، فأفضلها قـولُ: لاإلـهَ إلاَّ اللهُ، وأدْناها إماطَةُ الأذى عن الطَّريقِ، والحياءُ شُعبةٌ من الإيمانِ» [رواه البخاري (٩) في الإيمان؛ ومسلم (٣٥) في الإيمان، واللفظ له].

البِضْعُ في العدد: من الثلاث إلى التسع.

والشعبة: القطعة من الشيء، والخصلة منه.

وقد تنـاول العلماء هذه الشـعب بالعدّ والتأليـف. فأوصلهـا الحافظ ابـن حبان، المتوفى سـنة أربع وخمسـين وثلاث مئة للهجرة؛ إلى تسـع وتسـعين شعبة، وألّف كتاباً سمّاه: (وصف الإيمان وشعبه). ولعلّه أوَّلُ كتاب ألف في (شُعب الإيمان).

وتلاه الإمامُ الحليميُّ، المتوفى سنة ثلاث وأربع مئة للهجرة، فألف كتابه: (المنهاج في شعب الإيمان) فأوصلها إلى سبع وسبعين شعبة، وهو كتاب مطبوع، وقد اختصرناه بمجلد لطيف، وهو مطبوع أيضاً.

وتبع الحليميَّ الحافظُ البيهقيُّ، المتوفى سنة ثمان وخمسين وأربع مئة للهجرة، فألف كتابه: (شعب الإيمان) وعدّ هذه الشعب أيضاً سبعاً وسبعين شعبة، وقد اختصره الإمامُ القزوينيُّ، المتوفى سنة تسع وتسعين وست مئة للهجرة، وكلا الكتابين مطبوع، ومعروف.

قال الإمام ابن حبّان رحمه الله تعالى في كتاب: (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) ١/ ٣٨٧: «تتبعتُ معنى هذا الحديث مُدَّة، وعددتُ الطاعات، فإذا هي تزيد على هذا العدد شيئاً كثيراً، فرجعت إلى السنن، فعددت كل طاعة عدَّها رسولُ الله ﷺ من الإيمان، فإذا هي تنقص عن البضع والسبعين، فرجعت إلى كتاب الله، فقرأته بالتدبُّر، وعددت كل طاعة عدَّها الله تعالى من الإيمان، فإذ هي تنقص عن البضع والسبعين، فضممت الكتاب إلى السنن، وأسقطت المُعاد، فإذا كل شيء عدَّه الله تعالى ونبيَّه ﷺ من الإيمان تسع وسبعون شعبة، لا تزيد عليها، ولا تنقص، فعلمتُ أن مراد النبي ﷺ هذا العدد في الكتاب والسنن».

قال ابن حجر في (فتح الباري) ١/ ٦٨: لم يتفق مَن عدَّ الشعب على نمطٍ واحدٍ، وأقربها إلى الصواب طريقة ابن حبان، لكن لم نقف على بيانها من كلامه.

قال ابن حجر: وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره: وهو أن هذه الشعب تتفرع عن: أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن.

فأعمال القلب، فيه: المعتقدات، والنيات، وتشتمل على أربعٍ وعشرين خصلة:

الإيمان بالله، ويدخل فيه: الإيمان بذات الله، وصفاته، وتوحيده، وأنه ليس كمثل شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشرّه.

والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب والميزان، والصراط، والجنة والنار.

ومحبة الله، والحبُّ والبغض فيه، ومحبـة النبيّ ﷺ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليـه، واتّبـاع سنّته.

والإخلاصُ، ويدخل فيه: تـرك الريـاء، والنفاق، والتوبـة، والخوف، والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة.

والتـواضع، ويدخل فيه: تـوقير الكبير، ورحمـة الصغير، وترك الكِبر، والعُجب، وترك الحسـد، وترك الحقد، وتـرك الغضب.

وأعمال اللسـان، وتشتمل على سبع خصال:

التلفّظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلّم العلم وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه: الاستغفار، واجتناب اللغو.

وأعمال البدن، وتشتمل على ثمانٍ وثلاثين خصلة:

● منها مـا يختص بالأعيـان، وهي خمـس عشـرة خصلة: التطهّر حسّاً، وحكماً، ويدخل فيه: اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضاً ونفلاً، والزكاة، وفكُّ الرقاب.

والجود، ويدخل فيه: إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضاً، ونفلاً، والحج والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر.

والفرار بالدين، ويدخل فيه: الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحرّي في الأيمان، وأداء الكفّارات.

● ومنها ما يتعلق بالأتباع، وهي سـتُّ خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبرُّ الوالدين، وفيه: اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، والرفق بالعبيد.

● ومنهـا ما يتعلق بالعامـة، وهي سـبع عشـرة خصلـة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتـابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه: قتال الخوارج، والبغاة، والمعونة على البرّ، ويدخل فيه: الأمر بالمعروف،

والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه: المرابطة. وأداء الأمانة، ومنه: أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه: جمع المال من حلِّه، وإنفاق المال في حقّه، ومنه: ترك التبذير والإسراف، وردّ السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق.

فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدّها تسعاً وسبعين، باعتبار أفراد ما ضُمَّ بعضه إلى بعض.

والمراد بالإيمان: حقيقته من التصديق، وما يتعلق به من الطاعات.

والبضع في اللغة: يُطلق على العدد من الثلاثة إلى التسعة.

والشعبة: الخصلة.

والحياء في اللغة: تغير يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به.

وشرعاً: خلق يبعث على اجتناب القبيح، ويمنع من التقصير في حقّ ذي الحقّ.

وإماطة الأذى: تنحيته، وإزالته.

وأعلى هذه الشعب قول: لا إلـه إلا الله.

وهذا يدلّ على أن مراتب هذه الشعب متفاوتة، وقد حاولت ـ بعون الله تعالى ـ وضع كتاب مختصر في هذه الشعب، كما عدَّها الإمام الحليمي، والبيهقي، أسميته: (البرهان في شعب الإيمان) جمعتُ تحت كل شعبة ما يتعلق بها من الأدلة، والأحكام، وضممت إليهما ما هو مناسب من الحِكَم والمواعظ المناسبة لأيامنا.

والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلبٍ سليم، وأن ينفع به من قرأه من المسلمين.

وأسأله تعالى أن يثقل به موازين والديّ، ومشايخي، ومَن له حقٌّ علي، إنه على مايشاء قدير، وبالإجابة جدير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

٢٠ من شهر رمضان ١٤١٧هـ
٢٩ ـ يناير ـ كانون ثاني ١٩٩٧م

علي الشربجي

الشعبة الأولى
الإيمان بالله تعالى

الإيمانُ في اللغـة: مُشـتق من الأمن، وهو ضدُّ الخوف. قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٩].

والإيمانُ عند الإطلاق، معناه: التصديقُ، والتحقيقُ.

والإيمانُ، يتعدَّى تارة بالباء، فيقال: آمنتُ به، أي: صدَّقتُ بوجوده، كما قال تعالى على لسان إخوة يوسف:

﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]. أي: بمصدِّق.

وتارة، يتعدّى باللام، فيقال: آمنتُ له، أي: خضعتُ له، وقبلتُ عنه. قال الله تعالى على لسان قوم فرعون: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]. أي: أنخضع لهما، ونقبل منهما.

وبنـاءً على هذا التفريق بين الإيمان بالله تعالى، والإيمان لـه، وجب أن تكون الطاعات كلها ـ فرائضها، ونوافلها ـ إيماناً، ولا يجبُ أن تكونَ المعاصي الواقعةُ من المؤمن كفراً، وذلك، لأن الكفر بالله تعالى مقابل الإيمان به، فإذا كـان الإيمـان بالله تعالى يعني الاعتراف بوجـوده، فـإن الكفر بـه يعني نفيـه، والجحود به.

وأما الأعمال، فإنها من باب الإيمان بالله تعالى، وتأتي بعد وجود الإيمان به. لذلك قيل: إن تارك الاتباع مع الثبات على التصديق فاسق، وليس بكافر.

ثم إن التصديق: نوعان: خفي، وظاهر. فالخفي: ما كان واقعاً في القلب،

ويسمّى اعتقاداً. وأما الظاهر، فما كان واقعاً باللسـان، ويسـمّى إقراراً وشهادةً. وهذه الشهادة المباركة القائمة على اطمئنان القلب وتصديقه، شبّهها القرآن الكريم: بشجرة مباركة نافعة.

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤ـ٢٥].

كما شـبّه القرآن الكريم أيضاً الكفر بشجرة خبيثة، لا بقاء لها ولا نماء، قال الله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وقيل: الشجرةُ الطيبة هي: النخلةُ. والشجرةُ الخبيثةُ هي: الحنظلةُ.

وقال العلماء: إن هذه الشهادة تتضمنُ أربعة أشياء:

الأول: إثبات الباري عزَّ وجلَّ، ليقع به مفارقة التعطيل.

والثاني: إثبات وحدانيته، ليقع به البراءةُ من الشرك.

والثالث: إثبات أن وجود كل ما سواه كان من قبل إبداعه، واختراعه إياه، ليقع به البراءة من قول مَن يقول بالعلّة، والمعلول.

والرابع: أنه مدبر ما أبدع، ومصرفه على ما يشاء، ليقع به البراءة من قول القائلين بالطبائع، وتأثير الكواكب، أو تدبير الملائكة.

وقد أمر الله تعالى عباده أن يعلموا هذا، وأن ينطقوا به، فقال:

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وقد ذمّ الله عز وجل المستكبرين عن اعتقاد هذه الشهادة، والمستكبرين عن النطق بها، فقال: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥].

وهذه الكلمةُ الطيبـةُ المباركـةُ أفضلُ الأذكار، وأضمنها لسلامة الآخرة، لأنها تضم أعظم الأسماء، وأشرفها.

قال رسـول الله ﷺ: «مَن كان آخرُ كلامـه: لا إلـه إلا اللهُ دخل الجنَّـةَ» [«صحيح أبي داود» (٢٦٧٣)].

وقال: «أفضلُ الذِّكْرِ: لا إلـهَ إلاَّ الله» [«صحيح الترمذي» (٢٦٩٤)].

وقال: «وخَيْـرُ ما قلـتُ أنا والنبيُّـونَ من قبْلـي: لا إلـه إلاَّ اللهُ، وحْـدَهُ لا شريكَ له، له الملكُ، ولهُ الحمدُ، وهُوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ» [«صحيح الترمذي» (٢٨٣٧)].

ولله سبحانه وتعالى أسماء سمَّى بها نفسه، أو سمَّاهُ بها النبيَّ ﷺ، باعتباره مبلّغاً عن ربّه عز وجل، يجب اعتقادها، وينبغي حفظها، وكلُّها أسماء تدلّ على كماله، وتنزُّهه، وتفرّده بالخلق، وبيان أن المرجع والمصير إليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقـال: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسـراء: ١١٠].

وقال رسـولُ الله ﷺ: «إنَّ للَّهِ تِسْـعةً وتسعينَ اسـماً: مئةً إلاَّ واحداً، مَن أحْصَاها دخل الجنَّةَ» [رواه البخاري (٧٣٩٢) في التوحيد].

وقد ذكر الله عزّ وجلّ طائفـةً من هذه الأسـماء في آخر سورة الحشر، فقال عـزَّ وجـلّ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤].

ثم إن الإيمان بالله تعالى يعني التصديق الجازم بوجوده، ووجود صفاته الواجبة له، من الوحدانيـة، والقِدَم، والبقـاء، والعلم، والسـمع، والبصـر، والكلام، والتنزّه عن الشريك، والوالد، والولد، ومشابهة المخلوقات بشيء من

ذاته، أو صفاته. وأنه سبحانه وتعالى الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبرُ لشؤون خلقه، المتصرّف بهم على ما يقتضيه العلم والحكمة، وأنه لا يخرج شيء من هذا الوجود عن دائرة تقديره، وتدبيره، وعظيم سلطانه.

قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧].

والله سبحانه وتعالى جعل الإيمان به رأس الدرب إليه، فمن وقف على هذه البداية، وأمسك بهذا المبدأ، فقد استمسك بالعروة الوثقى، لا انفصام لها، وكانت أعماله الصالحة ذات اعتبار ديني، وكان أهلاً للثواب في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ ـ ١٠٨].

ومن أخطأ تلك البداية، وانحرف عن الإمساك بعُقدة ذلك المبدأ فقد ألغى كلّ عمل كان قد عمله في الدنيا مهما كان صالحاً، وخرج صِفْر اليدين بغير زاد، ولا عتاد، إلا أحمال الشرّ من العناد والفساد.

قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا (١٠٣) ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥].

الإيمان بالله فطرة عند الإنسان:

إن الإيمان بالله عز وجل، والشعور بوجوده فطرةٌ عند الإنسان، فطره الله عليها، وخلقها فيه، فما من إنسان إلا وفي كيانه بذور تلك الفطرة، وأصول تلك الرغبة، في التطلع إلى وجود خالقه، وخالق الوجود من حوله، وإلى هذا المعنى يشير الله عز وجل في قوله الكريم:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مَوْلَودٍ يُولدُ على الفِطْرةِ» [رواه البخاري (١٣٨٥) في الجنائز].

والمراد بالفطرة: الإسلام، والتديّن.

قال ابن حجر في (فتح الباري) ٣/ ٢٩٢: «المراد من قول النبي ﷺ أن الكفر ليس من ذات المولود، ومقتضى طبعه، بل إنما حصل بسبب خارجي، فإذا سَلِمَ من ذلك السبب استمرّ على الحق».

وهذا الحال ليس خاصاً في الصغير وحده، بل هذا شأن الإنسان في أصل الخلقة، فلو تُرِكَ الإنسان وشأنه لما نشأ إلا مؤمناً.

عن عياض رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إنَّ ربِّي أمرني أنْ أعلِّمَكُمْ ما جهلتم ممَّا علَّمني يَوْمي هذا: كلَّ مالٍ نحلْتُه عَبْداً حَلالٌ، وإنـي خلقتُ عبـادي حُنفاءَ كلَّهم، وإنَّهم أتتْهم الشَّياطينُ فاجْتَالتهم عن دينهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحللْتُ لهم، وأمرتْهُمْ أنْ يُشركُوا بي ما لم أنزِّل به سُلطاناً» [رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة].

نحلته: أعطيته.

حنفاء: مسلمين.

اجتالتهم: ذهبوا بهم، وأزالوهم عما كانوا عليه من الإيمان.

ولئن طُمرت بذور تلك الفطرة عند بعض النـاس بركام الغفلـة والإعراض، وحطام الجهل والعناد، وأنقاض المعاصي والشهوات، فترة من الزمن، فإنها لا تلبث أن تهتزَّ تحت تلك الأكداس، لتشقق ما علاها من الحطام والركام، ولو في ساعة تأمّل، أو تململ، لتعلن عن نفسـها، وتتحدّث عن أصالتها، وترفع صوتهـا بالدعاء والرجاء، ولاسيما إبّان هجوم المصائب، وهبوب المهلكات، ومداهمة الأخطار والأضرار، وعندئذٍ يجد ذلك الجاحد الذي كان يتنكّر لربه، يجد نفسه مُصغياً لِطَرَقات فطرته، وهي تشير بكلتا يديها إلى وجود الخالق العظيم، الذي بيده وحده كشف الضرِّ، وتنفيس الكرب، ليجأر إليه بالدعاء، ويخصه بالرجاء.

قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣]. وقد صـوّر القرآن الكريم أبلغ تصويـر خلجات نفـوس أولئـك الجاحدين وحدانية الله تعالى ونعمه، حينما تلقي بهم الأقدار بين أظافر المهالك، ومخالب المصائب، فلا يجدون حولهم من ملجأ يلجؤون إليه إلا الله الذي كانوا يتنكّرون له، ولا يلتفتون إليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢١ ـ ٢٢].

وقال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[يونس: ١٢].

وهذا فرعون، وهو زعيم من زعماء العتاة، وكبير من كبراء الطغاة، يصيح بأعلى صوته لما أدركه الغرق، وأحسّ أن المنيّة أنشبت أظفارها به: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

أضف إلى هذا كله أن الأفذاذ من البشر على مرّ السنين، وكرّ العصور قد أعلنُوا إيمانهم بوجود خالق لهذا الكون، ولم يجدوا تعليلاً مقبولاً، ولا تبريراً مقنعاً لوجـود هذا العالم الحادث إلا وجود إلـٰه خالق، تفـرَّد دون خلقـه بكل صفات الكمال والجمال، والخلق والإبداع.

ولقد تواردت الرسل في عصور شتى ـ وهم صفوة البشر ـ وتواترت أقوالهم في مئات الأمم: أنّ الله حقٌّ، وأن وجوده لا شك فيه.

ومحال أن يجتمع أولئك الأفذاذ من الناس، وتلك النخبة الذكية من البشر، والرسل المصطفون في عصور متباعدة، وأمم شتَّى، على غير لقاء، ولا اتفاق على أمر ليس له في كيانهم ركيزة وإحساس، ولا في عقولهم دليل ولا برهان، وليس له في واقع الأمر حقيقة ولا وجود.

إن عقيدة الإيمان بوجود خالق لهذا الكون والإنسان هي عقيدة الجماهير من البشـر، منذ عُرِف البشـر على وجه الأرض، فمن أين جاءت هذه العقيدة، وكيف تقبّلوها إذا لم يكن لها في ضمائرهم رصيد، ولا في كيانهم بذور؟!

إن المشركين عبدة الأوثان، وأهل الجاهلية الأولى لا يجدون بدّاً من الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون حين يسألون عن وجوده، وتقديره، وتدبيره، لأنه أمر يجدونه في عقولهم، ويحسونه في نفوسهم، وتشهد به فطرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤ـ٨٩].

إن هذه الإجابات والاعترافات لشهادة حقٍّ في أمر هذه العقيدة، والإيمان بهذا الخلق العظيم، وإن حاول بعض الحمقى الغفلة عنها، أو الإنكار لها.

إن نغمة الإلحاد، وإنكار الإله ليست قديمة النشأة، ولا بعيدة الغور، وإنما هي من صناعات العصور الحديثة، أنتجها أرباب الشهوات الجامحة، والنفوس الجانحة، والأغراض الهدامة، الذين تعشقوا التحلل من قيود الفضيلة، وضوابط السلوك المستقيم، وملُّوا سماع ألحان الحلال والحرام، والمشروع والممنوع، والثواب والعقاب، فطلعوا على الناس ببدعة إنكار مصدر هذه المبادئ والقيم، والشرائع والأحكام، وهو الله عز وجل، وليس لهم على ذلك دليل ولا برهان، اللهمَّ، إلا حبّ الفساد والإفساد، والخروج على الدين والأخلاق، والخوض في المآثم والمنكرات.

أسلوب القرآن في الاستدلال على وجود الخالق عز وجل:

لقد استدلّ العلماء بشتى علومهم، وأنواع فنونهم على وجود الخالق عزَّ وجلّ، وبرهن أهل المنطق بقواعد منطقهم على ثبوت الإله سبحانه وتعالى، وتفنَّن علماء العقائد بعرض الأدلة والبراهين المقنعة التي تحسم مادّة الجدل والمراء في موضوع وجود الخالق جلَّ جلاله، ولكن رغم كل هذا سوف يظل أسلوب القرآن الكريم في عرض أدلة وجود الخالق عز وجل هو الأسلوب الأجدى، والأقوى، لأنه الأسلوب الواضح القريب الذي يستوي في فهمه، وإدراكه الذكيّ والغبيُّ، والجاهل والعالِم.

وهذا الأسلوب يعتمد في جملته على لفت أنظار الناس إلى ما يشاهدونه في هذا الكون من عجائب الخلق، وبدائع الصنعة.

قال الله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى

﴿ ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].

ولقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من الأمثلة في بدائع الخلق، وذكر ما فيها من الحكم والفوائد، وما بينها من الأواصر والروابط، وما فيها من الدقائق والنظام، وهذا يشير بمنتهى البداهة إلى أن وراءها يداً مدبِّرة، وقدرة مصرِّفة، واختياراً حكيماً، وإن لم يكن صانع ذلك هو الله تعالى، فمَن عساه إذاً أن يكون؟!

واستمع - يارعاك الله - إلى القرآن الكريم، وهو يعرض لك من أدلة القدرة والإبداع، والخلق والحكمة، والتدبير والتقدير، والإنعام والإفضال، ما فيه مقْنع لمن ينشد الحقَّ، ويطلب الدليل، في الوقت الذي يخرس فيه كل جاهل وجاحد، ويلجم كل مكابر ومعاند.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف: ٥١].

قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر: ٤١].

وقال: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ۝٣٣ وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝٣٤ لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۚ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ ۝٣٥ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٣-٤٠].

وقال: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٣ـ١٨].

وقال: ﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل ٦٥ـ٦٩].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ

ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٢ـ٤].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ٢٢].

قل لي ـ بربّك ـ بعد هذا: هل يُعقل أن يصدرَ هذا الكلام العالي إلا عن ذاتٍ، ذاتِ جلالٍ وكمالٍ، ليست تشاكل المخلوقات ولا تشابههم.

قل لي ـ بربك ـ: هل في الدنيا عاقل يسمع هذا الكلام، ويصغي إلى هذه الحجج والبراهين، ثم يبقى في قلبه ذرة من شك وارتياب في وجود خالق هذا الكون، ومبدع هذا الإنسان، إلا أن يكون قد سفه نفسه، وأوردها موارد الشقاء، والهلاك.

قل لي ـ بربك ـ: كيف يعلل الإنسان وجود هذه الخلائق والعجائب، وهو يراها، وينتفع بها، وبمن يربط تدبير أمورها، وترتيب نظامها؟!

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

زيادة الإيمان ونقصانه :

الإيمان ـ كما قلنا ـ : هو التصديق البالغ نهاية الكمال، ولذلك قال المحققون من العلماء : إن نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، لأنه لو نقص لانقلب شكاً، والشك ليس إيماناً. وأما الإيمانُ الشرعيُّ الذي هو التصديق بالقلب، والعمل بالأركان، فإنه يزيد وينقص، يزيد بزيادة ثمراته، وهي الأعمال، وينقص بنقصها.

قال ابن بطال : مذهب جماعة من أهل السنة من سلف الأمة وخلَفها : أن الإيمان قولٌ وعمل يزيد وينقص.

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢].

وقال بعض العلماء : إن نفس التصديق يزيد وينقص. يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة، وينقص بنقصها.

والقرآن الكريم يذكر زيادة الإيمان في أكثر من آية، ومعلوم أن كل ما احتمل الزيادة يحتمل النقصان.

قال الله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾ [الفتح : ٤].

وقال : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢].

وقال : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤ ـ ١٢٥].

وتحدثت السنّة النبوية عن زيادة الإيمان بمثل ما تحدّث به القرآن الكريم :

قال رسول الله ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً» [رواه أحمد : ٢/ ٥٢٧].

وقال: «مَن رأى منكم منكراً فليغيّره بيدِهِ، فإن لم يستطعْ فبلسانِهِ، فإن لم يستطعْ فبقلبِه، وذلك أضْعف الإيمان» [رواه مسلم (٤٩) في الإيمان].

وقال الإمام النووي رحمه الله تعالى: اتفق أهل السنّة من المحدثين والفقهاء والمتكلّمين على أن المؤمن الذي يحكم بأنه من أهل القِبلة، ولا يخلد في النار، لا يكون إلا من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقاداً جازماً، خالياً من الشكوك، ونطق بالشهادتين، فإن اقتصر على أحداهما لم يكن من أهل القِبلة أصلاً، إلا إذا عجز عن النطق، لخلل في لسانه، أو لعدم التمكن منه بمعاجلة المنيّة، أو لغير ذلك، فإنه يكون مؤمناً.

ثمرات الإيمان بالله تعالى:

إن للإيمان بالله تعالى آثاراً حميدة وكثيرة نذكر بعضاً منها:

١ ـ إن الإيمان بالله تعالى يجعل المؤمن واسع النظر، رحب الأفق، طلق الخيال، لأنه يؤمن بالله الذي خلق السماوات والأرض، وملك كل شيء فيهما، فهو لا يرى أن شيئاً في هذا الكون يقوم في وجهه، أو يحدُّ من نشاطه، أو يضايق عاطفة الحبِّ والمواساة والإحسان لديه.

٢ ـ إن الإيمان بالله تعالى ينشئ في المؤمن من الأنفة وعزَّة النفس ما لا يقوم دونه شيء، لأنه يعلم أن الله وحده هو المالك الحقيقي لكل شيء، ولأنَّه لا ضارّ ولا نافع إلا هو، ولا محيي ولا مميت إلا هو، ومن ثَم ينزع من نفسه خوف ما سوى الله عز وجل، فلا يطأطئ رأسه أمام أحد من الخلق، ولا يرتعد من كبريائه، ولا يستكين له.

٣ ـ وفي الوقت الذي يقوم في كيان المؤمن كل معاني العزّة والأنفة، فإنه يختزن إلى جانب ذلك في نفسه كل معاني التواضع واللين والرحمة، فإيمانه بالله تعالى لا يبيح له أن يكون بطراً متكبراً، ولا يرضى له أن ينفخ أوداجَه شيطانُ الغرور، فيزهيه بقوته وجبروته.

٤ ـ إن الإيمان بالله تعالى يجعل المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً أن ليس بين الله تعالى، وبين أحد من خلقه نسب يزلفه به، وإنما سبيل النجاة والفلاح عنده إنما هو تزكية النفس، والعمل الصالح، فالمؤمنون حقاً بربهم لا يقضون أيام حياتهم غارقين في معصية الله تعالى، وتخطّي حدوده، ومجاوزة أوامره، ثم يذهبون بعدها ليقولوا بمنتهى الصلف والغرور، وبدعاوى فارغة: نحنُ أبناءُ الله وأحبّاؤه، ولن يعذبنا بذنوبنا.

وإنما هو القانون العادل، والميزان الحق، الذي نصبه الحق تبارك وتعالى، ليعامل به عباده قاطبة.

قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١ ـ ١٠٤].

وقال: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

٥ ـ إن الإيمان بالله تعالى يحمي المؤمن من أن يتسرب إليه شيء من اليأس، أو يقعد به القنوط في أي حال من الأحوال، وإن أُوصدت في وجهه كل أبواب الحياة، أو ضاقت أمامه كل مسالك العيش، لأن له من الثقة بربّه، وحسن الاعتماد عليه، مايجعله مطمئن القلب، ناعم البال، لأنه يؤمن بالله الذي له خزائن السماوات والأرض، والذي لا تعدُّ نِعَمه وآلاؤه، لذلك نرى المؤمن جاداً، يبذل قصارى جهده متفائلاً، معتقداً أن عين الله تعالى لاتغفل عنه، ولاتسلمه إلى نفسه وضعفه.

٦ ـ إن الإيمان بالله تعالى يزود المؤمن بقوة عظيمة من العزم والإقدام، والصبر والثبات حينما يضطلع بمعالي الأمور، لأنه دائماً على يقين بأن وراءه قوة

مالك السماوات والأرض تؤيده، وتأخذ بيده.

٧ ـ إن الإيمان بالله تعالى يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفع والقناعة والاستغناء، ويطهر قلبه من أوساخ الطمع والشره والحسد، والدناءة واللؤم، وما إليها من الصفات القبيحة، والعواطف الدنيئة.

٨ ـ إن الإيمان بالله تعالى يجعل المؤمن حقاً متقيداً بقانون الله تعالى، محافظاً على نظامه، لا يجري وراء معصيته، ولا يهجم على مخالفته، بل يخفُّ دائماً إلى فعل الطاعات، ويسارع إلى عمل الخيرات، بينما يحجم، ويمسك لجام نفسه عن الجرائم والآثام والمخالفات.

إن مظاهر هذا السلوك المنضبط لا نكاد نجدها بكل أبعادها وأشكالها عند غير المؤمنين، ممن استخفّهم الشيطان، واستعبدهم الهوى، ولعبت برؤوسهم الأهواء والشهوات.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

الشعبة الثانية

الإيمان بالملائكة

معنى الإيمان بالملائكة :

الإيمان بالملائكة يعني التصديق بوجودهم، وصفاتهم، في إطار ما جاءت به النصوص الشرعية، من كتاب وسنّة، من غير زيادة ولانقصان؛ لأن الملائكة عالم مغيّب، وحواسّنا ووسائل معرفتنا عاجزة عن إدراك ذواتهم، والوقوف على حقائقهم.

وسبيلنا إلى الإيمان بهم، والتعرّف على صفاتهم إنما هو الخبر الصادقُ، الصادر عن الله عزَّ وجل، وعن رسله الكرام، عليهم الصلاة والسلام.

ولا يقدح خفاؤهم علينا، واحتجابهم عن حواسنا في حقيقة وجودهم، أو يغضُّ منها، لأن من المسلَّم به عقلاً أن هذا الإنسان بملكاته، وقدراته، ووسائل معارفه، ومعلوماته ـ محدود، لم يؤتَ القدرة على الوقوف على كل شيء موجود، والاطّلاع عليه. إذ الموجودات أعم من المشاهدات؛ لذا قيل: عدم الوجدان لايستلزم عدم الوجود.

فإذا ثبت أن الله عز وجل قد ذكرهم لنا، وأخبرنا بوجودهم، كان لزاماً، أن نصير إلى الإيمان بهم، والتسليم بوجودهم، فالإقرار بهم، والتسليم بوجودهم شعبة من شُعَب الإسلام، وخصلة من خصال الدين، وإنكارهم بعد هذا لا يعني إلا المكابرة، والجهل.

حقيقة الملائكة :

إن مما يدل على حقيقة الملائكة، وبيان طبيعتهم التي صاغهم الله تعالى

منها حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتْ الملائكةُ من نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ من مارِجٍ من نارٍ، وخُلِقَ آدمُ مما وُصِفَ لكم» [رواه مسلم (٢٩٩٦) في الزهد].

الجانُّ: الجنُّ.

مارج: لهب مختلط بسواد النار.

وهذا الحديث يُبين أن الله تعالى خلق الملائكة من عنصر لطيف هو النور، وليس ذلك على الله بعزيز، فقدرته سبحانه وتعالى صالحة لأن توجد تلك الخليفة ـ الملائكة ـ من ذلك العنصر اللطيف.

قال الله تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص: ٦٨].

وقد ذكر الله عز وجل شيئاً من أشكالهم، فقال: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فاطر: ١].

وبناءً على هذا، فقد عرَّف العلماء الملائكةَ، بأنهم: «أجسامٌ عُلويَّةٌ نُورانيَّةٌ لطيفةٌ».

أما صفات تلك الأجسام، وهيئاتها بالتفصيل فذلك مما لاسبيل إلى معرفته، مادامت النصوص لم تُفصِح عن تلك التفاصيل، ومن ثَمَّ، فنحن لا نتكلّف البحث عن شيء منها.

حكم الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة واجبٌ شرعاً، وهو ركن من أركان العقيدة الإسلامية، وشرط في صحة الإيمان بالله تعالى، ولذلك كان منكر وجودهم كافراً بالله تعالى، مكذّباً بما أُخبر به، ضالاً عن جادَّة الحقّ والصواب.

قال الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ

وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد سئل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمانُ: أن تُؤمنَ باللهِ، وملائكته، وكتبـهِ، ورسـلِهِ، واليَـوْمَ الآخرِ، وتُؤمنَ بالقَدَرِ خيرِهِ وشرِّهِ» [رواه البخاري (٥٠) في الإيمان؛ ومسلم (٨) في الإيمان، واللفظ له].

خلق الملائكة كان قبل خلق البشر:

وهذا مما دلت عليه نصوص القرآن الصريحة، فلقد خاطبهم الله تعالى، وأخبرهم بخلق آدم، وهو لايزال في طي الإرادة الإلـٰهية، وآدم ـ كما هو معلوم ـ أبو البشر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذا الخليفة هو آدمُ عليه السلام، كما هو صريح نصوص القرآن الكريم.

الملائكة لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة:

لا يجوز أن نصف الملائكة الكرام بأنهم ذكور، أو أنهم إناث، ومن سمَّاهم إناثاً فقد أعظم على الله الفرية. ولهذا شنع القرآن الكريم على المشركين أن سمَّوا الملائكة إناثاً.

قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. أي: ما شـهدوا خلقهم، وما عرفـوا حقيقتهم، فحكمهم عليهم بالأنوثة محض كذب وفتراء، وسيعاقبون على هذه الأكاذيب والافتراءات.

الملائكة أشداء أقوياء :

وتلك القوة والشدَّة لا نعرف حدودها، وليس لدينا مقاييس لضبط درجاتها، وغاية ما يمكن أن نصل إلى معرفته هو مجرَّد وصفهم بذلك.

قال الله تعالى في وصف خزنة جهنم: ﴿ مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقال: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]. والروح: هو جبريل عليه السلام، أفرده سبحانه وتعالى بالذكر تشريفاً له وتكريماً.

وقال تعالى في وصفه: ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠].

الملائكة مسخّرون للعبادة :

الملائكة معصومون عن المعاصي، قائمون بطاعة الله تعالى، وملازمة عبادته، لا يعصون الله تعالى، ولا يخالفون له أمراً، بل لايتأتى منهم فعل المعصية، لأنهم مخلوقون على غير استعدادٍ لها، والإلمام بشيءٍ منها.

قال الله تعالى في حقهم: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧ـ٢٨].

وقال: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩ـ٢٠].

الملائكة يكونون معنا ولا نراهم :

لأن حاسة البصر عندنا لا تُدرك إلا ضمن قائمة من الشروط، وحقيقة الملائكة خارجة عن حيّز تلك الشروط، لذلك لا نراهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: ١١]. أي للإنسان ملائكة يتناوبون على حفظه بأمر الله تعالى، ومع ذلك فهو لا يراهم.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [سورة قٓ: ١٨].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يا عائشُ هذا جبريلُ يقرئكِ السَّلام» فقلت: وعليه السلامُ، ورحمةُ اللهِ وبركاتُهُ. ترى ما لا أرى، أريدُ رسولَ الله ﷺ. [رواه البخاري (٣٧٦٨) في فضائل الصحابة؛ ومسلم (٢٤٤٧) في فضائل الصحابة].

الملائكة قادرون على التشكّل بأشكال البشر:

وليس ذلك بمستحيل عقلاً، ولا هو بمستبعد على قدرة الله تعالى، فإن الله عزَّ وجلّ قد يهبهم مثل هذه القابلية، ومادام الله تعالى قد قطع ذلك لهم، فلا مندوحة من الإيمان به، والصيرورة إليه.

قال الله تعالى في حق مريم وجبريل عليهما السلام: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩]. والمرادُ بـ(أرسلنا إليها روحنا): جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ﴾ [الحجر: ٥١ ـ ٥٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦١ ـ ٦٢].

والآيات وراء ذلك كثيرة، ولابدَّ من الإيمان بما نطقت به، ودلّت عليه، وأخبرت عنه.

وظائف الملائكة:

لقد اقتضت حكمةُ الله تعالى أن يُسخِّر ملائكته في كثير من الوظائف والأعمال، يقومون بها، ويؤدونها على شكل لا سبيل لنا أن نتعرَّف على الطريقة التي يمارسونها وهم يقومون بما كُلِّفوا به من أعمال، ولئن كان الله عز وجل قد كلَّفهم بما كلَّفهم به، فليس ذلك عن حاجة به إليهم، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، بل هو الغني عن خلقه، وكلٌّ ماعداه مفتقر إليه، سبحانه وتعالى، وليس لأحد أن يسأله عما قضاه وقدَّره.

قال تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وهذه الوظائف والأعمال التي ذكرها الله تعالى لملائكته كثيرة نذكر منها مايلي:

١ ـ النزول بالوحي، وتبليغ رسالات الله تعالى إلى الرسل:

وهذه وظيفة جبريل عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

٢ ـ النفخ في الصور:

والصُّورُ: البوق، وهو مخلوق الله أعلم به. وصاحب الصور هو إسرافيل عليه السلام. وسينفخ ثلاث نفخات:

الأولى ـ نفخة الموت والهلاك:

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨].

الثانية ـ نفخة البعث والنشور:

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨].

والثالثة ـ نفخة الحشر:

قال الله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٥٣].

٣ ـ حَمَلة العرش:

والعرشُ في اللغة: سرير الملك. وعرش الرحمن: مخلوق عظيم، الله أعلم به.

قال الله تعالى: ﴿ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

٤ ـ الحافّون حول العرش:

قال الله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزمر: ٧٥].

٥ ـ خزنة الجنة:

وهم القائمون على رعاية أهلها، والمرحبون بهم، والمسلّمون عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

٦ ـ خزنةُ جهنّم:

وهم القائمون على شؤون النار، وتعذيب أهلها، وتوبيخهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً ﴾ [المدثر: ٢٧ ـ ٣١].

وقال: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

٧ ـ المحافظة على الإنسان:

وقد سمَّى الله تعالى الملائكة المكلَّفين بهذه الوظيفة: (المعقّبات).

قال الله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ [الرعد: ١١].

٨ ـ مراقبة العباد وكتابة أعمالهم:

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

وقال: ﴿ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ۝١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ﴾ [سورة ق: ١٧ ـ ١٨].

٩ ـ قبض الأرواح:

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١].

وقد بيّن الله تعالى أن هناك أعواناً لملك الموت يشاركون في قبض الأرواح.

قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١].

١٠ ـ الدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم:

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

[غافر: ٧ ـ ٩].

وهناك وظائف أخرى للملائكة نُمسك عنها خشية الإطالة، ولابدَّ أن يقف عليها مَن قرأ القرآن، وتدبّر آياته.

ولابدّ للمؤمن بملائكة الله تعالى من أن يستشعر بعد هذا الذي ذكرناه عظيم سلطان الله تعالى، وسعة ملكه، ونفوذ أمره، ومدى رعايته لخلقه، وتكريمه لهذا الإنسان خاصة، مما يدعوه إلى أن يعتني بتربية روحه، ويُقبِل على طاعة ربه، ويعمل للنجاة عنده يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى اللهَ بقلبٍ سليم.

* * *

وجوب الإيمان بوجود الجن

لم نُفرد الإيمان بوجود الجنّ تحت شعبة مستقلة من شُعَب الإيمان، اتّباعاً للعلماء الذين صنَّفوا في هذه الشُّعَب، وإن كان الإيمان بوجودهم من الواجبات في الشرع، إذ ما يجب الإيمان به شرعاً أعمُّ من الشعب التي ذكرت تحت شُعَب الإيمان.

فالجنّ لهم وجود حقيقي، وهم عالم مستقل، له صفاته وخصائصه. وقد ثبت وجودهم بأدلة القرآن الكريم، والسنّة المطهّرة، وأجمع على ذلك علماء الأمة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انطلق النبيُّ ﷺ في طائفةٍ من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حِيْلَ بَيْنَ الشَّياطينِ وبَيْنَ خبرِ السَّماء، وأُرْسلتْ عليهم الشُّهُبُ، فرجعت الشَّياطينُ إلى قومهم، فقالوا: مالكم؟. فقالوا: حِيْلَ بَيْنَنا وبَيْنَ خبرِ السَّماءِ، وأُرسلت علينا الشُّهُبُ. قالوا: ما حال بَيْنَكم وبَيْنَ خبرِ السَّماءِ إلاَّ شيءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مشارق الأرض ومغاربها، فانْظُروا ما هذا الذي حال بَيْنكم وبَيْنَ خبرِ السَّماء، فانْصَرَفَ أولئكَ الذين توجَّهُوا نَحْوَ تِهامة إلى النبيّ ﷺ، وهو بنخْلَةَ، عَامِدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وهو يُصلّي بأصحابه صلاة الفجْرِ، فلمَّا سمعُوا القُرْآن اسْتَمعُوا له، فقالوا: هذا واللهِ الذي حال بينكم وبينَ خبرِ السماءِ، فهنالكَ حين رجعُوا إلى قومهم، وقالوا: ياقومنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، فأنزل اللهُ تعالى إلى نبيّه ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وإنَّما أوحيَ إليه قَوْلُ الجنِّ» [رواه البخاري (٤٩٢١) في التفسير].

فإنكار الجن بعد هذا لا يعني إلا تكذيب هذه النصوص الثابتة، ومثل هذا التكذيب كفر من غير شك، ودعوى عدم رؤية الجنّ لا يصلح دليلاً على عدم وجودهم، لأن من الثابت عقلاً وعلماً أننا لم نؤتَ القدرة على رؤية كل ما هو موجود، إذ الموجودات أعمّ من المشاهدات، وعدم الوجدان لا يستلزم بالبداهة عدم الوجود.

والجن في حقيقتهم عالم مخلوق في الأصل من نار، ودليل ذلك قول الله عزّ وجل: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥].

والجانُّ: الجن.

والمارج: اللهبُ المختلط بسوادِ النار.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلقتِ الملائكةُ من نـور، وخُلِق الجانُّ من مارجٍ من نـارٍ، وخُلق آدم ممَّا وُصف لكم» [رواه مسلم (٢٩٩٦) في الزهد].

أما أشكال أجسامهم، وكيفية عيشهم، فهذا مما لاسبيل إلى معرفته، لأن عالم الجن عالم مغيّب، ولاسبيل لنا إلى معرفة شيء عنه إلا عن طريق الخبر الصادق، ومادام الخبر الصادق قد سكت عن ذلك، فلا ينبغي الخوض فيه.

قال العلماء: لقد كان النبيُّ ﷺ مرسَلاً إلى الجنِّ، كما هو مرسَلٌ إلى الإنس.

وقد تكررت قراءة رسول الله ﷺ على الجن، ولقاؤه بهم، وقد أسلم له طائفة منهم، وكانوا رسلاً إلى قومهم، كما صرّح القرآن الكريم بذلك.

وهذه بعض الحقائق ذات الصلة بالجنّ نذكرها مشفوعة بأدلتها من القرآن الكريم:

١ ـ الجن يروننا، ولا نراهم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

٢ ـ للجن تجمّعات معينة تشبه تجمعات البشر في قبائل وأجناس، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾.

٣ ـ يعيشون على الأرض:

قال الله تعالى لآدم، وحواء، وإبليس: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأعراف: ٢٤].

٤ ـ يقدرون على القيام بأعمال شاقة:

قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [سورة صۤ: ٣٧].

٥ ـ يقدرون على الحياة خارج هذا الكوكب:

قال الله تعالى عنهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

٦ ـ يتناسلون، ويتوالدون:

قال تعالى عن إبليس: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

٧ ـ مكلَّفون بالعبادة، ولديهم القابلية للهدى والضلال، وفيهم المؤمن والكافر:

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۝١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤ ـ ١٥].

٨ ـ قادرون على الوسوسة في صدور بني آدم، وتزيين الشرِّ لهم:

قال الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠].

وقال: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٤ ـ ٦].

وقال عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة صَ: ٨٢ـ٨٣].

٩ ـ استراقهم السمع من الملأ الأعلى قبل بعثة النبي ﷺ:

قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٩].

١٠ ـ ليس لهم تسلط على إرادات بني آدم، وكل عملهم الوسوسة والإغراء، والإغواء:

قال الله تعالى عن الشيطان: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

١١ ـ لا يعلمون الغيب:

قال الله تعالى عن سليمان، والجن الذين كانوا يعلمون بين يديه: ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾ [سبأ: ١٤].

هذا قدر مستيقن من أمر الجن يجب تصديقه، والإيمان به، لأنه ثبت بالنص القاطع الذي لا مرية فيه.

والله تعالى أعلم.

* * *

الشعبة الثالثة

الإيمان بكتب الله تعالى ومنها القرآن الكريم

مفهوم كتب الله تعالى:

كتب الله تعالى: هي عبارة عمَّا أوحاه الله تعالى من كلامه العزيز إلى رسله الكرام، وضمَّنه أمره ونهيه، وبيّن فيه ما أحلَّه وما حرَّمه، وماشرعه، وما منع منه، ممَّا فيه صلاح الناس في دنياهم، وسعادتهم في آخرتهم.

قال الله تعالى مخاطباً نبيّه محمداً ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣].

وقال تعالى في صفة القرآن الكريم: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ـ١٦].

وقال: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى في حقّ التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال في حق الإنجيل: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

﴿يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

وقال تعالى في شأن صحف موسى وإبراهيم: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٣٦ـ٤٢].

وقال في كتبه عامة: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وهكذا نجد أن الوحي الإلٰهي المتمثّل في هذه الكتب السَّماوية إنما كان الغرضُ منه هداية الناس إلى مصالحهم الحقيقية، ومنافعهم الدُّنيوية والأخروية.

معنى الإيمان بالكتب الإلٰهية:

الإيمان بالكتب الإلٰهية يعني أن نعتقد ونصدق أنهـا وحيٌ من عند الله تعالى، أوحاها إلى رسله ليبلغوها إلى أقوامهم، فيعملوا بها، فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

وليس معنى هذا أن نعتقد أن هذه الكتب ـ ماعدا القرآن الكريم ـ لاتزال هي الآن كما كانت عليه حينما أُنزلت من عند الله تعالى، بل الواقع اليقيني ليدلّ على أنها قد دخلها كثير من التحريف والتغيير، والزيادة والنقصان على أيدي كثيرين ممن امتهنوا التجارة بأديان الله تعالى، قال الله تعالى في شأن اليهود وما صنعوه في التوراة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال فيهم أيضاً: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨].

وليس حال غير اليهود من أهل الكتاب مع كتبهم بأحسن حالاً من حال اليهود، فهم أيضاً غيّروا وبدّلوا، وزادوا ونقصوا، ولم يرعوا كتب الله حقَّ رعايتها.

قال الله تعالى فيهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١].

لذلك كان من وظيفة النبي محمد ﷺ أن يدلّ أهل الكتاب بهذا القرآن على بعض ما أخفوه من كتبهم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [المائدة: ١٥].

أما القرآن الكريم ـ فللَّهِ الحمد والمنَّة ـ فقد ظلَّ كما أنزله الله تعالى سليماً من التقوُّل، بعيداً عن ساحة التغيير والتبديل، لم تمتدّ إليه يد أحد بزيادة، أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصّلت: ٤١ـ٤٢]. وقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

حكم الإيمان بكتب الله تعالى:

الإيمان بكتب الله تعالى كلها، من غير تفريق بينها واجب، وشعبة من شُعب هذا الدين، وركن من أركان العقيدة الإسلامية، وشرط لصحة الإيمان بالله تعالى، ومَن أنكرها، أو أنكر واحداً، أو استخفَّ بها، أو بواحدٍ منها، فقد باء بغضبٍ من الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وقد سئل النبي المصطفى ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمانُ: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَر خيره وشرّه» [رواه البخاري رقم (٥٠) في الإيمان؛ ومسلم (٨) في الإيمان].

حكمة إنزال الكتب السماوية :

إن الله سبحانه وتعالى لم يشأ أن يترك هذا الإنسان ـ الذي خلقه في أحسن تقويم، وفضّله على كثير ممن خلق تفضيلاً ـ يتيه في هذه الدنيا، ويضلّ في جنباتها، ويخبط فيها على غير هُدى، وإنما أراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يرشده إلى الصواب، ويأخذ بيده إلى مواطن الخير والفلاح، فخصّه بوحيه، وأكرمه بكتبه، وأنار له الطريق بشرائعه وأحكامه، وضمن له السعادة الدنيوية والأخروية، إن هو ربط نفسه بدين الله، وسار على نور وحيه الكريم، وكفل له أن لا يخاف دَرَكاً في هذه الدنيا ولا يخشى، مادام ملتزماً بأصول هذا الوحي، يمشي سوياً على صراط الله المستقيم.

إنَّ كتب الله تعالى حوت معالم الحياة الرشيدة، وتضمَّنت أفضل النظم الحميدة، التي على أساس قبولها، والعمل بها تتحقق السعادة لهذا الإنسان في هذه الأرض.

ولقد وصَّى الله تعالى عباده، وأرشدهم إلى نهجه السويّ، وطريقه المستقيم، فقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨].

وقال: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

وإذا كان هنا في هذا الدنيا ناس شاؤوا لأنفسهم غير ما رضيه الله لهم، فسلكوا مسالك الهوى، وساروا في أودية الشقاوة والردى، فما ذلك لذنب جرّه الدين إليهم، أو شرّ رضيه الله لهم، وإنما هو الغباء والجهل بمصائر الأمور، وعواقب الأعمال.

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٢٠].

فراحوا يحفرون لأنفسهم بأيديهم، ولمن يجري وراءهم من الرعاع مهاوي الهلاك والعذاب، ويشرعون لأنفسهم ولغيرهم سبل العسر والحرج، فما نجحوا، ولا أفلحوا.

قال الله تعالى فيهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٦].

وقال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٥ـ١٧٦].

وقال: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴾ [الكهف: ١٠٣ـ١٠٦].

القرآن الكريم آخر الكتب الإلـٰهية، وناسخ لها:

كُتب الله تعالى كلّها من أولها إلى آخرها، من بداية ما نزل منها إلى نهاية ما نزل، ما علمنا منها ومالم نعلم، كانت كلها على نسق واحد من حيث دعوتها إلى الإيمان بوجود الله تعالى، وتأكيد وحدانيته، وتنزهه عن كل ما لا يليق به، والدعوة إلى عبادته، والخضوع له.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقال: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ

﴿ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وهذه الكتب الإلـهية هي أيضاً واحدة من حيث اشتمالها على الدعوة إلى الإيمـان بالملائكـة والكتب السـماوية، والرسـل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، لأن هذه العقائد من الأمور الثابتة التي لا تختلف من كتاب إلى آخر، كما لا تختلف من وقت إلى آخر.

كما أن هذه الكتب واحدة أيضاً من حيث دعوتها إلى الفضائل والآداب، والتحلّي بالشيَم الكريمة، والخصال الحميدة.

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٤-٣٥].

وقال تعالى على لسان شعيب: ﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وهذه الكتب الإلـهية واحدة كذلك من حيث هدفها، ووظيفتها، ومن ذلك إخراجُ العباد من الظلمات إلى النور.

قال الله تعالى في حقّ القرآن: ﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥].

وإلى كل ذلك يشيرُ قول الله تعالى:

﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣].

فدينُ الله واحد في كل ما ذكرناه، وكتبه شاهدة بذلك، وقد تعاقبت الرُّسل

كلهم على الدعوة إليه، والبعثة به. وهذا الدين الذي نزل

ودعا إليه الرسلُ كلهم هو الإسلام، وليس له عند الله تعالى ا

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل

وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ

[يونس: ٧٢].

وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١].

وقال إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨]

لكن بعد هذا كلّه نقول: إن هذه الكتب الإلهية لم تكن كلها في أمر التشريع سواء، ولم تكن على نسق واحد.

ونعني بالتشريع تلك الأحكام العملية المتعلقة بتنظيم شؤون العباد الفردية والاجتماعية، والمعاشية والسياسية، من طعام وشراب ولباس، وزواج وطلاق ونفقة، وبيع وشراء، ورهن وإيجار، وحرب وسلام... وغير ذلك، وكذلك تلك الأحكام المتعلقة بأداء العبادات، وبيان كيفياتها وصورها من صلاة، وصوم، وزكاة، وغير ذلك.

فالكتب السماوية في هذا الجانب قد وجد فيما بينها التفاوت والاختلاف، وليس في ذلك معرّة ولا مضرّة، بل فيه مصلحة ومنفعة، لأن حاجات الأمم مختلفة، ومشاكل المجتمعات متفاوتة، وكان كل كتاب يحوي من الشرائع والأحكام ما تحتاج إليه الأمة، ويفتقر إليه المجتمع، لأن شرائع الله كلها تهدف إلى جلب المصالح للناس، ودرء المفاسد عنهم، ونجد مصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المائدة: ٤٨].

الشريعة: الأحكام المشروعة من صلاة، وصوم، وبيع... وغير ذلك.

والمنهاج: هو الطريق العملي لأداء تلك الشرائع والأحكام.

وقال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

كل ذي ظفر: ما لم تفرق أصابعه: كالإبل، والنعام.

الحوايا: جمع حاوياء، وهي الأمعاء.

وقال الله تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

وقال تعالى مخاطباً سيدنا محمداً ﷺ: ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال عزّ وجلّ في بيان وظيفة النبي ﷺ، وإبراز ميزات شرعه: ﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

من هذا كله يتبين بوضوح أن أمر التشريع في الكتب الإلـٰهية والرسالات السماوية لم يكن واحداً، وإنما كان على شيء من الاختلاف والتفاوت.

بعد هذا التمهيد الذي قدّمناه نقول: إن الله تعالى ـ جلّت حكمته ـ أراد أن يكون القرآن الكريم آخر الكتب السماوية، وأن تكون شريعة سيدنا محمد ﷺ

خاتمة الشرائع كلها، وأن يكون هذا القرآن ناسخاً بأحكامه التشريعية كل حكم في الكتب السماوية السابقة جاء مخالفاً لما في هذا القرآن الكريم.

وعليه، فلا يصح أن يُرجع إلى شيء من أحكام تلك الكتب، ولا أن يُعتمد عليه، حتى ولو لم يكن مما دخله التحريف والتبديل، وهذا ما أجمع عليه المسلمون.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣].

قال الألوسي في تفسير هذه الآية: ليظهر دين الحقّ على سائر الأديان بنسخه إياها، حسبما تقتضيه الحكمة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ» [رواه مسلم (١٧١٨) في الأقضية].

والنتيجة التي يجب أن نصل إليها، ونعتمد عليها هي أن شريعة سيدنا محمد ﷺ، المتمثلة في كتاب الله تعالى، وسنة نبيه هي الشريعة العامة لكل الناس، وهي الشريعة الباقية الخالدة التي يجب أن يصير إليها الناس، ويعتمدوا عليها، وأنه لا ينسخها شرع أبداً، لأنه ليس لأحد من الخلق سُلطة التشريع، والتبديل، والتغيير في دين الله تعالى، لأنه لا عبرة بالتشريع إلا إذا كان وحياً من عند الله تعالى.

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، وإذا كان هذا، فلا يتصور مجيء شرع ناسخ لشرائع هذا القرآن، أو ملغٍ لأحكامه.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

إن من خصائص هذا القرآن الكريم أنه المعجزة التي تحدّى الله بها العالمين، فقال عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ

﴿بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقد حوى من الشرائع والأحكام كل ما يحتاجه البشر، وكانت أحكامه وشرائعه صالحة لكل زمان ومكان، ولِمَ لا، وقد أنزله العليم الحكيم.

قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

* * *

الشعبة الرابعة

الإيمان برسل الله جميعاً

مَن هم الرسل :

الرسل هم الصفوةُ المختارة من الناس، الذين اجتباهم الله تعالى، وأوحى إليهم بكتبه، وأنزل عليهم شرائعه، ليقوموا بدورهم بتبليغ الناس ما أُنزل إليهم من ربهم، ودعوتهم إلى الإيمان والعمل بما أوحاه الله إليهم، فيحظوا بسعادة الدنيا، ونعيم الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال عز وجل فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَـٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

ولقد اختار الله عز وجل رسله من جنس الرجال، ولم يبعث رسولاً من النساء.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم ﴾ [يوسف: ١٠٩].

ولقد جبل الله تعالى رسله منذ الصغر على حبِّ الكمال، والتحلّي بالفضائل، والرغبة في الخير، وطبع حياتهم بطابع الصلاح والاستقامة، وعصمهم عن المعاصي والعيوب التي تشينهم، وتقدح في صفاء سيرهم، ونصاعة تاريخهم، وأوجب لهم من صفات الكمال: كالصدق والأمانة، والتبليغ والفطانة، ما يبعث على الثقة بهم، والميل إليهم، وميّزهم بخصائص ليست لغيرهم من البشر،

وأيّدهم بالمعجزات التي تدل على صدقهم، وتفحم مكذبيهم، وتقيم الحجة على معانديهم.

والمعجزة: أمر خارق للعادة يعجز البشر عن الإتيان بمثله.

والمعجزة: هي كلمة الفصل بين النبي، والمتنبئ، والصادق والمتقوّل. والرسل وراء هذا بشر من بني آدم، يجوز في حقهم ما يجوز في حقّ سائر البشر من الأكل والشرب والزواج، والمرض والموت، وسائر الأعراض البشرية التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العليّة.

قال الله تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال في حقّ الرسل جميعاً: ﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد: ٣٨].

من خصائص الرسل:

إن الله عز وجل خصَّ رسله بآيات يمتازون بها، ليست لغيرهم من البشر، نذكر منها:

١ ـ تكليم الله عز وجلّ مَن كلّم منهم.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٢ ـ قدرتهم على رؤية الملائكة، والتلقي منهم، والأخذ عنهم، فيقع لهم العلم بما يسمعونه منهم، أو يتلقّونه عنهم، فقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ روحَ القُدُسِ نَفَثَ في رُوعي: أنَّ نفساً لن تموتَ حتى تستكمل رزْقَها، فاتَّقُوا الله، وأجْملُوا في الطلب» [رواه ابن ماجه (٢١٤٤) في التجارات].

٣ ـ تغيير العادة في مخاطبتهم، فقد قيل للنبي ﷺ: كيف يأتيكَ الوحيُ؟

فقال: «أحياناً يأتيني مِثْلَ صَلْصلَةِ الجرَسِ، وهو أشدُّه عليَّ، فيفْصِمُ عني، وقد وعيْتُ ما قال، وأحياناً يتمثلُ ليَ الملكُ رجلاً، فيكلِّمني، فأعي ما قال» [رواه البخاري (٢) في بدء الوحي].

٤ ـ تقوية حفظهم، فيحفظون ما يسمعون مهما طال، فقد كان النبي ﷺ يسمع السورة من الملك مرّة واحدة، فيعيها، ويحويها قلبه مهما كانت طويلة.

٥ ـ إذكاء أفهامهم حتى تتسع لضروب من الاستنباط بما أوحي إليهم، لا يبلغها فهم من دونهم الناس.

٦ ـ إذكاء أبصارهم حتى يدركوا الأشياء النائية، فقد قال النبي ﷺ: «زُويت لي الأرضُ، فرأيتُ مشارقها ومغاربها، وسيبلغُ ملكُ أمتي ما زُوِيَ لي منها» [رواه ابن ماجه (٣٩٥٢) في الفتن].

٧ ـ سماعهم، ورؤيتهم ما لا يستطيع غيرهم من البشر سماعه أو رؤيته، وقد قال رسول الله ﷺ: «أطَّتِ السَّماءُ، وحُقَّ لها أنْ تئط، ما منها موضعُ قدم إلاَّ وفيه ملكٌ واضعٌ جبهتَهُ ساجداً لله تعالى» [رواه الترمذي (٢٤٢٨) في الزهد].

وقال ﷺ: «دخلتُ الجنَّةَ، فرأيتُ فيها نَبِقاً كقلال هَجَرَ» [رواه البخاري (٣٨٨٧) في مناقب الأنصار].

٨ ـ تخصيصهم بالإخبار عن كثير من الغيوب البعيدة في الماضي السحيق، أو المستقبل المديد.

قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وهناك أمور أخرى نمسك عنها. [انظر كتاب (مختصر المنهاج في شعب الإيمان)، ص٥٥ ـ ٥٨].

عدد الرسل:

لقد شاءت حكمة الله تبارك وتعالى أن يرسل في كل أمة من الناس رسولاً منهم، يتكلم بلسانهم، ويعرفون حسبه ونسبه فيهم، يدعوهم إلى الله، ويدلّهم عليه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

ومن هذا يتبيَّنُ بوضوح أن رسل الله عليهم الصلاة والسلام كثير، لا يعلم عدَدهم إلاَّ اللهُ تعالى، ولكن الله ـ جلَّت حكمته ـ قصَّ علينا في كتابه الكريم أسماء خمسة وعشرين منهم. هم: آدم، إدريس، نوح، هود، صالح، إبراهيم، لوط، إسماعيل بن إبراهيم، إسحاق بن إبراهيم، يعقوب بن إسحاق، يوسف بن يعقوب، أيوب، ذو الكفل بن أيوب، شُعيب، موسى، هارون، إلياس، اليسع، داود، سليمان بن داود، يونس، زكريا، يحيى بن زكريا، عيسى، محمد صلوات الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [النساء: ١٦٤].

حكمة إرسال الرسل:

والحكمة في إرسال الرسل تنبع من حاجة الناس إليهم، فلولاهم لظلَّ البشر في جهالة، ولما عرفوا عن ربهم عزَّ وجلَّ، ما يجب أن يعرفوه، ولما كانت الحجة قائمة عليهم إذا خالفوه، لهذا وغيره أرسل الله رسله مبشرين ومنذرين، قال الله تعالى:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

معنى الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام يعني أن نصدّق تصديقاً جازماً ببعثة كل واحد منهم ذُكر اسمه في القرآن الكريم، وأن نصدق تصديقاً إجمالياً ببعثة رسل الله الذين أرسلهم، ولم يُذكر لنا أسماؤهم.

حكم الإيمان بالرسل:

الإيمان بالرسل جميعاً من غير تفريق بينهم واجب، وشُعْبَةٌ من شُعَبِ الإيمان، وركن من أركان العقيدة، وشرط لصحة الإيمان بالله تعالى، فمَن أنكرهم، أو أنكر واحداً منهم، فقد خرج من الدين، وردَّ على الله تعالى قوله.

قال الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

وقال رسول الله ﷺ حين سُئل عن الإيمان: «الإيمانُ: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشرّه» [رواه البخاري (٥٠) في الإيمان؛ ومسلم (٨) في الإيمان].

محمد ﷺ آخر الرسل:

وهذا من المسلَّمات في الإسلام، وهو معلوم من الدين بالضرورة، فمَن زعم غير ذلك فقد كفر.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال رسول الله ﷺ: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياءِ من قبْلي كمثْلِ رجلٍ بنَىٰ بيْتاً، فأحسنَهُ، وأجمَلَهُ، إلاَّ مَوْضعَ لَبِنَةٍ من زاوية من زواياه، فجعل الناسُ يطُوفونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولون: هلاَّ وضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خاتَمُ النَّبيينَ» [رواه البخاري (٣٥٣٥) في المناقب؛ ومسلم (٢٢٨٦) في الفضائل رقم (٢٢)].

عموم رسالة محمد ﷺ وشمولها:

من المعلوم أن الرسل قبل مبعث سيدنا محمد ﷺ كان كل واحد منهم يُبعث في قومه خاصة، ولم يُبعَث واحد منهم إلى الناس عامة، وهذا واضح من نصوص القرآن الكريم:

قال الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وهكذا نجد كل نبي يدعو قومه خاصة دون غيرهم.

أما سيدنا محمد ﷺ فقد أُرسل إلى الناس جميعاً، وكُلِّف أن يدعو العباد كلهم إلى الله تعالى.

قال الله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال رسول الله ﷺ: «فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بستٍّ: أُعْطيتُ جَوَامعَ الكَلِمِ، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ، وأُحلَّت ليَ الغنائمُ، وجُعلَتْ لي الأرضُ مَسْجداً، وطهُوراً، وأُرسلْتُ إلى الخلْقِ كافَّةً، وخُتِمَ بيَ النَّبيُّون» [رواه مسلم رقم (٥٢٣) في المساجد].

وبناءً على أن النبي ﷺ كان آخر الأنبياء، وكانت رسالته عامة لجميع العباد، فإن رسالته كانت شاملة بأحكامها كل نواحي الحياة، ناظمة بشرائعها كل ما يحتاج إليه الإنسان فرداً ومجتمعاً، في كل عصر وفي كل مصر، سواء كان ذلك في العقائد والعبادات، أم في التشريع والأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الإسراء: ٨٩].

* * *

الشعبة الخامسة

الإيمان باليوم الآخر

معنى الإيمان باليوم الآخر:

اليوم الآخر: هو اليوم الذي يكون في آخر هذه الدنيا الفانية، والإيمان به يعني التصديق الجازم أنَّ هذا اليوم آتٍ لاريب فيه، وأن هذا العالم الرتيب المنتظم سوف ينتهي، ويأتي عليه يوم يتلاشى فيه.

والاعتراف بنهاية هذا العالم، وانقضائه يعني الاعتراف بابتدائه، وحدوثه بعد أن لم يكن، لأن القديم لايفنى ولايتغيّر.

إن الله عز وجل خلق هذا العالم على أعظم ما يتصور العقل إبداعاً، وإتقاناً، وإحكاماً واتّساقاً، فكلّ شيءٍ فيه آخذٌ مكانه على أعظم ما يكون، وأتمّ ما يتصوّر، والناظر إليه، والمتأمل فيه يرى العجب العجاب، وما يذهب بالألباب: سماوات واسعة، وفضاءً شاسعاً، وشمساً تنير، وقمراً يضيء، ونجوماً تزهر، ورياحاً تبعث الحياة، ومياهاً عذبة تحيي الموات، وأشجاراً، وأزهاراً، وثماراً، ودوابَّ، وخلائقَ لايحصيها العدُّ، ولايأتي عليها الحدُّ، وقارات ومحيطات، وجبالاً راسيات، وغير هذا كثير وكثير.

في هذا العالم الفسيح: كل شيء فيه آخذ مكانه، وثابت على نظامه، يؤدي واجبه، ويقوم بمهمته.

قال الله عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ

ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٣ ـ ٤٠].

في وسط هذا العالم الرتيب، المليء بهذه الصنائع والبدائع وجد هذا الإنسان لينتفع بكل هذه العطيّات، ويستفيد من كل هذه الهِبات، ويتنعّم بكل هذه النِّعَم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٢ ـ ٣٤].

وليس مطلوباً من هذا الإنسان من وراء ذلك، وفي أحضان هذه النِّعَم إلا أن يشكر الخالق، ويسبح المنعم، ويطيع هذا الرب المتفضّل، فيتقبل منه الأمر، ويتلقى منه النهي، وله بعد هذا أن يعيش في رغد، ويحيىٰ في سعادة، لايخاف دركاً ولايخشى. فالإنسان هو بيت القصيد في هذا العالم الممتد، وهو حجر الزاوية في هذه الحياة الدنيا، وإن واجبه أن ينسجم مع هذه الخلائق، ويستقيم مع هذه الموجودات، الخاضعة لسلطان ربها. هذا العالم الدنيوي بما فيه من أناسيّ، وخلائق حية، وأخرى جامدة، محكوم عليه بالفناء والزوال، لتأتي من ورائه حياة أخرى، وعالم لايبيد.

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ـ٢٧]

إن الله عز وجل رسم لهذا العالم نهاية مفزعة ومخيفة، ووصف هذه النهاية بأوصاف مثيرة ومرعبة.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣ ـ ١٦].

وقال: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨ـ٩].

وقال: ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ١ـ٧].

وقال: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ١ـ٤].

وقال: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ـ٦].

وقال: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩ـ١٠].

وقال: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ـ١٠٧].

في وسط هذا الخراب المنتشر في السماء والأرض، وفي أحضان هذا الدمار الذي لا يسلم منه شيء إلا ما شاء الله يصعق هذا الإنسان، وتنتهي أنفاسه، وتنمحي حياته، وتنطوي كبرياءه، ويغدو كأن لم يكن.

قال الله تعالى: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَـٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩].

وقال: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧].

هذا اليوم الآخر الذي يكون فيه كل هذا يومُ حقٌّ لاريب فيه، والتصديق به فرض، والإيمان به واجب، وهو ركن من أركان العقيدة، وشعبة من شعب الإيمان، وشرط لصحة الإيمان بالله تعالى، وإنكاره كفر بالله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

هذا اليوم الذي يأتي بأهواله كلها، لايعلم وقته إلا الله تعالى، ومَن ادّعى علمه فقد كذب.

قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فاليوم الآخر إذاً إنما يُراد به آخر أيام هذه الدنيا، وآخر ساعات هذه الحياة، وسمّاه القرآن ساعة، لأنه يكون في ساعة لا يعلمها إلا الله تعالى.

فإذا نُفخ في الصور، وصار الناس إلى القبور، فلم يبقَ منهم أحد، فقد انتهت هذه الدنيا، وسوف يلبث الناس ما شاء الله أن يلبثوا في هذا الفناء، حتى يأمر الله عز وجل إسرافيل، فينفخ في الصور نفخة أخرى، فإذا هؤلاء الأموات قيام ينظرون، يقولون: ﴿يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ۗ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [يس: ٥٢].

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١].

إن الإيمان بهذا المصير من شأنه أن يضع للأطماع نهاية، وإلى الركون إلى الدنيا حدّاً، وإلى الكبرياء والغرور لجاماً، وإن من شأنه أن يفتح بصيرة هذا الإنسان إلى المستقبل المحتوم الذي لا يملك الفوز فيه إلا بالخضوع لربّ العالمين، والإذعان لكبريائه، والعيش وفق رضاه، وطوع أوامره ونواهيه، في تواضع جمّ، وتراحم دائم، وتعاطف مستمر، واستقامة حميدة.

* * *

الشعبة السادسة
الإيمان بالبعث بعد الموت

البعث بعد الموت حقٌّ لاريب فيه، وليس من خُلق المسلم أن يرتاب فيه، فإن الله عز وجل أكَّده، وأخبر به عباده، وهو من الأمور الممكنة بالنسبة لقدرة الله تعالى، فخالق الإنسان من العدم، وموجد الأكوان بعد أن لم تكن، لا يعجزه أن يعيد هذا الإنسان إلى الحياة بعد الموت، وإلى الوجود بعد الفناء، جسماً وروحاً.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٥ ـ ٧].

فالذي خلق الإنسان ضمن هذه السلسلة من الأطور، وبعث الحياة في هذه الأرض الموات، لا يعجزه أن يعيد هذا الإنسان إلى حيّز الحياة بعد الممات.

والمشركون ـ ومن على شاكلتهم ـ بجهلهم، وتسلط الشيطان عليهم، نازعوا في هذه الحقيقة، وتشكّكوا فيها ما وسعهم التشكك، واستبعدوها كل الاستبعاد، وأقسموا أغلظ الأيمان أنها لن تكون، ولا يمكن أن تكون.

قال الله عز وجل حاكياً كلامهم: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ ﴾ [النحل: ٣٨].

قال الله تعالى ردّاً عليهم: ﴿ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٣٨ ـ ٤٠].

وحكى الله عز وجل حال أشدهم جهلاً، وأكثرهم غباءً، وعناداً، فقال:

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٧٨ ـ ٨٣].

ولقد ذكر الله عز وجل بعض أوهام المشركين، وأمثالهم التافهة، وجهالاتهم الحمقاء، وسخافاتهم التي لاترتكز على أساس، إلا العناد، والغباء، فقال:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ [سبأ: ٧ ـ ٨].

فقال عز وجل رداً عليهم: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٨ ـ ٩].

إن موضوع البعث بعد الموت واحد من الموضوعات التي أفاض القرآن في ذكره، وأكثر من الحديث عنه، وماذلك إلا لما له من الأهمية والواقعية، وإنكاره، أو الغفلة عنه يشكل عقدة من العقد الغليظة في ذهن الإنسان، ويضع بين يديه حجاباً ساتراً يحُوْل بينه وبين رؤية كثير من الحقائق الناصعة، والعِظات النافعة. فما ركب رأسه من ركب، وأعرض عن الله مَن أعرض، إلا من وراء الغفلة عن البعث بعد الموت، والنشور بعد الفوت.

لذلك نجد الحجج والبراهين على حقيقة البعث وإمكانه تنطلق من الواقع

المحسوس الذي يخاطب السمع والبصر، قبل أن يكلّم العقل والعاطفة.

قال الله تعالى في سياق تقرير حقيقة البعث، وإمكانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ـ١٧].

هذه حقائق محسوسة، ملموسة، معلومة، ومعقولة، فكيف يرتاب بقدرة الله على البعث مَن لا يرتاب فيها، وهي أعظم برهان عليه، وقال عز وجل، زيادة في البيان، والتأكيد، وإمعاناً في الاحتجاج والتدليل:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَـٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦ـ٤٠].

وقال: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ـ١١٦].

ولما قال الكفار ـ كما حكى الله تعالى عنهم ـ ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴾ [ق: ٣].

ردَّ الله عليهم، وذكر لهم صورة كافية وافية، ناطقة بالحقائق، والوقائع الدالة على قدرته على بعثهم بأرواحهم وأجسادهم، وإعادة أشخاصهم إلى الحياة، فقال:

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٤ ـ ١١].

نعم، كما خلق هذه الخلائق، وأوجدها بقدرته، من غير أن يعجزه شيء، يكون خروج الإنسان إلى الحياة بعد الموت. بل إن الله عز وجل لفت أنظار الناس إلى ماهو مركوز في فطرهم، ومعلوم لكل عقلائهم وأغبيائهم، وهو أن الإعادة أهون من البداية، فقال عز وجل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال في ردّه على المشركين حين قالوا: ﴿ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨].

وقال: ﴿ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

والخلاصة ـ أخي القارئ ـ أن الإيمان بالبعث واجب، وشرط لصحة الإيمان بالله تعالى، وإنكاره ـ والعياذ بالله تعالى ـ كفر، وجحود بآيات الله عز وجل، وإعراض عن مظاهر حكمته وقدرته في الإنسان والأكوان، فأدر دواليب فكرك نحو مظاهر قدرة الله تعالى في هذا الوجود لتعلم علم اليقين أن وعد الله حق، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله سوف يبعث من في القبور.

* * *

الشعبة السابعة

الإيمان بحشر الناس بعد البعث من قبورهم إلى الموقف وحسابهم ومساءلتهم

إن الإيمان بأن الله عز وجل سوف يحشر الناس بعد بعثهم، وقيامهم من قبورهم، ويجمعهم في مكان واحد ـ واجبٌ، لامناص من تصديقه، والاعتراف به، وهو أمر ميسور، وسهل بالنسبة لقدرة الله تبارك وتعالى.

والآيات في هذه الحقيقة كثيرة، وصريحة، ولا ينكر معناها إلا كافر، أو مكابر.

قال الله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾ [البقرة: ٢٠٣].

وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

وقال: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾[سورة ق: ٤٤].

وقال: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يٓس: ٥٣].

وقال: ﴿وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٣٢].

وقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣ ـ ١٠٤]

وقال: ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

فهذه آيات ـ وغيرها كثير ـ تدل كلها بوضوح على هذا الحشر الخطير، والموقف الرهيب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، تعلوهم الكآبة، وتغشاهم الرهبة، ويأخذ بأنفاسهم الخوف، ويموج بعضهم في بعض، كل واحد منهم يقول: اللهمَّ أسألك نفسي، ﴿ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴾ [المعارج: ١٠].

قال الله تعالى: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨].

وقال: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

وقال: ﴿ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ [القمر: ٨].

وقال: ﴿ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ٢].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ الناسُ يوْمَ القيامةِ حُفاةً، عُراةً، غُرلاً». قلت: يارسولَ اللهِ، الرِّجالُ والنِّساءُ جميعاً، ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ؟ قال: «ياعائشةُ، الأمْرُ أشدُّ من أن يُهمَّهم ذلك».

وفي رواية: «الأمْرُ أشدُّ من أن ينظُرَ بعضهم إلى بعض» [رواه البخاري (٦٥٢٧) في الرقاق؛ ومسلم (٢٨٥٩) في الجنة].

غُرْلاً: غير مختونين.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُحشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القيامةِ على أرضٍ بَيْضاءَ عَفْراءَ، كَقُرْصةِ النَّقيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لأحدٍ» [رواه البخاري (٦٥٢١) في الرقاق؛ ومسلم (٢٧٩٠) في صفات المنافقين].

بيضاء عفراء: أي ليس بياضها خالصاً.

كقرصة النَّقيّ: أي كرغيف الخبز المصنوع من الدقيق الحَوَّارى، وهو الدقيق الأبيض المنخل النظيف من الشوائب.

ليس فيها علم لأحد: ليس فيها علامة سكنى، أو بناء، بل هي صعيد منبسط.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يَعْرقُ النَّاسُ يَوْمَ القيامةِ حتَّى يذهبَ عرقُهم في الأرضِ سبعينَ ذراعاً، ويُلجمُهم حتى يبلغَ آذانَهُمْ» [رواه البخاري (٦٥٣٢) في الرقاق، ومسلم (٢٨٦٣) في الجنة].

وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس يوم القيامة ـ وهم في عرصات الموقف ـ يفزعون إلى الأنبياء، يلتمسون لديهم الشفاعة، ليطلبوا من الله لهم الخلاص من هذا الموقف.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مع رسولِ اللهِ ﷺ في دَعْوَةٍ، فرُفعَ إليه الذِّراعُ، وكانت تُعْجبُهُ، فنَهَس منها نَهْسةً، وقال:

«أنا سيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ القيامة، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذاك؟ يجمعُ الله الأولين، والآخرينَ في صعيدٍ واحدٍ، فيُسْمعُهم الدَّعي، ويَنْفُذُهم البصر، وتَدْنُو منهم الشَّمسُ، فيبلغُ النَّاسَ من الغمِّ والكرْبِ مالا يُطيقُونَ، ولا يَحْتملُونَ، فيقولُ النَّاسُ: ألا ترَوْنَ ما أنْتُمْ فيه إلى ما بلغكم، ألا تنظرُونَ من يشفعُ لكم إلى ربِّكم؟ فيقولُ بعضُ النَّاسِ لبعْضٍ: أبوكم آدمُ، فيأتونه، فيقولون: يا آدمُ، أنت أبو البشر، خلقَكَ اللهُ بيده، ونفخَ فيكَ من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنَّةَ، ألا تشفعُ لنا إلى ربِّكَ؟ ألا ترى إلى ما نحنُ فيه، وما بلغنا؟ فقال: إنَّ ربي غضب اليوم غضباً، لم يغضبْ قبلَهُ مثلَهُ، ولا يغضبُ بعدهُ مِثْلَهُ، وإنَّهُ نهاني عن الشَّجرةِ، فعصيتُ، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوحٍ، فيأتون نوحاً، فيقولونَ: يانوحُ، أنتَ أوَّلُ الرُّسلِ إلى أهلِ الأرض، وقد سمَّاكَ اللهُ عبداً شكوراً، ألا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفعُ لنا إلى ربِّكَ، فيقول: إن ربي غضب اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضبَ بعده مثله، وإنَّه قد كانت لي دعوة دعوتُ بها على قومي، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيمَ، فيأتونَ إبراهيمَ، فيقولون: ياإبراهيمُ، أنت نبيُّ اللهِ وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى إلى ما نحن فيه، فيقول لهم:

إن ربي قد غضب اليـوم غضباً لم يغْضبْ قبله مثلَه، ولن يغضبَ بعده مِثْلَهُ، وإنّي كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذباتٍ، نفسي، نفسي، نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى، فيأتون موسى، فيقولون: ياموسى، أنت رسول الله فضَّلكَ اللهُ برسالاته، وبكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبْ قبلَه مثلَهُ، ولن يغضبَ بعده مثله، وإني قد قتلتُ نفساً لم أُؤمر بقتلها، نفسـي، نفسـي، نفسـي، اذهبـوا إلى غيري، اذهبـوا إلى عيسى، فيأتون عيسى، فيقولون: ياعيسـى، أنت رسـول الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريمَ، ورُوحٌ منه، وكلَّمتَ الناسَ في المهد، اشفع لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليومَ غضباً لم يغضبْ قبله مثله، ولن يغضبَ بعده مثلـه، ولـم يذكر ذنبـاً، نفسـي، نفسـي، نفسـي، اذهبـوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ».

وفي روايـة: «فيأتوني، فيقولـون: يـا محمد، أنتَ رسـول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر اللهُ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ، اشفعْ لنا إلى ربِّكَ، ألا ترى ما نحن فيه؟ فأنطلقُ، فآتي تحت العرشِ، فأقعُ ساجداً لربي، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ من محامده، وحسنِ الثناءِ عليه شيئاً لم يفتحْهُ على أحدٍ قبلي، ثم يُقال: يامحمدُ، ارفعْ رأسَكَ، سَلْ تُعْطهْ، واشْفعْ تُشَفَّعْ، فأرفعُ رأسي، فأقولُ: أمّتي ياربِّ، أمتي ياربّ، أمتي يـاربّ، فيُقالُ: يامحمد، أدخِل من أمتك مَن لاحسـاب عليهم من الباب الأيمن، من أبواب الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب» ثم قال: «والذي نفسي بيده، إنّ مابين المصراعين من مصاريع الجنة، كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكـة وبصرى» [رواه البخاري (٤٧١٢) في التفسير؛ ومسلم (١٩٤) في الإيمان].

هذا، وقد ذكـر الله عز وجل أن النـاس يُحشَـرون إلى الموقف أشـكالاً وأصنافاً، ويُعاملون بمثل ما يستحقون على أعمالهم، أشدُّهم تأذّياً أشدّهم في الدنيا تعدّياً، وأسوؤهم حالاً أكثرهم ضلالاً.

فمنهم من يُحشَرُ أعمى لا يعرف طريقه، ويُساقُ كالقطيع على غير هدى.

قال الله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٦].

ومنهم مَن يُحشر أسودُ الوجه أزرق، يحمل على ظهره أوزاره، وينوء بحمل آثامه.

قال الله تعالى: ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ٩٩ ـ ١٠٢].

وقال: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس: ٤٠ ـ ٤٢].

ومنهم من يُحشَر منكَّساً، يمشي على وجهه، يركبه الذلُّ والهوان، ويضع أنفه الذي كان يشمخ به مستكبراً عن السجود لربّه في الرغام أذل من الهوام.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤].

عن أنس رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا نبيَّ اللهِ، كيف يُحشرُ الكافرُ على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاهُ على الرجلينِ في الدُّنيا قادراً على أن يمشيَهُ على وجهه يومَ القيامة؟». قال قتادة، راوي الحديث عن أنس: بلى، وعزَّةِ ربي [رواه البخاري (٦٥٢٣) في الرقاق؛ ومسلم (٢٨٠٦) في صفات المنافقين].

هذا الفزع الأكبر الذي يغشى أهل المحشر، ويأخذ بأنفاس الناس، ينحسر بظلاله القاتمة، وآثاره الرهيبة عن أولياء الله تعالى وأصفيائه، الذين دانوا لربهم بالولاء، وخافوا مقامه في دار الفناء، ونهوا النفس عن الهوى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ

ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ـ١٠٣].

وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ـ٦٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سبعةٌ يُظلُّهمُ اللهُ في ظلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلاَّ ظلُّهُ: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ورجلٌ قلبُهُ مُعلَّقٌ بالمساجدِ، ورجلانِ تحابَّا في اللهِ، اجتمعا عليه، وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذات مَنْصبٍ وجمالٍ فقال: إن أخافُ اللهَ، ورجلٌ تصدَّق بصدَقةٍ فأخفاها حتَّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تُنْفقُ يمينُه، ورجلٌ ذكر اللهَ خالياً ففاضتْ عَيْناهُ» [رواه البخاري (٦٦٠) في الأذان؛ ومسلم (١٠٣١) في الزكاة].

أما الإيمانُ بالحساب يوم القيامة، والتصديقِ بالمسؤولية بين يديه عز وجل فهو أمرٌ واجب، لابدَّ منه، ولا محيص عنه، شأنه شأن الإيمان بحشر الناس إلى الموقف، وجمعهم للحساب على الأعمال، ولا يُقبل إيمانٌ بالله عز وجل إذا لم يقترن بالإيمان بالحساب والمسؤولية يوم القيامة، لأنه واقعٌ أخبر الله عنه في محكم كتابه، وأكّده في صريح بيانه، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢ـ٩٣]. وقال: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥ـ٢٦].

فبهذا الحساب، وتلك المسؤولية تتمحض العدالة، ويصبح للحياة معنًى توزن به، وتقوم عليه، وإلاّ، فما الفرق بين الصالح والطالح، والمحسن والمسيء، والظالم والمظلوم، والتسويةُ بين هؤلاء جميعاً أمرٌ ترفضه عدالة الله تبارك وتعالى، وتأباه حكمته.

قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ـ١١٦].

وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [سورة صٓ: ٢٨].

وقال: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴾ [السجدة: ١٨].

حقاً إنهم لا يستوون، ولا يمكن في ميزان العقل، والنقل أن يستووا، وإلاَّ لاستوى الأعمى والبصير، والظلمات والنور، والظلُّ والحرور، والأحياء والأموات، وهيهات هيهات.

ولولا الحساب والمسؤولية، والثواب والعقاب لاستوى الغثّ والثمين، واختلط الحابل بالنابل، وضاعت المعالم، وطغت المظالم، وفسد كل شيء، وهذا لن يكون في ميزان الأخلاق والدين. لذلك ما إن ينفخ إسرافيل نفخةَ البعث، ويقوم الناس لربّ العالمين، ثم يُساقون لأرض المحشر، حتى ينتصبَ الميزان، وتعلو راية العدل، ويُحاسَب الناس على النقير والقطمير.

قال الله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عز وجل: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

قال العلماءُ: إذا جاء الوقتُ الذي يريدُ الله عز وجل به محاسبة العباد، أقامهم بين يديه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين: ٦]

ثم وزِّعتْ على الناس كتبُ أعمالهم التي كتبها الكرام الكاتبون على العباد في الدنيا، فمَن كان من أهل السعادة استقبل كتابه بيمينه من تلقاء وجهه، فاستبشر به، واغتبط بأخذه، قال فرحاً مسروراً ـ كما حكى الله عز وجل:

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [الحاقّة: ١٩ ـ ٢١].

وأما مَن كان من أهل الشقاوة، فإنه يعطى كتابه بشماله، ومن وراء ظهره،

فيرى فيه ما يُخْزَيه، وتظهر له آثامه التي تشقيه. ويقول ما حكاه الله عنه:

﴿ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ـ٢٩].

فيقول الله عز وجل: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٠ـ٣٤].

فإذا أخذ الناس كتب أعمالهم بدأ الحساب والسؤال، ويكون على قدر الأعمال، وحسب الأحوال.

فمن كان مستحق العفو والنجاة عُرِضَت عليه أعمالُه عرضاً، وذكِّر بها تذكيراً لطيفاً. قال الله تعالى:

﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٨ـ٩].

وأما من كان من أهل البلاء والشقاء، فإن حسابه عسير، ونقاشه خطير، وسوف يبوء بالسقوط، ويهوي في السعير.

قال رسول الله ﷺ: «مَن نُوْقِشَ الحسابَ عُذِّبَ» [رواه البخاري (١٠٣) في العلم؛ ومسلم (٢٨٧٦) في الجنة].

وزيادة في تحرّي العدل، وإظهار الحق، وكشف الحقائق، حتى لا تبقى حجة لمحتج، ولا دعوى لمدَّعٍ، يؤمر أصحاب المعاصي عند الحساب أن يقرؤوا بأنفسهم كتب أعمالهم، ليدين كل واحد نفسه، ويشهد على سوء صنيعه.

قال الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣ـ١٤].

ويقول حين يرى ما يرى من فضائحه، ومخازيه، ودقائق جرائمه، وفظائع معاصيه: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾[الكهف: ٤٩].

قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ومبالغةً في الإنصاف، فإن الله عز وجل يُنطق الحواس، لتشهد على الناس، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وقال: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصّلت: ٢١].

أخي المسلم، إذا كان هذا حقاً وواقعاً، فكيف نتلافى هذا المصير المشؤوم، وهذه العواقب الوخيمة، وننجو من هذا الشرِّ المستطير؟!

أخي المسلم، إن الجواب لا تجهله، ولا يجوز أن تجهله، إنه الفرار إلى الله والعمل الصالح الذي يرضاه، ولا سبيل للنجاة بغير ذلك، فإنه لا ملجأ، ولا منجى من الله إلا إليه.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٨].

هذا، وقد أخبر النبي ﷺ أن ناساً من أمّته يدخلون الجنة بغير حساب، فسأل مَن هم؟ فقال: «هم الذين لا يَرقُونَ، ولا يَسْترقُونَ، ولا يتطيَّرونَ، وعلى ربّهم يتوكّلون» [رواه البخاري (٥٧٠٥) في الطب؛ ومسلم (٢٢٠) في الإيمان].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر: ٤٠].

أخي الكريم، هذه هي سفينةُ النجاةِ، وهذا هو مفتاح السعادة، إنه مُلكُ يديك اليوم، فاحذر أن تغرق السفينة، أو يضيع المفتاح.

قال رسـول الله ﷺ: «الكيِّسُ مَن دانَ نفْسَهُ، وعملَ لِمَا بعد المـوت، والعاجزُ مَن أتْبَعَ نفسَهُ هواها، وتمنَّى على اللهِ الأمـاني» [رواه أحمد: ٤/ ١٢٤]، والحديث في سنده ضعف، لكن معناه صحيح.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

جَعَلَني الله وإيّاك والمسلمين منهم.

* * *

الشعبة الثامنة

الإيمان بالقضاء والقدر
خيرهما وشرّهما من الله تعالى

معنى القضاء والقدر: للقضاء في لغة العرب معانٍ كثيرة: من أبرزها: الحكم، والإرادة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. أي فيما حكمت.

وقال عز وجل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]. أي إذا أراد أمراً.

وأما **القضاء** في الشرع، فإنه لا يخرج عن هذا المعنى. لذلك قال العلماء: القضاء: معناه: إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما ستوجد عليه في المستقبل؛ كإرادته خلق الإنسان في شكل معين، وزمان معين.

أما **القدر** في اللغة فمن معانيه: تحديد الأشياء، وإيجادها ضمن أشكال، وأوصاف معينة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]. أي بقدر معين، وشكل مخصوص.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ٢]. أي حدّده تحديداً.

و**القَدَر** في الشرع كما قال العلماء: هو إيجاد الله الأشياء على وفق مقاديرها

المحددة بالقضاء، كإيجاد الله تعالى الإنسان وفق قضائه، وعلمه السابقين.

وقد عكس بعض العلماء معنيي القضاء والقدر، فجعلوا القضاء بمعنى ما قلنا في القدر، والقدر بمعنى ما قلنا في القضاء.

وكيف ما كان، فإن القضاء والقَدَر يرجعان في الحقيقة إلى صفتي الإرادة والقدرة. وإرادة الله عزّ وجلّ صفة تقتضي تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه.

وقدرته ـ عز وجل ـ صفة تقتضي إيجاد الممكن، أو إعدامه، وفق إرادة الله تعالى وعلمه.

فالقضاء والقدر، معناهما إذاً أن كل شيء في هذا الوجود، وجد، أو سيوجد، إنما كان أو سيكون بإرادة الله تعالى، وقدرته، وعلمه، وخلقه، وليس شيء وجد، أو سيوجد، يمكن أن يكون صدفة، أو فلتة، من غير أن يكون لله تعالى دخل فيه.

قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ۝٥٠﴾ [القمر: ٤٩ ـ ٥٠].

وقال: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُّ شَيءٍ بقدَرٍ، حتى العجز والكيس، أو الكيس والعجز» [رواه مسلم رقم (٢٦٥٥) في القَدَر].

من هذا يتبيّن أن شيئاً ما في هذا العالم، وجد أو سيوجد، ما كان له أن يكون إلا بقضاء الله تعالى وقَدَره، وأن شيئاً من خير أو شر، عجز أو كيس، ما كان ليصيب أحداً إلا بقضاء وقَدَر.

قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢ـ٢٣].

فلا فوضى إذاً في خلق هذا العالم، ولا مصادفات عشوائية، وإنما هو وليد التخطيط والتنظيم، والتقدير والتدبير، والإتقان والإبداع.

قال الله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧].

معنى الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر إنما يعني التصديق الجازم بأنَّ لهذا الكون ربّاً عالماً مريداً، قادراً، حليماً، خالقاً، مدبِّراً، وأنه تعالى حدَّد الأشياء في الأزل، وأنه يوجدها حسب علمه ومشيئته وإرادته، وأنه لا يخرج شيء في هذا الوجود عن دائرة قهره وسلطانه، وأن ما يفعله سبحانه وتعالى في منتهى الحكمة، سواء أصابنا منه خير أو شر، بالنسبة لاعتباراتنا، وتفسيراتنا.

حكم الإيمان بالقضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء واجب، وركن من أركان العقيدة، وشرط لصحة الإيمان بالله تعالى، وإنكارهما كفر بالله عز وجل، لأنه يتضمن إنكار علم الله عز وجل، وإرادته، وقدرته، وهذا صريح الكفر.

وقد سُئل النبي ﷺ عن الإيمان، فقال: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره، وشره من الله تعالى» [رواه البخاري (٥٠) في الإيمان؛ ومسلم (٨) في الإيمان، واللفظ له].

قال يحيى بن يَعْمَر التابعيُّ الجليل: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن، ويتقفَّرون العلم ـ أي يطلبونه ـ ويزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أُنف: أي مستأنف، لم يسبق به علم، ولا قضاء، ولا قدر.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم، وأنهم بُرآءُ مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مِثْلَ أُحُدٍ ذهباً، فأنفقه ما قَبِلَ الله منه حتى يؤمن بالقدر» [رواه مسلم (٨) في الإيمان].

حرية الإنسان واختياره من القضاء والقدر:

إن الله عز وجل حكم أن يجعل هذا الإنسان خليفة في هذه الأرض.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهذا الخليفة هو آدم عليه السلام وذريته، لذلك خلق الله تعالى هذا الإنسان في أحسن تقويم؛ جسماً، وعقلاً، وروحاً، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً.

وقد قضى سبحانه وتعالى أن يكون لهذا الإنسان إرادة، وحرية، وقدرة، ومشيئة، واختيار، فيما يأتي، وفيما يذر من الأقوال والأفعال، ليتحقق بذلك استخلافه، ويترتب عليه اختباره وابتلاؤه، وهذا كله إنما كان بمشيئة الله تعالى، وقضائه وقدره، وليس بمشيئة غيره، ولا بإرادته، ولو شاء سبحانه وتعالى أن يجعل الإنسان على غير هذه الشاكلة لفعل، فإرادة الله تعالى حرَّة طليقة من الحدود، والقيود، يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، وليس لأحد من الخلق أيُّ سلطان يحدُّ به من إرادته وقدرته، أو يعارض به قضاءه وقدره.

قال الله تعالى: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

هذا، ولقد دلَّت أحكام العقل، ونصوص الدين، أن الله جعل الإنسان حرَّاً مختاراً فيما يفعله أو يتركه من تلقاء نفسه، وجعل له القدرة على ذلك، وأسند إليه مشيئة وإرادة، ونسب إليه أقوالاً وأفعالاً، وكلفه بتكاليف كثيرة ومتنوِّعة، وكلها تتوقف على القدرة والاختيار.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧].

وقال: ﴿ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٦ـ٣٧].

وقال: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ [التكوير: ٢٧ـ٢٨].

وقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴾ [المدثر: ٥٤ـ٥٥].

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ: ٣٩].

وقال: ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٣].

وقال: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٩].

وقال: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [القصص: ٤٧].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٦٩ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فهذه آيات واضحة وصريحة، تدل على حرية الإنسان واختياره، ودعوى الجبر والقهر بعدها جهل وغباء، ومجرد كذب وافتراء، وهدم للشرائع والأديان، وتسفيه لبعثة الرسل والأنبياء.

سلب الإنسان الحرية والاختيار في كثير من الأمور بقضاء وقدر:

فكما جعل الله تعالى للإنسان حرية واختياراً فيما يفعل أو يترك من تلقاء نفسه، فيما هو داخل في نطاق حريته وقدرته، فقد سلبه الحرية والاختيار في كثير من الأمور، وجعله مقسوراً للإرادة الإلـهية، ومجبوراً بها.

فليس للإنسان دخل، وليس له إرادة في خلق هذا العالم، ولا في حركة أفلاكه، وتتابع فصوله، ونمو أشجاره، ونزول أمطاره، وهبوب عواصفه، وحدوث زلازله، كما أنه ليس له دخل في خلق نفسه، ولا في تشكيل شكله، وتحديد لونه، وتعيين حجمه، وتقدير أجله، وفي هذا وأمثاله يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨].

وقال: ﴿ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥١].

وهذه الأنـواع من الحقائق والوقائع، لا يسأل الإنسان عنها، ولا يثاب، ولا يعاقب عليها، لأنها ليست من صنعه، ولا هي داخلة في دائرة حريته واختياره.

الهدى والضلال بقضاء وقدر:

إن الله سبحانه وتعالى - بقضائه وقدره - خلق الإنسان، وجعله مستعداً للخير والشر، والهدى والضلال.

وإن من عدلـه تعالى، وحكمتـه أن دلَّ النـاس على الخيـر، ورغّبهم فيـه، ووعدهم الأجـر عليـه، ودلهم على الشـر، وحذّرهم منـه، ومكّنهم من فعلـه، وتوعدهم بالعقاب عليه.

وإنـه تعـالـى جعـل الاستعـداد للخيـر عنـد الإنسـان يقـوى بفعـل الخيـر، والاستعداد للشر يقوى بفعل الشر.

فمن عقد العزم على أن يطيع الله تعالى، ويخضع للحق، واتجه إلى ربه، وأقبل على عبادته، وامتثال أوامره وفقه الله تعالى للخير، ويسره له، وأعانه عليه.

قال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ ﴾ [الليل: ٥-٧].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧].

وقال: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦].

ومن عقد العزم على أن يعصي الله تعالى، ويعاند أحكامه، ويخالف أوامره تركه وما أراد، وأرخى له حبل الشرِّ والفساد.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَـٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَدًّا ﴾ [مريم: ٧٥].

وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [الصف: ٥].

وقال: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٨ـ١٠].

هذه سنّة الله تعالى في عباده، ولم تجد لسنة الله تبديلاً، ولو شاء ـ سبحانه ـ لقذف في قلوب عباده أسباب الهداية أوالغواية، من غير كسبٍ منهم ولا ذنب، ومن غير إرادة منهم ولا اختيار، إذ له المشيئة المطلقة، والقدرة النافذة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقال: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ ﴾ [هود: ١١٨].

وقال: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ ﴾ [فاطر: ٨].

لكنه سبحانه وتعالى لم يشأ ذلك، وإنما شاء بفضله وإحسانه أن لا يضلَّ من الناس إلا من تعرض لأسباب الغواية، وسلك مسالك الضلال، وصرف نفسه عن وسائل الهداية، وأصرَّ على الشر والفساد، وأن يقرّبَ أسباب الهداية والتوفيق لكل من عزم على الاستجابة لأوامره تعالى، والأخذ بأحكام دينه.

الثواب والعقاب بقضاء وقدر:

أي إن الله تعالى قضى أن يرتب على أعمال الإنسان الاختيارية الثواب إن كانت صالحة، والعقاب إن كانت طالحة، وقدر أن يجزي على الحسنة بعشر أمثالها، وأن لا يجزي على السيئة إلا بمثلها.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التحريم: ٧].

وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الاحتجاج بالقضاء والقدر على الإصرار على المعاصي جهل وضلال:

احتج المشركون بالقضاء والقدر على إصرارهم على الشرك، وعبادة الأوثان، واتباع مناهج الجاهلين في التحليل والتحريم. وكثيراً ما يحتج الجهال على إقامتهم على المعاصي بالقضاء والقدر.

قال الله تعالى حاكياً مقالة المشركين: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

نعم، لقد كذبوا، لأنهم حملوا مشيئة الله تعالى على الجبر، والرضى منه بالكفر، والله تعالى بمشيئته وقضائه وقدره لا يجبر أحداً على الكفر، ولا يرغم أحداً على الفساد، لأن مشيئة الله تعالى قضت أن يترك الناس أحراراً في اختيارهم طريق الهدى والضلال، وأن لا يجبرهم على شيء من ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. أي عليكم حيث أرسل إليكم الرسل، وأنزل عليكم الكتب، وبين لكم الحق والباطل، وأمركم بالإيمان والطاعة، وأقدركم على اختيارهما، ونهاكم عن الكفر والمعاصي، ومكنكم من تجنبهما.

ثم قال عزَّ وجلّ: ﴿ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. أي بغير إرادتكم، لأنه يملك إكراهكم على ما يريد، لكنه تعالى لم يشأ أن تهتدوا كرهاً، وإلا لما كان للتكليف ولا الثواب والعقاب معنى.

قال الخطابي: قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد، وقهره على ما قدَّره وقضاه، وليس الأمر كما يتوهمون،

وإنما معناه: الإخبار عن تقدم علم الله تعالى بما يكون من أكساب العبد، وصدوره عنه عن تقدير منه.

ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر:

١ ـ إن الإيمان بالقضاء والقدر من شأنه أن يورث المؤمن الشجاعة والإقدام في الأمور كلها، لاعتقاده أن الأجل محتوم، والرزق محدود، وكل ما هو مقدَّر لابدَّ أن يكون.

قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

٢ ـ إن الإيمان بالقضاء والقدر يحمل المؤمن على الصبر، والرضى والتسليم لله تعالى.

قال عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

٣ ـ إن الإيمان بالقضاء والقدر من شأنه أن يورث المؤمن طمأنينة النفس، وراحة البال، ويقضي على الجزع والقلق، لأن المؤمن يوقن بسعة علم الله تعالى، وأن الخير فيما اختاره له، لأن الخير كله بيد الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

٤ ـ إن الإيمان بالقضاء والقدر يدعو المؤمن إلى البحث عن أسباب الخير والهدى، لاتباعها، والأخذ بها، كما يدعوه إلى البحث عن أسباب الشرِّ والضلال لاجتنابها، والبعد عنها.

قال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾ [الأعراف: ٣].

* * *

الشعبة التاسعة

الإيمان بأن دار المؤمنين الجنة
وأن دار الكافرين النار

الجنة حقٌّ، والإيمان بها واجب، وإنكارها كفر، وهي الآن مخلوقة وموجودة، تزدان لأهلها، وتنتظر الوافدين عليها من عباد الله المؤمنين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال تعالى: أعددتُ لعباديَ الصالحينَ مالا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطر على قلب بشر. ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]» [رواه البخاري (٣٢٤٤) في بدء الخلق؛ ومسلم (٢٨٢٤) في الجنة].

وقال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

ومما يدل أيضاً على وجود الجنة أن الله عز وجل ذكرها عندما ذكر رؤية نبيه ﷺ لجبريل عندها، فقال:

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٥].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عُرِضَ عليه مقْعدُهُ بالغداةِ والعشيِّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» [رواه البخاري (٣٢٤٠) في بدء الخلق؛ ومسلم (٢٨٦٦) في الجنة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا خلق الله الجنَّة والنار أرسل جبريل إلى الجنَّة، فقال: انظر إليها، وإلى ما أعددتُ لأهلها فيها، قال: فجاء، فنظر إليها، وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها. قال: فرجع إليه، فقال:

فوعزَّتكَ، لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فأمر بها، فحُفَّتْ بالمكاره، فقال: ارجع إليها، فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فرجع إليها، فإذا هي قد حُفَّتْ بالمكاره، فرجع إليه، فقال: وعزتك، لقد خِفْتُ ألاَّ يدْخُلَها أحد.

قال: اذهب إلى النار، فانظر إليها، وإلى ما أعددت لأهلها فيها، فإذا هي يركب بعضها بعضاً، فرجع إليه، فقال: وعزَّتك، لا يسمع بها أحد فيدخلها، فأمر بها فحُفَّتْ بالشهوات، فقال: ارجع إليها، فرجع إليها، فقال: وعزَّتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحدٌ إلاَّ دخلها» [صحيح الترمذي (٢٠٧٥)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفَتْ الجنَّةُ بالمكاره، وحُفَّتْ النَّار بالشهوات» [رواه البخاري (٦٤٨٧) في الرقاق؛ ومسلم (٢٨٢٢) في الجنة].

هذه النصوص كلُّها صحيحة وصريحة ودلالتها قاطعة في أن جنة الله عزّ وجلّ ـ التي هي دار الجزاء والثواب ـ مخلوقة، وموجودة، وما ذلك على الله بعزيز.

هـذه هي الجنَّـةُ، إنها دار بقـاء لا تبيد، ودار خلـود لا تفنى، وأهلهـا فيها خالدون لا يموتون، ولا ييأسون، ولا يصيبهم ما يصيب أهل الدنيا من العاهات، والآفات.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥١ ـ ٥٧].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من يدخل الجنة ينْعمُ، لا ييأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفْنى شبابه» [رواه مسلم (٢٨٣٦) في الجنة].

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد: إنَّ لكم أنْ تصحُوا، فلا تسْقموا أبداً، وإنَّ لكم أن تحْيوا، فلا تموتوا أبداً، وإنَّ لكم أن تشبُّوا، فلا تهرموا أبداً، وإنَّ لكم أن تنعموا، فلا تبأسوا أبداً،

فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]» [رواه مسلم (٢٨٣٧) في الجنة].

أسماء الجنَّة، وصفاتها:

لقد سمَّى الله عز وجل هذه الجنة بأسماء كثيرة تدل على شرفها، وفضلها، وما فيها من الخير السرمدي، والنعيم الدائم، فهي: دار المقامة، والخلد، وجنّة عَدْن، وجنّة النعيم، والفردوس، والمأوى، ودار السلام.

وقد وصفها الله تعالى بأوصاف، هي أسمى وأعلا من تصوُّر الناس لها مهما حلا لهم التصوُّر، ومهما جاد عليهم الخيال بصور الجمال والكمال.

قال الله عز وجل: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [سورة صٓ: ٥٠ ـ ٥٤].

وقال: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾ [محمد: ١٥].

وقال: ﴿وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال: ﴿يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

وقال: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ

خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ١٣ ـ ٢٢].

وقد ذكر ـ سبحانه وتعالى ـ من أوصاف أهل الجنة ما يثير الهمم إلى طلبها، ويبعث على الجدِّ للفوز بها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّل زُمرةٍ يدخلون الجنَّةَ على صورة القمر ليلة البدر، ثمَّ الذين يلونهم على أشدِّ كوْكبٍ دُرِّيٍ في السماء إضاءة، لا يبولون ولا يتغوطون، ولا يتفلون ولا يتمخطون، أمشاطُهم الذهبُ، ورشْحُهم المسْكُ، ومجامرهم الألُوَّةُ ـ عود الطيب ـ أزواجهم الحور العين، على خَلْقِ رجُلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدم، ستُّونَ ذراعاً في السماء» [رواه البخاري (٣٢٤٦) في بدء الخلق؛ ومسلم (٢٨٣٤) في الجنة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزّ وجلّ يقول لأهل الجنَّةِ: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربَّنا وسَعْديكَ، فيقول: هَلْ رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لا نرضى، ياربنا، وقد أعطيتنا مالم تعْطِ أحداً من خلقكَ، فيقول: ألا أُعْطيكمْ أفضلَ من ذلك؟ فيقولون: وأيُّ شيءٍ أفضل من ذلك. فيقول: أُحِلُ عليكم رضواني، فلا أسْخَطُ عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري (٦٥٤٩) في الرقاق؛ ومسلم (٢٨٢٩) في الجنة].

وعن صهيب رضي الله، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنَّة، يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألمْ تُدْخلنا الجنَّة، وتُنجِّينا من النار؟ فيكْشفُ الحجابَ، فما أعْطُوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم» [رواه مسلم (١٨١) في الإيمان].

هذه هي الجنة التي يجب أن نؤمن بها، ونسعى إليها، وها هي صفات أهلها، وهذا نعيمهم، فهل يدعونا كل هذا أن نعمل لنكون من أهلها، ولا نكون من أولئك الذين غبنوا أنفسهم أعظم الغبن، حين باعوا فما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر في أبد لا يزول، باعوه بصبابة عيشٍ، إنما هي

كأضغاث أحلام، أو كطيف زار في المنام، مشوب بالنقص، وممزوج بالغصص، إن أضحك قليلاً، أبكى كثيراً.

قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدْلَجَ، ومن أدْلجَ بلغ المنزلَ، ألا إنَّ سِلعة الله غاليةٌ، ألا إنَّ سلْعةَ الله الجنَّةِ» [رواه الترمذي (٢٤٥٢) في صفة الجنة].

وقال الله تعالى: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

• • •

لقد كان حديثنا فيما مضى من هذه الشعبة عن الجنة، وحكم الإيمان بها، ثم بعده نذكر النار، وحكم الإيمان بها، فنقول:

النار حقٌّ، والإيمان بوجودها واجب، شأنها شأن الجنَّة، فهما طرفا الآخرة الباقيان، الأولى دار المتقين، والثانية دار الأشقياء المجرمين، وسوف يظهران في وقتهما المحتوم، فيراهما البرُّ والفاجر من الناس.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِلۡغَاوِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٠-٩١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «احتجَّت النَّارُ والجنَّةُ، فقالت هذه: يَدْخلُني الجبَّارون والمتكبرون، وقالت هذه: يَدْخُلني الضُّعفاء والمساكين، فقال الله عز وجل لهذه: أنْتِ عذابي أعذِّبُ بكِ من أشاء، وربما قال: أصيب بكِ من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها» [رواه مسلم(٢٨٤٦) في الجنة].

فالنار حق، وهي دار الكفرة، والظلمة، والمجرمين، وهي خالدة لاتفنى، وباقية لا تنقضي، وأهلها المخلدون فيها لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها.

قال الله سبحان تعالى: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

ولهذه النار سبعة أبواب، كما قال ربنا عز وجل: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٤].

وهي درجات بعضها أسفل من بعض، والمنافقون، أصحاب القلوب السوداء في الدرك الأسفل منها.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٤٥].

ولها أسماء كثيرة تدل على تناهي العذاب فيها، وشدته على أهلها.

ومن أسمائها: جهنم، لظى، السعير، الحطمة، سقر، الجحيم، الهاوية.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ: ٢١ ـ ٢٦].

وقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٨].

وقال: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣٠].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤]

وقال: ﴿ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴾ [الهمزة: ٤ ـ ٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

وقال: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٨ـ١١].

مسكين من ركب رأسه في هذه الدنيا، واستخفَّ بأمر ربه، فكفر به، وأعرض عنه، مسكين يوم يلقى في نار جهنم، فيدعو بالويل والثبور، وعظائم الأمور، ويقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩].

ويقول: ﴿ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠].

ويقول: ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧].

فيأتي الجواب: ﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تبارك وتعالى: لأهْوَن أهْلِ النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مُفْتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهْونَ من هذا، وأنت في صُلبِ آدم: أن لا تشرك ـ أحسبه قال ـ ولا أدْخلكَ النار، فأبيت إلا الشرك» [رواه البخاري (٦٥٣٨) في الرقاق؛ ومسلم (٢٨٠٥) في صفات المنافقين، واللفظ له].

نعم، لقد أمرهم الله تعالى في هذه الدنيا بما هو سهل وميسور من الطاعات فرفضوه، وأبوا إلاَّ طغياناً وزوراً، وركبوا متن الفجور والكفر، وتعاطوا الموبقات، وأذاقوا الأبرياء الويلات، والطامات، ومسُّوهم بمرِّ العذاب، فكانت جهنم جزاء وفاقاً، وكان خلودهم فيها مكافئاً لما عزموه من البقاء على الكفر والمعاصي، لا يؤوبون عنها ولو عاشوا دهوراً.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ ﴾ [البقرة: ١٣].

وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [البقرة: ١١].

وقال: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤].

وقال: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ ﴾ [سبأ: ٣١].

وقل: ﴿ قَالُوا سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴾ [الشعراء: ١٣٦].

هذه بعض أقوالهم، وبعض مواقفهم، لقد اختاروا العذاب اختياراً، وأصروا عليه إصراراً، ورضوا به ولو كان جحيماً وناراً.

لقد حذَّرهم الله تعالى في هذه الدنيا من هذه العواقب، وقال لهم بكلام واضح لا غبش عليه، ولا غموض فيه: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل: ١٢ ـ ١٣].

وقال: ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩].

فاستخفُّوا بهذا، وقالوا بهزءٍ ووقاحة: ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٤٨].

﴿ قَالُوٓا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨٢ ـ ٨٣].

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ١٢].

لقد استباحوا الخطايا، وركبوا ظهور الدنايا، ولم يرقبوا بأحدٍ إلاًّ ولا ذمة. لكنهم يوم يُدْعون إلى نار جهنم دعاً، ويكبكبون فيها على وجوههم صماً وبكماً

وعمياً. يعترفون بجرائمهم، ويقرّون على أنفسهم، ويودون لو يفتدون من عذاب يومئذٍ بكل شيء، ولكن أنّى لهم.

قال الله تعالى: ﴿ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٨].

وقال عزّ وجلّ مؤنباً لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨].

وقال الله تعالى: ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾ [الملك: ٦ ـ ١١].

وقال لهم عز وجل: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٤ ـ ١٦].

واستمع أخي المسلم إلى هذا الحوار الذي يدور بين أهل النار ـ وهو حقٌّ لا ريب فيه ـ لترى مدى الحسرة التي ألمت بهم، والخيبة التي أدركوا غوائلها.

قال الله سبحانه تعالى: ﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم

بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
[إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢].

وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣١ ـ ٣٣].

هذه جهنم، وهذه صفاتها، وهاهم أهلها فيها، أفلا يجب أن نسعى للبعد عنها، والخلاص منها، ونحن الآن نملكه.

قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

* * *

الشعبة العاشرة

الإيمان بوجوب محبة الله عز وجل

إنَّ محبة الله عزَّ وجلّ من أوجب الواجبات على العبد، وأكبر الفروض التي افترضها الله سبحانه وتعالى عليه، ومن أخص توابع الإيمان به سبحانه وتعالى، لأن المحبة إنما تنبع من تصوّر الكمال والإحسان في المحبوب.

والله عز وجل هو المتفرد بالكمال والجمال، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١١].

﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧].

وهو المنعم بكل النعم: ظاهرها وباطنها، صغيرها وكبيرها، قريبها وبعيدها.

قال لله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣].

وقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وهو سبحانه وتعالى، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، وسخر له مافي البر والبحر، ورزقه من الطيبات، وفضله على كثير ممن خَلَقَ تفضيلاً.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [الأعراف: ١١].

وقال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

إذ كان هذا فضل الله تعالى وإحسانه، وجوده وإنعامه، وذاك كماله وجماله، فإن محبته إذاً واجبة، وهي من سلسبيل الإيمان به عز وجل، وهي من باب مقابلة الإحسان بالإحسان، ومقابلة الفضل بالشكر.

قال الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥].

وقال: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ﴾ [إبراهيم: ٧].

إنَّ محبة الله عزَّ وجلّ عاطفة يجدها المحبون في ضمائرهم، ويحسونها في أعماقهم، تحرك الشوق إلى الله تعالى في نفوسهم، والأُنس به في خلواتهم، والفكر في جلواتهم، والانشغال به في ليلهم ونهارهم، والتلذّذ بطاعته، والراحة في عبادته، والطمأنينة في مناجاته، والسهر في طلب مرضاته، لا يملّون من ذكره، ولا يسأمون من شكره، ولا يفترون عن تسبيحه، ولا ينقطعون عن تحميده، ولا يشغلهم شيء عن توحيده، فهو شغلهم الشاغل، وهمّهم الدائم، إذا حجزهم عنه حاجز أظلمت قلوبهم، وضاقت نفوسهم، وحرجت صدورهم، إنَّه ثقتهم، وأملهم، ورجائهم.

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٧-٣٨].

قال الله تعالى فيهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

هؤلاء أحباب الله، يحبهم، ويغار عليهم، من عابهم عابه الله، ومن عاداهم قصمه، لو أقسم أحدهم على الله لأبرَّ قسمه، وإذا استعاذ به أعاذه، جعلنا الله عزَّ وجلّ منهم، وحَشَرنا في عِدَادهم.

قال بعضهم:

إن لله عباداً فُطَنا ... طلّقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيٍّ وطنا
جعلوها لُجَّةً واتَّخذُوا ... صالحَ الأعمال فيها سُفُنا

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من عبادِ اللهِ منْ لوْ أقسم على اللهِ لأبرَّه» [رواه البخاري (٢٨٠٦) في الجهاد].

إنَّ من أحبَّ الله عزَّ وجلّ ذاق حلاوة الإيمان به، والذكر له، والاشتغال بطاعته.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُما، وأن يُحبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلاَّ للهِ، وأنْ يكْرهَ أنْ يعودَ في الكفرِ كما يكرهُ أنْ يُقْذَفَ في النارِ» [رواه البخاري (١٦) في الإيمان؛ ومسلم (٤٣) في الإيمان].

قال العلماء: إنَّ محبة الله عز وجل ليست اسماً لمعنى واحد، ولكنها اسم لمعانٍ كثيرة، منها:

١ ـ اعتقاد أنه ـ عزَّ اسمه ـ محمود من كل وجه، لا شيء من صفاته إلاَّ وهو مَدْحٌ له.

٢ ـ اعتقاد أنه محسن إلى عباده، متفضل عليهم.

٣ ـ أن يكون العبد في عامة أوقاته مُشْفقاً وجلاً من إعراضه عنه، وسلبه

معرفته التي أكرمه بها، وتوحيده الذي حلاَّه وزيَّنه به.

٤ ـ أن يديم ذِكره بأحسن مايقدر عليه.

٥ ـ أن يحرص على أداء الفرائض، والتقرب إليه بما يطيق من النوافل.

قال أبو بكر رضي الله عنه: من ذاق حبُّ اللهِ شغله ذلك عن حبِّ الدنيا.

وقال بعضهم: علامة محبة الله أن يحبَّ العبد ما أحبَّ الله تعالى، ويبغض ما أبغضه.

وقال بعض الصالحين: لا يكون العبد محباً لله تعالى حتى يذِّل نفسه لله، في مرضاته.

لقد أمر عز وجل رسوله ﷺ أن يقول للناس: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

إن محبة الله عز وجل مكسب للعبد، وربح له، لأنه هو المنتفع والمستفيد، والله غني عن العباد. وأجلُّ هذه المكاسب، وأعظم هذه الفوائد أن يظفر بمحبة الله له، وقربه منه، وولايته له، ودفاعه عنه.

فقد جاء في الحديث الشريف، أن الله عز وجل قال: «من عادى لي وليَّاً فقد آذنْتُهُ بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبْدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ ممَّا افترضتُه عليه، وما يزال عبْدي يتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافل حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُه كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله تردُّدي عن نفْسِ المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءَتَهُ» [رواه البخاري (٦٥٠٢) في الرقاق].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ، فقال: إنِّي أحبُّ فُلاناً فأحِبَّهُ، قال: فيحِبُّهُ جبريل، ثم ينادي في السَّماء، فيقول: إنَّ الله يحبُّ فلاناً فأحبوه، فيحبُّه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض» [رواه البخاري (٣٢٠٩) في بدء الخلق؛ ومسلم (٢٦٣٧) في البر].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سريَّةٍ، وكان يقرأ لأصحابه، فَيخْتمُ بقلْ هو الله أحد، فلما رجعوا، ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «سَلُوهُ لأيِّ شيءٍ يصْنع ذلك؟» فسألوه، فقال: لأنَّها صفة الرحمن، وأنا أحبُّ أنْ أقرأ بها. فقال النبي ﷺ: «أخبروه أنَّ الله يحبُّهُ» [رواه البخاري (٧٣٧٥) في التوحيد].

واستمع أخي الكريم إلى عواقب ذكر الله تعالى، والمحبة له.

قال الله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٤]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال عزَّ وجلّ في الحديث القدسي: «أنا عند ظنِّ عبْدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خيرٍ منهم» [رواه البخاري (٧٥٠٥) في التوحيد؛ ومسلم (٢٦٧٥) في الذكر].

وقال رسول الله ﷺ: «لا يقعُدُ قوْمٌ يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرَّحمة، ونزلت عليهم السَّكينةُ، وذكرهم الله فيمن عنده» [رواه مسلم (٢٧٠٠) في الذكر].

أخي المسلم، إنَّ مما لا شك فيه أنَّ ذكر الله تعالى علامة حبه، لأن من أحبَّ شيئاً أكثر من ذكره، لذلك كانت الغفلة عن الله تعالى من أظهر علامات خلوِّ القلب من محبة الله تعالى، وإذا خلا القلب من هذه المحبة شقَّ على اللسان ذكر الله تعالى، كما يشق على البدن طاعته سبحانه وتعالى، والإقبال عليه، ووجد في اتّباع الهوى وطاعة الشيطان خفَّة ولذة في قلبه، وعلى لسانه وجوارحه، وهذا والله، هو المشؤوم الذي آثر ما يجرّه إلى حتفه، ويدعوه إلى ضرره.

واستمع إلى الوعيد والتهديد المتمثل في كلام الله عز وجل لكل من آثر الأغيار على حبِّ الله العزيز الغفار.

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

إن دعوى محبة الله عز وجل، مع الغفلة عن ذكره، والإصرار على معصيته دعوى لا يقام لها وزن، ولا تقبل مهما أبيحت في عرصاتها الأيمان.

وصدق من قال:

تعصي الإلٰهَ وأنتَ تُظهرُ حبَّهُ ... هذا محالٌ في الفِعَالِ بَديعُ
لو كانَ حبُّكَ صادقاً لأطعتَهُ ... إنَّ المُحبَّ لمن يُحبُّ مُطيعُ

* * *

الشعبة الحادية عشرة

الإيمان بوجوب الخوف من الله تعالى

الخوف من الله عز وجل واجب على العبد، وهو مظهر من مظاهر تقدير الله تبارك وتعالى، وتعظيمه، ومعرفته، والعلم به. وهو من أبرز آثار الإيمان بجلاله، والإذعان لربوبيته. لهذا كان الأنبياء، والعلماء أكثر الخلق خوفاً من الله عز وجل، وخشية منه. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال رسول الله ﷺ: «والله إني لأعلمُهم باللهِ، وأشدُّهم له خشيةً» [رواه البخاري (٦١٠١) في الأدب].

والجهل بالله عز وجل، وضعف المعرفة له، أو عدم العلم به، هو الذي يفتح الباب واسعاً أمام الجهال، ليأمنوا جناب الله عز وجل، ويتجرَّؤوا على معصيته ومخالفته، ويردُّوا ما أمر به، وينكروا ما جاء عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، وقال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وكان لجهل كثير من أهل الكتاب بربهم عز وجل دور كبير في تقولهم على الله تعالى، وادعائهم ما ليس لهم، فقد زعموا ـ جهلاً ـ أنهم أبناء الله وأحباؤه، وماداموا كذلك، فإنه لا يعذبهم، وإن عذبهم، فإنما هي أيام معدودات، وتنقضي.

وقد ردَّ الله عليهم أقوالهم، وتحدّاهم ـ إن كانوا صادقين ـ أن يدعوا على أنفسهم بالموت، ليصيروا في مكان القرب منه، وينالوا النعيم الأوفى عنده.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨١].

وقال عز وجل فيهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ٢٣ ـ ٢٤].

وقال: ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥].

وقال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٧].

هذا هو الجهل بالله وبأحكامه، وقوانينه وسننه، وهذه هي عواقبه وآثاره، التي تبيضها، وتفرخها دعاوى باطلة، وأماني كاذبة.

أما العلم بالله تبارك وتعالى، فلن يصدر عنه إلا الخوف من الله تعالى والخشية منه، قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الأنعام: ١٥ ـ ١٦].

وكان من أخلاق المؤمنين العارفين بربهم أنهم يعملون العمل الصالح، وهم في أشد الوجل أن يكون في عملهم شيء من الخلل يحول بينه وبين قبول الله تعالى له. قال الله تعالى في حقهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١].

قلنا: إن الخوف من الله تعالى واجب، وإن الله عز وجل أمر عباده أن يخافوه، وأن يكونوا منه دائماً على وجل، لأن هذا الخوف المقرون بتعظيم الله تعالى، هو الذي يحملهم على تحري رضاه، وتجنب سخطه، ولولا هذا الخوف

منه، والخشية له، لاستباح كل مستبيح محارم الله تبارك وتعالى.

قال الله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

وقال: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

فحريٌ بالعبد ـ مهما كان شأنه ـ أن يخاف ربه، ويخشى عقابه، ويتجنب سخطه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٢ ـ ١٠٧].

إن الخوف من الله عزَّ وجلّ ملكةٌ في النفس تحمل العبد على توقي ما يُخاف، وتجنب ما يُسخط الله تعالى.

روي عن مالك بن دينار أنه قال: إذا عرف الرجل من نفسه علامة الخوف وعلامة الرجاء فقد تمسَّك بالأمرِ الوثيق، أما علامة الخوف فاجتناب ما نهى الله عنه، وأما علامة الرجاء فالعمل بما أمر الله تعالى به.

وروي عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «المؤمن بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاضٍ فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن حياته لموته، فوالذي

نفسي بيده، مابعد الموت من مُسْتَعْب، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنَّة أو النَّار»
[ذكره الغزالي في (الإحياء) ٣/ ١٧٧؛ قال العراقي: أخرجه البيهقي في (الشعب) وفيه انقطاع؛ وذكره الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، ص١٦٠].

فإذا كان الحديث لم يصح سنداً، فإن معناه واقع وصحيح.

وعن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة، ما سمعت مثلها قط، فقال: «لو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». فغطَّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم، ولهم خنين.

وفي رواية: بلغ رسول الله ﷺ عن أصحابه شيءٌ، فخطب فقال: «عرضت عليَّ الجنَّةُ والنَّارُ، فلم أرَ كاليوم في الخير والشرِّ، ولو تعلمون ماأعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ يوم أشد منه، غطَّوا رؤوسهم، ولهم خنينٌ. [رواه البخاري(٤٦٢١) في التفسير؛ ومسلم (٢٣٥٩) في فضائل النبي ﷺ].

الخنين: هو البكاء مع غنّة وانتشاق الصوت من الأنف.

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى مالاترون، أطَّتِ السَّماءُ، وحُقَّ لها أن تئطَّ، ما فيها موضع أربعِ أصابعَ إلاَّ وملكٌ واضعٌ جبهته ساجداً لله تعالى، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصُّعُداتِ تجْأرون إلى الله تعالى»
[رواه الترمذي (٢٣١٣) في الزهد].

أطت: صوتت. والأطيط: صوت الرحل، وشبهه.
الصُّعُدات: الطُّرقات.
تجأرون: تستغيثون.

وعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلاَّ سيكلّمُهُ ربُّه ليس بَيْنَهُ وبينه تُرْجُمَان، فينظُرُ أيْمَنَ منه فلا يَرَى إلاَّ ما قدَّم، ويَنْظُر أَشْأَمَ منه فلا يَرَى إلاَّ ما قدَّم، ويَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْه فَلا يَرَى إلاَّ النَّار تِلقاءَ وجْهِه،

فاتَّقوا النَّارَ ولو بِشقِّ تمرةٍ» [رواه البخاري (٧٥١٢) في التوحيد؛ ومسلم (١٠١٦) في الزكاة].

واعلم، أخي المؤمن أنه ينبغي على من خاف الله تعالى حقاً عن علم ومعرفة أن لا يخاف غيره، لأن الله تعالى هو مالك الملك، وولي النفع والضر، والأخذ والترك، والنواصي كلها بيده.

قال الله عز وجل: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وقال النبي ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «ياغلام، إنِّي أعلِّمكَ كلماتٍ: احفظ الله يحفظكَ، احفظِ الله تجده تُجاهكَ، إذا سألت فاسألِ الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أنْ ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيْءٍ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجَفَّت الصحف» [رواه الترمذي (٢٥١٨) في أبواب صفة القيامة].

وفي رواية قال رسول الله ﷺ: «احفظِ اللهَ تجدْهُ أمامك، تعرَّفْ إلى الله في الرَّخاء يعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ، واعلم أنَّ ما أخطأكَ لم يكنْ ليُصيبكَ، وما أصابك لم يكن ليُخْطئَكَ، واعلم أنَّ النَّصْر من الصَّبر، وأن الفرجَ من الكرْبِ، وأنَّ مع العُسْرِ يسْراً» [رواه أحمد: (٢٨٠٤)].

ولما اعتقد أصحاب النبي ﷺ هذه العقيدة، وآمنوا بهذه الحقيقة، لم يزعجهم إرجاف مرجف، ولا تخويف مخوف، لأنهم علموا أن الخلق كلهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرّاً، فضلاً عن أن يملكوه لغيرهم، ولهذا أثنى عليهم ربهم عز وجل في محكم كتابه فقال تبارك وتعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ

وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥].

وقال في مكان آخر من بيانه الكريم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٣].

وقد امتدح الله عزّ وجلّ أنبياءه وأولياءه، وهذا الخُلُق من الرهبة من الله تعالى، والرغبة إليه والخضوع له، والخشوع لجلاله عز وجل، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

جَعَلَنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه، اللَّهم، آمين.

* * *

الشعبة الثانية عشرة

الإيمان بوجوب الرجاء من الله عز وجل

الرجاء: هو الأمل في حصول المطلوب، والطمع في نيل المرغوب، والرغبة في بلوغ المحبوب، والثقة بدفع المكروه، وحسنُ الظن بالله تعالى في بلوغ ذلك كله.

وهذه أمور حسنة، إذا استقرت في النفس، واستحكمت في القلب حدث عنها حبٌّ لله تعالى، وتخشع بين يديه، وتذلل لعظمته. لا يقل عن أثر الخوف منه عز وجل.

لذلك قيل: الخوف، والرجاء متناسبان، ومتلازمان كجناحي طائر، فلا خائف إلا وهو راج، ولا راجي إلا وهو خائف، ولأجل تناسب الخوف والرجاء جمع الله تعالى بينهما في أكثر من آية في كتابه الكريم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالرغبة والرَّهبة من شعب الإيمان، لأنهما من أمارات التصديق، وأمارات التصديق كلها إيمان، وكذلك الرجاء.

والرجاء الصحيح المستنير يفتح باب الأمل برحمة الله تعالى، ويشرح الصدر لحسن الثقة بجلاله، ويلوي النفس إلى ساحة الإقبال عليه جل شأنه، ويطرد شبح اليأس والقنوط من ميادين الشعور ومدارك النفس.

فهذا نبي الله يعقوب عليه الصلاة والسلام كان الرجاء أنيسه، والأمل جليسه، وهو يعاني غياب يوسف وأخيه، ويقول لأولاده كما حكى الله تعالى عنه:

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال في موقف آخر: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

وعسى هذه كلها رجاء، وأمل، وثقة، وطمع. ومن ذا الذي لا يرجو ربه، ولا يطمع بعونه ورحمته؟!.

ولقد جاء الخطاب الإلـٰهي موجهاً لكلِّ من يمكن أن يستولي اليأس على قلبه، لسرفه في المعاصي، ومبالغته في الذنوب، جاءه الخطاب مُرجيّاً بالعفو، مؤملاً بالمتاب، طارداً لشبح اليأس عن النفس.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ولو يعلم الكافر ما عِنْدَ الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد» [رواه البخاري (٦٤٦٩) في الرقاق؛ ومسلم (٢٧٥٥) في التوبة].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يموتنَّ أحدكم إلاَّ وهو يحسن الظنَّ بالله عز وجل» [رواه مسلم (٢٨٧٧) في الجنة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال الله عزَّ وجلّ: أنا عنْدَ ظنِّ عبْدي بي، وأنا معه حيْثُ يذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥) في التوحيد، ومسلم (٢٦٧٥) في الذكر].

إن الله عـز وجل فتح باب الرجاء لعباده واسـعاً، ومدَّ إليهم يد كرمـه بالليل

والنهـار، ودعاهم أن يُقبِلـوا عليـه، ويثقـوا بفضله، ويؤمِّلـوا كل خير في جنـابه العظيم.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عَشْرُ أمثالها، أو أزيد، ومن جاء بالسيِّئةِ، فجزاؤه سيِّئةٌ مثلُها، أو أغفر، ومن تقرَّبَ منِّي شبْراً تقرَّبْتُ منه ذراعاً، ومن تقربَ مني ذراعاً تقربْتُ منه باعاً، ومن أتاني يمْشي أتيته هرْولةً، ومن لقيني بقُرابِ الأرض خطيئةً لا يشركُ بي شيئاً لقيته بمثلها مغْفرةً» [رواه مسلم (٢٦٨٧) في الذكر].

والحديث شديد الوضوح والدلالة على الإطماع والرجاء بعفو الله ورحمته، وعدم اليأس من مغفرته.

ومثل هذا الحديث في الرجاء قول الله عز وجل في الحديث القدسي الآخر: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، فاستغفروني أغفر لكم» [رواه مسلم (٢٥٧٧) في البر].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يَبْسُطُ يدَهُ بالليل ليتوبَ مسيءُ النَّهار، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهارِ ليَتُوبَ مُسيءُ الليل، حتَّى تطْلعَ الشَّمسُ من مغْربها» [رواه مسلم (٢٧٦٠) في التوبة].

وقد صوَّر النبي ﷺ رضى الله عز وجل بتوبة عبده أعظم تصوير، ولسانُ حاله يدعو إلى نزع فتيل اليأس من قلوب المذنبين، وفتح أبواب الرجاء والأمل أمام الراغبين.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرضٍ فلاةٍ، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فآيس منها، فأتى شجرةً، فاضطجع في ظلها، وقد أيـس من راحلتـه، فبينما هـو كذلك إذ هـو بها قـائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربُّكَ، أخطأ من شـدَّة الفرح» [رواه مسلم (٢٧٤٧) في التوبة].

أخي الكريم، ما هي حاجة الله تعالى إلينا، وما هي منفعته من طاعتنا وتوبتنا؟! إنه، لا حاجة به لأحد، ولا منفعة له من شيء، إنه غنيٌّ عنا، ونحن بأشد الحاجة إليه.

قال تعالى: ﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٧].

فمع هذا الغنى المُطلَق لربنا عز وجل، وفقرنا المتناهي إليه، فهو سبحانه وتعالى يطمعنا بواسع رحمته، وجزيل إحسانه، ويفتح أمامنا كل أبواب الرجاء بجوده وعفوه، وما هذا إلا منتهى الرحمة التي هي من صفاته.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلْقَ كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إنَّ رحمتي تغلب غضبي» [رواه البخاري (٧٤٠٤) في التوحيد، ومسلم (٢٧٥١) في التوبة].

وفي رواية: «غلبت غضبي» [رواه البخاري (٣١٩٤) في بدء الخلق].

وفي رواية: «سبقت غضبي» [رواه مسلم (٢٧٥١) في التوبة].

واستمع ـ أخي المؤمن ـ إلى هذا الكلام الشريف، لترى بعيني قلبك، ونور بصيرتك، سعة العفو، وعظمة الحلم والكرم في صفات الله عز وجل.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنَّك ما دعوتني، ورجوتني غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي.

يا ابنَ آدمَ، لو بلغتْ ذنوبُك عَنانَ السّماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك.

يا ابن آدم، إنَّك لو أتيتني بقُرابِ الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً لأتيتُكَ بقُرابِها مغْفرةً» [رواه الترمذي (٣٥٣٤) في الدعوات، وحسَّنه].

وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

أخي المؤمن، اعلم أنه إذا كان الرجاء بالله تعالى من الإيمان، وكان حسنُ الظن بالله عز وجل فرضاً، والقنوط من رحمته، واليأس من عفوه حراماً، فليس معنى هذا أن يظل الإنسان مصرّاً على المعاصي، مقيماً على المخالفات، متحالفاً مع شياطين الإنس والجن، ثم يطمع في الوقت نفسه أن يعفيه الله تعالى من مغبة أعماله، وعواقب تصرفاته، ويترك مؤاخذته بسيئاته، ويجعله في عداد من أطاعه، ودأبَ على مرضاته، وفطم نفسه عن معاصيه ومخالفاته، فهذا من الخطأ البيِّن، والجهل الفاضح، نعم إن الله تعالى يعفو ويصفح، ولكن عمن تاب وأناب، وبدَّل سيئاته حسنات، أما من بقي مشمراً عن ساعد الجد في المعاصي، فهو عرضةً للمؤاخذة، وأهل للعذاب، وكان كأولئك الذين قالوا: ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ [آل عمران: ٢٤]. فرد الله عليهم بقوله: ﴿ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠ ـ ٨٢].

وقال رسول الله ﷺ: «الكيِّس من دان نفسَه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتْبعَ نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني» [الجامع الصغير (٦٤٦٨)].

وقال بعضهم:

ما بالُ دينكَ ترضى أن تُدَنِّسَه ... وثوبُك الدَّهرَ مغسولٌ من الدَّنَسِ
ترجو النجاةَ ولم تسلكْ مسالِكَها ... إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

* * *

الشعبة الثالثة عشرة

الإيمان بوجوب التوكل على الله عزَّ وجل

التوكل على الله تعالى: معناه الاعتماد على الله عز وجل، والالتجاء إليه، والثقة به في تحقيق الآمال، وصَرف العوائق، وتيسير الأسباب، فإن كل شيء بيده، وكل عسيرٍ عليه يسير.

والتوكل على الله عزَّ وجلّ واجبٌ على المؤمن، وهو شعبةٌ من شُعب الإيمان، ولا يتم إيمان من لم يتوكل على الله تعالى في أموره، ويعتمد عليه في شؤونه. وقد جاءَ الأمر به في الكثير من آيات القرآن الكريم، وأقوال النبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

وقال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وعن عمر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لو أنَّكم توكَّلتم على اللهِ حقَّ توكُّلِه لرزقكُم كما يرزقُ الطيرَ، تَغدو خماصاً، وتَروحُ بِطاناً» [رواه الترمذي (٢٣٤٥) في الزهد].

خماصاً: ضامرة البطون من الجوع.

بطاناً: ممتلئة البطون من الشبع.

وقد ذكر القرآن الكريم أثر التوكل على الله عز وجل، وبين فضائله.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. أي كافيه ما يُهمُّه، وحافظه مما يخافه.

وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١]. أي كفى به حافظاً، ومعيناً.

والتوكل على الله عز وجل هو السلاح الفعَّال الذي يركن إليه المؤمن في الشدائد، ويأوي إلى ظلِّه في المحن، فيهبه السكينة في قلبه، والثبات في نفسه، والشجاعة في مواقفه، ويحميه من الخَوَر، والفشل، ويمدُّه بعزيمة الرشد، ودوافع الصبر.

وتأمَّل هذا الموقف العظيم الذي يتجلى فيه حُسن التوكل على الله تعالى، والثقة به، والركون إليه:

لمَّا خرج رسول الله ﷺ من بيته في مكة مهاجراً إلى المدينة، وبصحبته أبو بكر رضي الله عنه، خرج المشركون في طلبه، وجعلوا الهدايا، والهبات لمن يأتي به حياً، أو ميتاً، ودخل رسولُ اللهِ ﷺ غار ثور، وبصحبته أبو بكر رضي الله عنه ليختفيا عن أعين المشركين، وتبعه المشركون يبحثون عنه في كل مكان، ويَقتصُّون له كل أثر، ويتحسسون كل خبر، ووصلت طلائعهم إلى الغار، وكان بوسعهم لو نظروا إليه أن يروا النبي ﷺ، وصاحبه الصدِّيق رضي الله عنه، ولكن الله تعالى أخذ بأبصارهم، وصرف قلوبهم عنهما.

إن من الطبيعي أن يتسلل الخوف إلى النفس في مثل هذه المواقف، وليس هناك معرَّةٌ أن يتوجس المرء خيفةً أمام هذه الجموع المسلحة الحاقدة المتربصة، وقد أدرك أبا بكرٍ رضي الله عنه شيءٌ من هذا. خوفاً على النبي ﷺ، وخوفاً على الدعوة أن ينتهيَ أمرُها بفقد النبي ﷺ، ولهذا لمَّا أحسَّ بهم على فم الغار قال: يارسول الله، لو نظر أحدُهم إلى مَوطئ قدميه لأبصرنا، فيجيبه الحبيب

الأعظم ﷺ بقوله الكريم الذي ينطق باليقين، ويفيض بالثقة، والتوكل على الله تعالى، من غيرِ ذُعر، ولا وَجل، ولا قلق، ولا اضطراب: «ما ظَنُّكَ يا أبابكرٍ باثنَينِ اللهُ ثالثهما» [رواه البخاري (٤٦٦٣) في التفسير].

وكيف يضعف ظنُّ أبي بكرٍ بربه في هذا الموقف، وهو الصدِّيق الذي لم يخطر الشك على قلبه في عظمة ربه، وصِدقِ دعوة نبيه لحظةً من الدهر؟

ما تردد أبو بكر في ثقته بربِّه عزَّ وجلّ.

ولقد سجَّل القرآن الكريم هذه الحقيقة الناصعة لتبقى علماً على مرِّ الزمان يلتجئ إليها المؤمنون، ويحتمي ببردها المخلصون، كلَّما نزلت بهم شدَّةٌ، أو عراهم خَطب.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

لقد تعلَّمَ الصحابة رضوان الله عليهم من هذه المواقف الرائدة، واستفادوا منها، وتحلَّوا بها، وجربوها في الشدائد، وعاينوا آثارها في المحن، فهاهم - رضوان الله عليهم - يُدعَونَ لملاحقة المشركين في أعقاب غزوة أحد، تلك المعركة الرهيبة التي أصيبوا فيها، وأثخنتهم جراحاتها، فما ترددوا في الإجابة، ولا تلكؤوا عن الخروج طاعةً للنبي ﷺ، وقد أرجف بهم المُرجِفون، وخوَّفَهم المغرضون من الكفرة والمنافقين. ولكنهم بإيمانهم وتوكُّلِهم على الله تعالى تجاوزوا كل هذه الأراجيف، وتخطَّوا كل هذه المثبِّطات، وقالوا قَولتهم المباركة التي سجَّلها لهم القرآن الكريم بكل الثناء والفخار.

قال الله عزَّ وجلّ فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ

وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٢ ـ ١٧٥].

ومثل هذا الموقف الشريف كان موقفهم أيضاً في غزوة الأحزاب، حين تألَّبت عليهم جموع المشركين، وجمعوا لهم كل حاقد وموتور، قال الله تعالى في مدحهم والثناء عليهم: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٢ ـ ٢٣].

إن التوكل على الله عز وجل عقيدة في القلب يتسلَّح بها المؤمن، ويدَّخرها لوقت الحاجة إليها، وهذه العقيدة لا تنافي الأخذ بالأسباب، واستعمال الوسائل، بل تفرضها، وتأمر بها، فليس من التوكل أن يترك العبد الأكل، ويطلبَ من الله عزَّ وجلّ أن يُشبعَه بغير طعام بدعوى التوكل عليه، ولا أن يترك السعيَ في طلب الرزق، ثم يسأل الله عزَّ وجلّ أن يرزقه من غير سعي، ولا أن يترك الجهاد، وإعداد العدَّة، ثم يذهب يسأل الله أن ينصره على الأعداء بغير قتال، حتى إن الدين أمرَ بالتداوي، واستعمال الدواء، مع العلم بأن الشفاء بيد الله عز وجل، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي خلق الدواء، وأمر باستعماله.

قال رسول الله ﷺ: «ما أنزل الله ُداءً إلا أنزل له شفاءً» [رواه ابن ماجه (٣٤٣٩)].

وقيل للنبي ﷺ: أرأيتَ دواءً نتداوى به، ورُقًى نسترقي بها، هل تردُّ من قَدَرِ الله؟ قال: «هِيَ من قَدَرِ الله» [رواه الترمذي (٢٠٦٥)؛ وابن ماجه (٣٤٣٧)].

وجاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: أخي يشتكي بطنه، فقال: «اسقِهِ عَسَلاً» فسقاه عسلاً، فَبرأ. [رواه البخاري (٥٦٨٤)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يعوذُ الحسنَ، والحسينَ يقول: «أُعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شَيطانٍ وهامَّةٍ، ومن كلِّ عينٍ لامة». ويقول: «هكذا كان إبراهيم يعوِّذ ابنيه إسماعيلَ، وإسحاق» [رواه البخاري (٣٣٧١)].

إنَّ ترك الأخذ بالأسباب، والوسائل المشروعة ليس من التوكل في شيء،

بل هو عين الجهل والتواكل، وعين الكسل والخمول. فهل رأينا النبي ﷺ ترك الأخذ بها، وأهمل الوسائل بدعوى التوكل على الله تعالى، إنه لم يفعل ذلك أبداً، وهو سيِّد المتوكلين، بل خاض حروباً، وأعدَّ لها العدَّة، وكان قلبه مؤمناً بربه، متوكلاً عليه.

فالتوكل جهاد وثقة، وحركة وطمأنينة، وعمل واعتماد على الله عز وجل.

جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ، فقال: أخلي ناقتي وأتوكَّل على الله، أو أعقلها وأتوكَّل على الله؟ قال: «اعقلها، وتوكَّل على الله» [«صحيح الترمذي» (٢٠٤٤)].

إن التوكل على الله تعالى إنما هو فرع من الإيمان به، والمعرفة له، فمن آمن بالله تعالى حقَّ الإيمان، وعرفه تمام المعرفة علم أن التوكل على الله تعالى واجب، فتوكَّلَ عليه على هَدْيِ ما أرشدَهُ إليه، ودلَّه عليه، فجمعَ بين ثقة القلب بالرَّب، وأقصى الحركة على الدرب، فلم يترك الأسباب، ولم يُهمل العمل، ولم يغفل عن ذكر ربِّه عز وجل في الشدَّة والرخاء، والعسر واليسر.

وما أجمل ما كان يفعله رسول الله ﷺ إذا خرج من بيته.

عن أم سلمة، أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: كان النبي ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسمِ الله، توكَّلتُ على الله، اللهم إني أعوذُ بك أن أضِلَّ، أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ، أو أُزلَّ، أو أَظلِمَ، أو أُظلَم، أو أَجهَلَ أو يُجهَلَ عَلَيَّ» [رواه الترمذي (٢٤٢٣) في الدعوات].

وعن أنسٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال إذا خرج من بيته: بسم الله، توكَّلت على الله، ولا حَولَ، ولا قوَّةَ إلا بالله، يُقالُ له: هُديتَ، وكُفيتَ، ووقيتَ، وتنحَّى عنه الشيطان» [رواه الترمذي (٢٤٢٢) في الدعوات].

* * *

الشعبة الرابعة عشرة

الإيمان بوجوب محبة النبي ﷺ

إن محبة النبي ﷺ ـ عاطفةً واتباعاً ـ واجبة على كلِّ مسلم ومسلمة، وهي من صميم الإيمان، ومن أعاظم شُعبه.

قال رسـول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدكم حتَّى أكونَ أحبَّ إليـه من ولده، ووالده، والنَّاسِ أجمعينَ» [«صحيح الجامع الصغير» (٧٥٨٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يُحب المرءَ لا يُحبُّـه إلاَّ لله، وأن يكرَهَ أن يعـودَ في الكفرِ بعدَ أن أنقذَهُ الله منـه، كما يكرهُ أن يُقذَفَ في النار» [رواه البخاري (١٦) في الإيمان؛ ومسلم (٤٣) في الإيمان].

وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ﴾ [الأحزاب: ٦].

وحتى تكونَ محبة النبي ﷺ ثابتة في قلب المؤمن، راسخة في ضميره، تُؤتي أُكلها كلَّ حين على خير ما يُـرادُ منها، فإن من الضرورة بمكان أن يُدرك المسلم، ويَعلَمَ جوانب السموِّ والعظمة في حياة هذا النبي العظيم ﷺ وشخصيته الكريمة، ويعرِفَ المحاسن الثابتة له في خَلقه، وخُلُقه، والآثار العظيمة التي تركها في أُمَّته، وسائر أمم الأرض إلى يوم القيامة.

وفضائل الرسول ﷺ أكثر من أن تُحصى، فقد منحه الله تعالى من الكمالات ما لم يمنحه غيرَه من قبله، ولا من بعده، سواء ما كان منها خَلقياً: كجمال الصورة، وقوة العقل، وصحة الفهم، وقوة الحواس، وفصاحة اللسان، وشَرف النسب، أو ما كان خُلُقياً مُكتسباً: كالعلم، والحلم، والصبر، والشكر، والعدل، والزهد، والتواضع، والعفو، والعفة، والجود، والشجاعة، والحياء، والمروءة، والصمت، والوقار، والرحمة، وحُسن الأدب.

أما كمالُ خَلقه، وجمال صورته، وحُسن منطقه، وفصاحة لسانه، فحدِّث عمَّا أوتيه ولا حرج، فلن تبلغ قدر ما أوتيه ﷺ.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ من ذي لِمَّةٍ أحسنَ في حُلَّةٍ حمراءَ من رسول الله ﷺ» [رواه مسلم (٢٣٣٧) في الفضائل، رقم (٩٢)]

واللمَّةُ: الشعر النازل إلى المنكبين.

وعن البراء أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ رجلاً مَربُوعاً، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجُمَّة، إلى شَحمة أذنيه، عليه حُلَّةٌ حمراء، ما رأيتُ شَيئاً قَطُّ أَحسَنَ منه» [رواه مسلم (٢٣٣٧) في الفضائل، رقم (٩١)].

وعن البراء قال: «كان رسول الله ﷺ أَحسَنَ النَّاس وَجهاً، وأَحسَنَهُم خَلقاً، ليس بالطويل الذاهب، ولا بالقصير» [رواه مسلم (٢٣٣٧) في الفضائل، رقم (٩٣)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما شَمِمتُ عَنبَراً قَطُّ، ولا مِسكاً، ولا شيئاً أَطيبَ من ريح رسول الله ﷺ، ولا مَسِستُ شيئاً قَطُّ: ديباجاً، ولا حريراً أَليَنَ مَسَّاً من رسول الله ﷺ» [رواه مسلم (٢٣٣٠) في الفضائل].

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ أَزهَرَ اللَّون، كَأَنَّ عَرَقَهُ اللُّؤلُؤ، إذا مَشَى تكَفَّأ، ولا مَسِستُ ديباجةً، ولا حريرةً أَلينَ من كفِّ رسول الله ﷺ، ولا شَمِمتُ مِسكةً ولا عَنبرةً أَطيبَ من رائحةِ رسول الله ﷺ» [رواه مسلم (٢٣٣٠) في الفضائل، رقم (٨٢)].

أزهر اللون: أبيضَ مستنيراً، وهو أحسن الألوان.

تَكَفَّأَ: مشى تلقاءَ وجهه بقوَّة، كما في الروايـة الأخرى «كأنَّما ينحطُّ من صَبَب».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيتُ شيئاً أحسنَ من رسول الله ﷺ، كان كأنَّ الشمسَ تجري في جبهته» [رواه أحمد: ٢/ ٣٥٠].

وعن هند بن أبي هالة قال: «كان رسول الله ﷺ فَخماً مُفخَّماً، يتلألؤُ وجهُهُ تلألؤَ القمر ليلةَ البدر» [رواه الترمذي في الشمائل (٨)].

أمَّا فصاحةُ رسول الله ﷺ، وامتلاكهُ أزمَّة الكلام، فقد سبق بها الفصحاء، وجاوز قدر أعظم البلغاء، وهو القائل، ﷺ: «أُعطيـتُ فَـواتحَ الكلامِ، وجوامعَهُ، وخَواتِمهُ» [«صحيح الجامع الصغير» (١٠٥٨)].

قال الإمام المناوي في (فيض القدير): ١/ ٥٦٤ في قوله ﷺ: «أُعطيتُ فواتح الكلام»: أي البلاغة، والفصاحة، والتوصُّل إلى غوامض المعاني، وبدائع الحكم، ومحاسن العبارات التي أُغلقت على غيره.

«وجـوامعه»: أي التي جمعها الله تعالى فيه، فكان كلامه جامعاً، فيأتي باللفظ القليل، الذي يُفيد المعاني الكثيرة.

«وخـواتمه»: يعني حُسـن الوقف، ورعايـةَ الفواصل، فكان يبدأُ كلامه بـأَعذب لفظ، وأجزَله، وأفصحـه، وأوضحه، ويختمه بما يشـوِّق السامع إلى الإقبال على الاستماع.

وعن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يَسردُ سَردكُم هذا، ولكنَّه كان يتكلَّمُ بكلامٍ بيّنٍ فَصلٍ، يحفظهُ من جلس إليه» [رواه أبو داود (٤٨٣٩) في الأدب، والترمذي (٢٢٤) في الشمائل»].

واسـتمع إلى جُملٍ من قولـه الفصيح، الذي سار في الناس سيرَ الأمثال، وجمعَ فيه أبدع المعاني، والحكم، والأحكام.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمون

تَتَكافَأُ دماؤهم، ويَسعَى بذِمَّتِهِم أدناهم، ويُجيرُ عليهم أقصاهُم، وهم يدٌ على مَن سِواهُم» [«صحيح أبي داود» (٢٣٩٠)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المرءُ مَعَ مَن أَحَبَّ» [رواه البخاري (٦١٦٨) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٤١) في البر].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «النَّاسُ معادنُ كمعادنِ الذَّهب والفضَّةِ، خيارُهم في الجاهليَّة خيارُهم في الإسلام، إذا فَقُهوا» [«صحيح الجامع الصغير» (٢٣١٩)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المُستَشارُ مُؤتَمَنٌ» [«صحيح الجامع الصغير» (٦٧٠٠)].

وعن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ أَخُو المسلمِ» [رواه البخاري (٤٢٤٢) في المظالم؛ ومسلم (٢٥٨٠) في البر].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانه ويدِهِ، والمهاجرُ من هَجَرَ ما نهى الله عنه» [رواه البخاري (١٠) في الإيمان؛ ومسلم (٤١) في الإيمان].

أما طيبُ أصله، وشرفُ نسبه، فإنه مما لا يحتاج إلى دليل، فإنه كان - ﷺ - من أشرف الناس بيتاً، وأكرمِهم قبيلاً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بُعثتُ من خير قرون بني آدم، قَرناً، فَقَرناً، حتى كنتُ من القرن الذي كنت فيه» [رواه البخاري (٣٥٥٧) في المناقب].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ اصطَفَى كنانةَ من ولد إسماعيلَ، واصطَفَى قُريشاً من كنانةَ، واصطَفَى من قُريشٍ بني هاشمٍ، واصطفاني من بني هاشم» [رواه مسلم (٢٢٧٦) في الفضائل].

هذه التي ذكرنا كانت فضائله الخَلقية والفطرية، فهل له ﷺ مثيلٌ فيها؟.

وصَدَقَ من قال:

خُلِقتَ مُبَرَّءاً من كلِّ عَيبٍ كأنَّك قد خُلِقتَ كما تشاءُ

أما كمالاته الخُلُقية، والكَسبية، فهي كثيرة، يعظم حصرها. وكفاه شرفاً، أن قال الله عز وجل فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وقال سبحانه وتعالى ممتناً عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال له عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال سبحانه وتعالى في حقِّه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد منَّ الله تعالى على المؤمنين ببعثته، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشدَّ حياءً من العذراءِ في خِدرِها» [رواه مسلم (٢٣٢٠) في الفضائل].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناسِ خُلُقاً» [رواه مسلم (٢٣١٠) في الفضائل].

وعن أنس أيضاً قال: «كان رسول الله ﷺ أحسنَ الناس، وكان أجوَدَ الناسِ، وكان أشجع الناسِ» [رواه مسلم (٢٣٠٧) في الفضائل].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ أجودَ النَّاسِ بالخير، وكان أجودَ ما يكون في شهر رمضانَ، إنَّ جبريل عليه السلام كان يلقَاهُ في كلِّ سنة في رمضانَ، حتَّى يَنسلخَ، فيَعرِضُ عليه رسولُ الله ﷺ القرآنَ، فإذا لقيَه

جبريلُ كان رسول الله ﷺ أجودَ بالخير من الريحِ المرسلةِ» [رواه مسلم (٢٣٠٨) في الفضائل]

وعن جابر رضي الله عنه قال: «ما سُئِلَ رسول الله ﷺ شيئاً قطُّ، فقال: لا» [رواه مسلم (٢٣١١) في الفضائل].

وجاء رجل إلى النبي ﷺ، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم! أسلموا، فإن محمداً يُعطي عطاءً، لا يخشى الفاقة. [رواه مسلم (٢٣١٢) في الفضائل].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً، ولا متفحِّشاً، وكان يقول: «إنَّ مِن خياركم أَحسنُكُم أخلاقاً» [رواه البخاري (٣٥٥٩) في المناقب؛ ومسلم في الفضائل].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما خُيِّرَ رسول الله ﷺ بين أمرينِ إلا أخذَ أيسرَهُما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعدَ النَّاسِ منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسِهِ في شيءٍ قطُّ، إلا أن تُنتهكَ حُرمَةُ اللهِ، فينتقمُ لله تعالى» [رواه البخاري (٣٥٦٠) في (الأدب)؛ ومسلم (٢٣٢٧) في الفضائل].

أما آثاره التي تركها بعده، وكان سبباً فيها ـ ﷺ ـ فهذا العلم الغزير، والتاريخ الناصع، وهذه السنَّة المطهَّرة، وهذه الأمة العريقة، التي بنى أمجادها، ونظم عِقدها، حتى قال الله عز وجل فيها: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هذه بعض جوانب في حياة هذا النبي العظيم ﷺ، وبعض ملامح شخصيته الكريمة، فأَيُّ النَّاس يمكن أن لا يحبَّه إذا وقف على خصائص هذه الشخصية المباركة، وأدرك سماتها المميزة، إلاَّ أن يكون أعمى القلب، منكَّس البصيرة.

إن الله عز وجل جعل نبيه الكريم بما حباه من الفضائل، وخصَّه من الكمال قدوةً للناس أجمعين، فقال عزَّ مِن قائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنَّ محبّة النبيّ ﷺ تتحقق بشيئين اثنين:

الأول: شعور النفس بتعظيمه، واحترامه، والشَّوق إلى لقائه.

والثاني: التأَسِّي به، والمتابعة له، ونشر شريعته، وبهذا تتم ترجمة هذه المحبة، وتستقيم على أصولها، وإلاَّ كانت كلاماً لا يزن عند الله تعالى جناح بعوضة.

وصدق مَن قال:

تعصي الإلٰهَ وأنتَ تُظهرُ حبَّهُ   هذا لعمري في القياسِ بديعُ
لو كانَ حبُّكَ صادقاً لأطعتَهُ   إنَّ المحبَّ لِمَن يُحبُّ مطيعُ

ثم إن من مظاهر تكريم النبي ﷺ، وتعظيمه أن تُكثر من الصلاة والسلام عليه، كلما ذكره الذاكرون، أو غفل عن ذكره الغافلون.

عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيلُ من ذُكرتُ عِندَهُ فلم يصلِّ عليَّ» [رواه الترمذي (٣٥٤٠) في الدعوات].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رغمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرتُ عندَهُ، فلم يصلِّ عليَّ» [رواه الترمذي (٣٥٣٩) في الدعوات].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنَّه سمع رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «أَولى النَّاسِ بي يومَ القيامةِ أَكثرهُم عليَّ صلاةً» [رواه الترمذي (٤٨٤) في فضل الصلاة على النبي ﷺ].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلُوا قَبري عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإن صلاتكم تَبلُغُني حيثُ كنتم» [رواه أبو داود (٢٠٤٢) في المناسك].

لقد أمرنا الربُّ عز وجل أن نصلي على نبيه ﷺ، وأخبرنا أنه سبحانه وتعالى يصلي عليه، هو وملائكته الكرام، فقال عزَّ من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ

عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

والصلاة من الله عز وجل عليه رحمة وتكريم، ومن الملائكة استغفار وتعظيم، ومنا نحن الآدميين تضرُّع ودعاء.

أمَّا اتِّباعه ﷺ، والتأسِّي به، فهو أمر لا مندوحة عنه في تحقيق حبه عليه الصلاة والسلام، واستئهال شفاعته، والدخول في عداد المؤمنين به، والداخلين معه في جنة الخلد، التي أعدَّها الله تعالى لعباده الصالحين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كلُّ أُمَّتي يَدخُلونَ الجنَّةَ إلاَّ مَن أَبَى». قيل: ومن يأبَ يا رسولَ الله؟ قال: «مَن أطاعَني دخلَ الجنَّةَ، ومَن عصاني فقد أَبَى» [رواه البخاري (٧٢٨٠) في الاعتصام].

وقال الله عز وجل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وقال الله عز وجل: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

لقد تجلت محبة النبي ﷺ في قلوب أصحابه كأعظم ما يكون الحب، لقد كان حبهم للنبي ﷺ ينبع من قلوبهم، وتفيض به عواطفهم، وكان سلوكهم يعبِّر عنه أبلغ تعبير.

قال أبو سفيان قبل أن يُسلِم: «ما رأيت من الناس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمدٍ محمداً».

وقال عروة بن مسعود: «والله لقد وَفَدتُ على الملوك، وفدت على قيصر،

وكسرى، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظِّمه أصحابه ما يعظِّم أصحاب محمدٍ محمداً».

وعن أنس رضي الله عنه قال: «دخل علينا النبي ﷺ فقَالَ عندنا ـ أي نام ـ فعَرِقَ، وجاءت أمي بقارورةٍ، فجعلت تَسلُتُ العرق فيها ـ أي تمسحه وتجمعه ـ فاستيقظ النبي ﷺ، فقال: «يا أمَّ سُلَيمٍ، ما هذا الذي تَصنعينَ؟» قالت: هذا عَرَقُكَ نجعله في طِيبنا، وهو أطيبُ الطِّيب» [رواه مسلم (٢٣٣١) في الفضائل]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ أحبَّ إلينا من أموالنا، وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظَّمأ».

هذه هي المحبة الحقَّة، ولِمَ لا تتجسَّد في الصحابة على هذا الشكل الرائع، وقد عاينوا محاسن هذا النبي العظيم ﷺ، ونهَلوا من مَعين فضله، وإحسانه، وأدركوا أنه كان سبب هدايتهم، وسعادتهم، والرحمة المهداة لهم.

ونحن في مثل هذه العصور، ينبغي أن تتجلى فينا هذه المحبة، ويتجسَّد فينا هذا التقدير والتعظيم لرسول الله ﷺ. لنكون معهم في الآخرة، ونَحظى بجوار رسول الله ﷺ في الجنة، فإنَّ المرءَ مع من يحب، كما ثبت عنه ﷺ.

* * *

الشعبة الخامسة عشرة

الإيمان بوجوب تعظيم النبي ﷺ وإجلاله وتوقيره

قال العلماء: إن درجة التعظيم، والإجلال، والتبجيل، والتوقير، والاحترام فوق درجة المحبة، لأنه لا يلزم من محبة الشيء التعظيم له، فقد يحبُّ المرءُ شيئاً، ولا يُكِنُّ له في نفسه تبجيلاً ولا تعظيماً، وذلك مثل محبة الإنسان عمَّالَهُ، وخَدَمَهُ، ومماليكَهُ، فإنه وإن كان يحبهم، فقد لا يعظِّمهم.

فإجلال النبي ﷺ، وتعظيمه، واحترامه، وتوقيره، أمور واجبة على المسلم، كوجوب محبته ﷺ، بل أكثر، وهي من شعب الإيمان التي تدل على صدق الانتماء إلى هذا الدين، وصحة الولاء لسيد الخَلق والمرسلين، عليه الصلاة والسلام.

وقد ذكر العلماء لهذا التوقير، والاحترام، والتبجيل، والتعظيم معالمَ تدلُّ عليه، وتشهد به، وتلزم المؤمنين، متى كانوا، وأينما كانوا، في حياة نبيهم ﷺ وبعد وفاته، وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وإليك بعض هذه المعالم:

١ ـ استشعار مكانة رسول الله ﷺ عند ربه عز وجل، ويظهر هذا من خلال النصوص التي تضمنت التنويه بفضله، وحب الله تعالى له، وتفضيله على غيره.

ومن هذه النصوص قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤].

وقوله: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥].

وقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال رسول الله ﷺ: «أنا سيِّدُ ولد آدم يومَ القيامة، وأوَّلُ من ينشقُّ عنه القبرُ، وأوَّلُ شافعٍ، وأولُّ مشفَّعٍ» [رواه مسلم (٢٢٧٨) في الفضائل].

وقال: «كنتُ نبياً، وآدمُ بينَ الروحِ والجسدِ» [صحيح الجامع الصغير (٤٥٨١)].

٢ ـ ذُكر اسمه ﷺ في التوراة والإنجيل، وأخذ العهد على الرسل قبله أن يؤمنوا به، وينصروه.

قال الله تعالى في وصفه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

٣ ـ احترام بيوته، وتعظيم أهله، وحُرمَةُ نسائه، فلا يجوز دخول بيوته إلا بإذنه، ولا يحلُّ نكاح أزواجه من بعده، ويجب تنزيلهن منزلة الأمهات في البرِّ والتكريم.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقال: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

٤ ـ وصفه بالأوصاف العظيمة الدالة على شرفه، ومكانته، واحترامه،

وفضله، وأثره، وذلك كقول الله تعالى له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٧].

٥ ـ تحريم أَذِيَّتـه، وبيان أنها كأَذِيَّـة الله تعالى، وقد ثبـت اللعن عليهـا، والعذاب لفاعلها.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال تبـارك وتعالى في ذم المنـافقين الذين كانـوا يؤذون رسـول الله ﷺ بأقوالهم: ﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [التوبة: ٦١].

٦ ـ تفضيله بعموم رسالته لكلِّ العالم، وشمولها لكلِّ أوجه الحياة، وأنواع النشاط.

قـال الله تعالـى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨].

وقال: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «أُعطيتُ خَمساً لم يعطهُنَّ أحدٌ قَبلي: نُصرتُ بالرعبِ مسيرةَ شهرٍ، وجُعلَت ليَ الأرضُ مسجداً وطهوراً، فأيُّما رجلٍ من أمتي أدركَتهُ الصلاةُ فليصلِّ، وأُحِلَّت ليَ الغنائمُ، ولم تحلَّ لأحدٍ قَبلي، وأُعطيتُ الشفاعةَ، وكان النبيُّ يبعثُ في قومهِ خاصةً، وبُعثتُ إلى النَّاسِ عامةً» [رواه البخاري (٣٣٥) في التيمم].

وفي هذا بيان فضله، وانتشار ذكره، وعموم نفعه، صلى الله عليه وسلم.

٧ ـ وجوب خطابه بألفاظ التكريم، ومحادثته بما فيه الأدب والتوقير من

الكلام، وعدم مخالفة أمره وهديه في تشريع أو تكليف، وعدم التخلف عنه في غزو أو جهاد، وعدم مفارقة مجلسه، بغير إذنٍ منه أو استئذان، وبكل هذا نطقت النصوص الصريحة في كتاب الله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٢ـ٦٣].

وقال: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

٨ ـ عدم رفع الصوت فوق صوته، وغضُّ الطرف في حضرته، وعدم التقدم بين يديه بالآراء والأفكار.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١ـ٥].

لهذه التوجيهات، والتوصيات كان الصحابة رضوان الله عليهم يخاطبون النبي ﷺ بأدب، ويُشفقون من التقدم عليه بطلب، وكانوا في مجلسه كأنما على رؤوسهم الطير، لا يحدِّقون إلى وجهه النظر، ولا يلفظون في مجلسه بهذر،

يُفدُّونه بمهجهم، ويجدون طاعته والقرب منه أعزَّ أغراضهم، وأسمى أمانيهم.

٩ ـ وجوب تعزيره، ونصره، ومتابعة النور الذي جاء به، والغيرة على حمله، وتبليغه، وهذا واجب المسلم في كل زمان ومكان.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال رسول الله ﷺ: «نضَّرَ اللهُ امرأً سمع مِنَّا شيئاً فبَلَّغَهُ كما سمعَه، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى من سامعٍ» [رواه الترمذي (٢٦٥٨) في العلم].

١٠ ـ وفي الختام نقول إن أدلَّ دليلٍ على تعظيم هذا النبي ﷺ وإجلاله تكرُّم الله عزَّ وجلَّ بالصلاة عليه، وكذلك ملائكته الكرام، وتكليف المؤمنين بالصلاة والسلام عليه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فصلاة الله عز وجل عليه تشريفٌ له، وتعظيمٌ لقدره، وصلاة الملائكة عليه طلبٌ من الله تعالى بجزيل أجره، ونعيم خيره، وصلاة المؤمنين عليه، دعاءٌ بدوام عزّه، ورفع درجاته، واستشعار بسابغ فضله، وعظيم إحسانه.

هذا، ولا بدَّ للمؤمن بهذا الدين، والمُستنِّ بسنَّة هذا النبي ﷺ، والمحب له، من دوام تعظيمه، وتنمية معالم الإكبار له في نفسه، وسلوكه، والإكثار من ذكره، والصلاة عليه.

* * *

الشعبة السادسة عشرة

شحّ المرء بدينه حتى يكون القذف في النار أحبَّ إليه من الكفر

الدين أجلُّ النِّعم على العبد، إن كان هذا العبد يعرف النِّعم، ويُقدِّرها قدرها، فإذا سلم الدين فقد هان كلُّ شيء في سبيله، لأنه هو الذي سوف يلقى به العبد ربَّه يوم القيامة، ويكون سبب نجاته يوم العرض الأكبر: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ـ٨٩].

وأيُّ قلب سليم هو، إذا لم يكن سلم بالدين، واستنار به، واستقام عليه، وهذه وصية النبي ﷺ لرجل من أصحابه قال له: يا رسول الله، قُل لي في الإسلامِ قَولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَكَ. قال: «قُل: آمنتُ بالله، ثمَّ استقِم» [رواه مسلم (٣٨) في الإيمان].

والله عز وجل يقول لعباده المؤمنين: ﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

والموت على الإسلام يعني الثَّباتَ عليه، والتمسك به حتى نهاية الأجل ونفاد الحياة.

فالشُّح بالدين، إنَّما يعني البخل به، والخوف عليه، والتمسك به، وعدم التفريط بشيء منه.

وهذا مبدأ من مبادئ الأنبياء، ومنهج من مناهجهم، فرسول الله ﷺ عرض عليه المشركون كلَّ غالٍ ونفيس، وأغروه بكلِّ شهوةٍ وجاه، ووسَّطوا له كلَّ قريبٍ وحبيب، وحملوا له الشفعاء على كلِّ صعبٍ وذلول، على أن يترك هذا الدين،

أو يرجع عنه، أو يُفَرِّطَ فيه، فلم تلن قناته أمام كل هؤلاء الوسطاء و الشفعاء، ولم يَلوِهِ عن عزيمته شيء من هذه المغريات، ولم يهتزَّ له فؤاد أمام تلك النُّذر والتهديدات، بل ظلَّ على دينه كالطَّود الشامخ، لا ينثني عنه طرفة عين، وقال للناس قولته المشهورة: «واللهِ لو وضَعُوا الشَّمسَ في يميني، والقَمَرَ في يَساري، على أن أَترُكَ هذا الأمرَ ما فعلتُ، حتى يُظهرَهُ اللهُ، أو أهلِكَ دُونَهُ» [«سيرة بن هشام»: ١/ ٢٦٦؛ و«عيون الأثر»: ١/ ٩٩].

وراودوه أن يخفف من غُلَوائه، فيقاسمونه، ويقاسمهم، فيعبدون ربَّه يوماً، ويعبد آلهتهم يوماً، فردَّ عليهم بقول الله تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

ولقد استنَّ نبيُّنا ﷺ في هذا سنَّة سلفه من الأنبياء عليهم صلوات الله وسلاماته، امتثالاً لأمر ربِّه عزَّ وجلّ حيث قال له: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠].

فهذا نبي الله شعيب ﷺ يتهدده قومه بالطرد من بلده، إن لم يترك دينه، ويتَّبعهم على دينهم، فما يزيده ذلك إلا ثباتاً على دينه، وإصراراً عليه.

قال الله عز وجل حاكياً حاله، وحالهم معه:

﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٨ ـ ٨٩]

وفي الدنيا نماذج كثيرة من هؤلاء الأثبات الصالحين، الذين ضحوا بدنياهم وما فيها من مال وجاه في سبيل بقاء الدين وسلامته.

فأصحاب الأخدود، وأصحاب الكهف، وأصحاب محمد ﷺ، كان

همُّهم الأول أن يَسلَمَ لهم الدين الرفيع من الأذى، وليذهب في سبيله كل شيء من حطام الدنيا، وأموالها، وأهوائها.

لذلك كان الخوف على الدين، والشحُّ به من أعظم مظاهر اليقين، وأبرز شعب الإيمان.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَن كُنَّ فيهِ وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: أَن يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ مما سواهُما، وأن يحبَّ المرءَ لا يُحِبُّهُ إلاَّ للهِ، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفرِ بعدَ أن أنقَذَهُ اللهُ منه كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النارِ» [رواه البخاري (١٦) في الإيمان؛ ومسلم (٣٤) في الإيمان].

وقد بيَّن القرآن الكريم خطر التفريط في الدين، والترك له، أو الردَّة عنه ـ أعاذنا الله من كل ذلك ـ فقال عز وجل: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وردَّةُ المسلمين عن دينهم، واستخفافهم به مطلب من مطالب الكفار والمنافقين، ما أكثر ما رغبوا فيه، وسعوا إليه، واحتالوا له بكل خدعة ظاهرة وخَفِيَّة.

قال الله تعالى في شأن الكفار: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال في المنافقين: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [النساء: ٨٩].

وقال في أهل الكتاب: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ

إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال: ﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ يَشْعُرُونَ﴾[آل عمران: ٦٩].

فواجب المسلم إذاً أن يكون عظيم الخوف على دينه، شديد الحرص عليه، وذلك ببذل الجهد في تأكيده، وتثبيته، وتقويته، وتنميته، العمل الدائب على زيادته، فإن الدين يزيد وينقص، والإيمان يقوى ويَضعف، ومن أسباب زيادته، ووسائل تقويته كثرة التعبُّد، والتَّفكر، والذِّكر، والدُّعاء، ومصاحبة الأخيار، والبعد عن الأشرار.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ الإيمانَ ليخلَقُ في جَوفِ أحدِكُم كما يخلَقُ الثوبُ، فاسألُوا اللهَ تعالى أن يُجَدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم» [«الجامع الصغير» (١٩٥٧)].

قال العلماء: إن الشحَّ بالدين ينقسم قسمين:

أحدهما: الشحُّ بأصله، كيلا يذهب.

والآخر: الشحُّ بكماله، كيلا ينقص.

والشُّحَّان جميعاً من الإيمان.

فذهاب الإيمان من أصله ـ والعياذ بالله ـ إنما يكون بالردَّة عن الدين، وقانا الله منها. والردَّة لها أسباب كثيرة، ينبغي معرفتها والحذر منها.

من أسباب الردة:

١ ـ استحلال محرَّمٍ عُلمت حُرمته من الدين بالضرورة: كاستباحة الربا،

والخمر، وترك الصلاة، والزكاة ونحو ذلك.

٢ ـ ومنها: تحريم حلالٍ عُلم حلّه من الدين بالضرورة، كتحريم البيع، والزواج، والصدقات، ونحو ذلك.

٣ ـ ومنها: استقباح شعائره، والاستخفاف بشرائعه، واعتقاد أن غيرها أفضل منها وأنفع.

٤ ـ ومنها: أن يفعل فعلاً من خصائص الكفار: كالسجود لصنم، أو ممارسة شيء من عباداتهم راضياً مختاراً.

٥ ـ ومنها: أن ينطق بما يتنافى مع الدين: كأن يشتم الإسلام، أو الإلـه، أو النبي ﷺ.

فمثل هذه الأمور تعتبر ردة والعياذ بالله تعالى إذا صدرت من مسلم عاقل بالغ مختار.

وينبغي أن يُعلَمَ أن أحداً من المسلمين الذين نشؤوا في بلاد الإسلام، وسمعوا أحكام الدين لا يُعذرُ بجهله في مثل هذه القضايا والأمور، ولا يُقبلُ منه أنه لا يعرف مثل هذه الأمور الظاهرة الواضحة من أمر دينه، لهذا كان طلب العلم الشرعي فرضاً على كل مسلم ومسلمة في حدود ما يصحح عبادته، ويُقَوِّمُ اعتقاده، ويُسدِّدُ سلوكه.

وأما ذهاب كمال الدين، وتسرب النقص إليه، فإنما يكون بفعل المعاصي غير المكفِّرة، وما أكثرها. وإذا تراكمت، وركب بعضها بعضاً كادت أن تطفئ نور الإيمان، وتمحق أثره، وتدعه بلاقع، لا يسمن ولا يغني من جوع.

قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فشحُّ المسلم بأصل دينه، وشحُّه بكماله، معناه أن يخاف على ذهابه، ويخاف على ضعفه ونقصه خوفه من الوقوع في النار المحرقة على وجهه.

وهذ أمر ينبغي أن يحسَّهُ المؤمن في أعماقه، وتستقيم نفسه عليه، ولهذا قيل: إن المؤمن يرى الذنب إذا أذنبه كأنه جبل يريد أن ينقضَّ عليه. وأما المنافق وضعيف الدين، فلا يـراه إلا كذبـابة طنَّت عند أنفه، فأبعدها بيده، نسـأل الله العافية، والسلامة من مضلاَّت الفتن.

* * *

الشعبة السابعة عشرة

طلب العلم

طلب العلم فريضة على كل مسلم، ومسلمة، لأنه الوسيلة إلى معرفة الحقِّ عز وجل، ومعرفة ما يُحِبُّه من عباده، وما يُرضيه عنهم.

فبالعلم يعرف العبد ما يجب لربه تبارك وتعالى من الصفات، وما يستحيل عليه، وما يجوز في حقه، وبالعلم يعرف أحكام دينه، وشرائع إسلامه، وبالعلم يُحسن العبد الخلافة في الأرض، والعمارة لها، وبالعلم يحسن الإنسان قيادة نفسه في سبيل الخير، ودعوة غيره إلى طرق النجاة والنجاح، وبالعلم تُصان قداسة الأمة، وتُحرس حرماتها، وتعزُّ كلمتها، وتقوى أواصرها، وتتحقق وحدتها، إن العلم هو كل شيء في الحياة، ولذلك كان الوسيلة التي زوَّد الله تعالى بها آدم عليه السلام قبل أن يكلِّفه الهبوط إلى الأرض، والإقامة فيها، والعمارة لها.

قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١].

وما هي هذه الأسماء التي علَّمه الله تعالى إياها، وهو لا يزال في جنة الله العالية؟.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «علَّمه كلَّ شيءٍ، حتى القَصعةَ، والقُصَيعَةَ».

والقَصعةُ: اسم لوعاء يُؤكل فيه، والقُصَيعَةُ: تصغير له.

أي علَّمه أسماء الأشياء، وخصائصها، ومنافعها، ووظائفها، لأنه يحتاج إلى معرفتها، لأنه سوف يتعامل معها، وبها، فكان لا بدَّ من معرفتها، ليألفها، ويحسن استخدامها، فالإنسان عدوٌّ ما يجهل، وبعد أن أقامه في الأرض راعياً،

وداعياً علَّمه شرائعه، وأوحى إليه بما له وما عليه.

لهذا كـان العلم أمراً ملحَّاً، وحاجـة ضرورية، ونصيب الأمـة من العـزَّة والتقدم إنما يقاس بقدر ما تأخذه من العلوم، وتنتفع به.

وحتى يُدرك الإنسـان المسـلم وغيره مدى اهتمام الإسلام بالعلم، فإن عليه أن يعلم أن أوَّل آية نزلت من السماء إلى غلاف هذه الأرض، وخوطبت بها هذه الأمة على لسان نبيها ﷺ إنما هي الدعوة إلى العلم بكل وسائله من قراءة، وكتابة، واستماع.

قال الله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

وتوالت آيات الله عز وجل في مُحكم كتابه تدعو إلى العلم، وترَغِّبُ فيه، وتحثُّ عليه، وتبيِّن قدْر العلماء، وتُثني عليهم، وتُبرز مكانتهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وقال: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ ﴾ [المجادلة: ١١].

وقال: ﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ ﴾ [فاطر: ٢٨].

والرسول الأعظم ﷺ، وهو رسول هذا الإسلام، والمعلم له، والداعي إليه، دعا بإلحاحٍ إلى العلم، ولم يألُ جهداً في تعليم النَّاس العلم، وترغيبهم به، وحثِّهم عليه، وتحذيرهم من الغفلة عنه، والجهل به.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَن سَلَكَ طريقاً يَلتمِسُ فيه عِلماً، سَهَّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنة» [رواه مسلم (٢٦٩٩) في الذكر].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن خرجَ فـي طَلَبِ

العِلمِ، فهو في سـبيلِ اللهِ حتَّى يَـرجِعَ» [رواه الترمذي (٢٦٤٩) في العلم].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن سلكَ طريقاً يَبتغي فيه علماً سَهَّلَ اللهُ له طريقاً إلى الجنَّةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنِحتَها لطالبِ العلمِ رضىً بمـا صنعَ، وإنَّ العالِمَ ليسـتغفِرُ لـه مَـن في السَّماواتِ و مَن في الأرضِ، حتَّى الحيتانُ في الماءِ، وفَضلُ العالِمِ على العابدِ كفَضلِ القمرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا دِرهماً، وإنَّما ورَّثوا العلم، فمَن أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ» [رواه أبو داود (٣٦٤١) في العلم؛ والترمذي (٢٦٨٣) في العلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدُّنيا مَلعونةٌ، مَلعونٌ ما فيها، إلاَّ ذِكرَ اللهِ تعالى، وما والاه، وعالماً، أو متعلِّماً» [رواه الترمذي (٢٣٢٣) في الزهد].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ، وملائكتَهُ، وأهلَ السَّماواتِ والأرضِ، حتَّى النَّملةَ في جُحرِها، وحتَّى الحوتَ، ليُصلُّونَ على معلِّمي النَّاسِ الخيرَ» [رواه الترمذي (٢٦٨٦) في العلم].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ منَّا شيئاً، فبلَّغَهُ كما سمِعَهُ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى من سامعٍ» [رواه الترمذي (٢٦٥٨) في العلم].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاَّ من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يَدعُو له» [رواه مسلم (١٦٣١) في الوصية].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن علمٍ فكتمهُ أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) في العلم؛ والترمذي (٢٦٥١) في العلم].

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن يُرِدِ اللهُ به خيراً

يُفقِّهه في الدين» [رواه البخاري (٧١) في العلم؛ ومسلم (١٠٣٧) في الزكاة].

لقد كان لهذه الدعوة الرائدة المباركة إلى العلم في كتاب الله تعالى، وسنَّة نبيه ﷺ أثرها في حياة المسلمين، وتاريخ هذه الأمة التي شرفها الله بهذا الدين القويم، فلقد غَدَوا ـ بعد أن كانوا أمةً أميّةً لا يقرؤون ولا يكتبون ـ حَمَلَةَ ألوية العلم، ومحاضن أنواره، والناشرين له في كل مكان من أنحاء هذه المعمورة، وغدت أقوالهم في الحض على العلم، والدعوة إليه منائر في العالَم، ومشاعل يهتدي إليها من شاء من الناس.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «النَّاسُ ثلاثة: عالمٌ ربانيٌّ، ومُتعلِّمٌ على سبيل نجاةٍ، وسائرُ النَّاسِ هَمَجٌ رَعَاعٌ أتباعُ كلِّ ناعقٍ، يميلُون مع كل ريحٍ».

والهمج: الحمقى، والرعاع من الناس، لا نظام لهم.

والرَّعاعُ من الناس: الغوغاء الذين لا قلوب لهم، ولا عقول.

وقال علي رضي الله عنه: «العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسُك، وأنت تَحرسُ المال».

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «العالِمُ والمتعلِّمُ في الأجر سَواءٌ، والناسُ رجلان: عالم ومتعلم، ولا خير فيما سوى ذلك».

وقال أبو بكرة رضي الله عنه: «كن عالماً، أو مُتعلِّماً، أو مُستمعاً، أو مُحبّاً، ولا تكن الخامسةَ فتهلك».

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «مَوتُ العالمِ ثلمةٌ في الإسلام، لا يَسُدُّها شيءٌ ما اختلفت الليالي والأيام».

وقيل لعبد الله بن المبارك رحمه الله تعالى: «إلى متى يَحسنُ للمرءِ أن يتعلم؟ قال: ما دام يقبحُ عليه الجهل، يَحسنُ له العلم».

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «تعلَّموا العلمَ، فإن تعلّمهُ حسنة، وطلبه

عبادة، ومذاكرتَهُ تَسبيح، والبحثَ عنه جهاد، وتعليمَهُ لمن لا يعلمهُ صدقة، وبذلَهُ لأهلهِ قربة».

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «تواضعوا لمن تتعلمون منه، ولمن تعلمونه، ولا تُباهُوا به العلماءَ، ولا تماروا به السُّفهاءَ، ولا تختلفوا به إلى الأمراء، ولا تَطَاولوا به على عباد الله، فتكونوا من جبابرة العلماء».

هذا العلم بسماته الخُلقيَّة، ومعالمه الزكية، وروحانيته النقية، وضوابطه الإيمانية، هو الحارس الأمين لقيم الحياة من الانحراف، والحامي لسفينتها من الغرق، ولربَّانها من الظلم، وإذا لم يكن في العلم هذه المنائر الهادية أمكن أن تجعل منه الأيدي الخبيثة، والنفوسُ الملوثة، سُبُلَ تدميرٍ للإنسانية، وطرائق ظلمٍ واستغلالٍ للبشرية، ويومئذٍ تكون نعمة العلم نقمةً على الحياة، كما هو مُشاهدٌ في جوانب كثيرة في هذه الأرض.

قال بعضهم:

ماذا يفيدكَ بعدَ اليومِ يا بَشَرُ ... إنْ كنتَ بالعلمِ لا بالجهلِ تَنْتَحِرُ

لذلك كان العلمُ الحقُّ هو ما أورثَ العبدَ الخشية من الله تعالى، والعطف على عباده، والرحمة بهم، والإحسان إليهم.

رُوي عن سيدنا عيسى ﷺ أنه قال: «ما أكثر الأشجار، وليس كلُّها بمثمرٍ، وما أكثر العلماء، وليس كلهم بمرشدٍ، وما أكثر الثمار، وليس كلُّها بطيب، وما أكثر العلوم، وليس كلُّها بنافعٍ».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلَّم علماً ممَّا يُبتغى به وجهُ اللهِ عزَّ وجل، لا يتعلَّمُهُ إلاَّ ليُصيبَ به عَرَضاً من الدُّنيا، لم يجد عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامة». يعني ريحها. [رواه أبو داود (٣٦٦٤) في العلم].

هذا، وقد قسم العلماء طلب العلم قسمين:

الأول ـ فرض عين: وهو ما لا يسع المكلَّف الجهل به من العلوم الشرعية،

التي يكون بها تصحيح عقيدته، وتقويم عبادته، وتحسين خُلقه، وتسديد معاملته.

والثاني ـ فرض كفاية: وهو تعلُّم ما تحتاج إليه الأمة في حياتها، لضمان معرفتها، وصيانة عزَّتها، من الاجتهاد في الدين، والقيام بمصالح المسلمين، وتأمين احتياجاتهم في أوجه الحياة المختلفة، من صناعة، وطب، ومهن، وهو بابٌ واسع.

فهذا النوع من العلم واجب على الأمة بقدر حاجتها، ولا يجوز أن تجهل منه شيئاً، بحيث تبقى عالةً على غيرها، فإذا وُجِدَ في الأمة من يقوم بهذه العلوم، فقد تحقَّق الغرض، وحصل الفرض، وسَلِمَ الناس من الإثم، وإن لم يُوجَد فيهم من يقوم بهذه الواجبات عصى المسلمون كلُّهم، وأَثموا على تركهم ما يجب عليهم، فالعلم بصناعة السلاح مثلاً حاجةٌ ملحَّة، فإذا تحقق جهلهم بها، وظلوا عالة على غيرهم، فلا شكَّ في تقصيرهم، وبقائهم في الإثم، حتى يخرجوا منه بتعلُّم ما يُوفِّر لهم ذلك.

فعلى المسلمين إذاً أن يتسلَّحوا بكل العلوم النافعة، التي يحتاجونها في إنتاج كلِّ ما يحقق لهم عزَّتهم، وكفايتهم، واستقلالهم.

أمَّا تعلُّم ما لا نفع لهم فيه، ولا حاجة لهم إليه من التوافه التي تقتل الأزمان، وتهدر الطاقات، وتُفسد المَلَكات، وتملأُ الأذهان بالخرافات، والنفوس بالشعوذات، فهذه مكروهة، والجهل بها خير من تعلُّمها.

* * *

الشعبة الثامنة عشرة

نشر العلم

إنّ نشر العلم بين النـاس، وبذله إليهم من الأمور الواجبة على العلماء، وأصحاب الفقه في الدين، وهو من شُعَبِ الإيمان الحميدة، لأن في نشر العلم تبصير الناس بمعالم الإسلام، وأحكام الدين، وتعريفهم بالحلال والحرام، والمَشروع والممنوع، والحسن والقبيح، والصحيح والفاسد، والضَّار والنافع، ولهذا أوجب الله عز وجل على عوام الناس أن يسألوا أهل العلم عن أحكام دينهم، وشرائع عباداتهم ومعاملاتهم، وتصرفاتهم، ليعبدوا الله عز وجل على بصيرة، ويُطيعوه على بيِّنة.

قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

وإذا كان سؤال العوام عن أحكام دينهم واجباً عليهم، فتعليم العلماء لهم أيضاً واجب، كوجوب السؤال على العوام، وإذا أهمل العلماء واجبهم، وترك العوام ما يلزمهم، فقد باء الطرفان بالإثم، ووقعوا في مغبّة العصيان، ومخالفة الدين.

إن الله عز وجل أوجب على رسله، وهم ـ أوّلُ المعلِّمين ـ أن يقوموا بتعليم الناس شرائعهم، وتبليغهم أحكام دينهم.

قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

والتزم النبي ﷺ هذا الواجب، وقام به حقَّ القيام، فبذل العلم لأهله، ولم يبخل به عليهم.

قال الله تعالى في وصفه، ومدحه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤].

أي ليس هو بتعليم الناس ما غاب عنهم من أحكام دينهم ببخيل.

والعلماء ورثة الأنبياء، وواجبهم في نشر العلم، وهداية الناس مثل واجب الأنبياء، فلا يجوز أن يتركوا الناس حَيارى يتخبَّطون في ظلمات الجهل.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «مثل العلماء كمثل النجوم، إذا بَدَت اهتدى الناسُ بها، وإذا أظلمَت تحيَّروا».

قال البخاري رحمه الله تعالى في كتاب العلم من «صحيحه»: [٣٤، باب كيف يُقبض العلم]: «كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظُر ما كان من حديثِ رسولِ اللهِ ﷺ فاكتبه، فإني خِفتُ دُرُوسَ العلمِ، وذهابَ العلماءِ، ولا تَقبَل إلا حديث النبي ﷺ، ولتُفشُوا العلمَ، ولتَجلسُوا حتى يتعلَّمَ من لا يعلمُ، فإن العلمَ لا يَهلكُ حتى يكونَ سراً».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ اللهَ لا يَقبضُ العلمَ انتِزاعاً ينتزِعُهُ من العباد، ولكن يقبضُ العلمَ بقبضِ العلماءِ، حتَّى إذا لم يُبقِ عالماً اتَّخذَ النَّاسُ رُؤوساً جُهَّالاً، فَسُئِلوا، فأَفتَوا بغيرِ علمٍ، فضَلُّوا، وأضَلُّوا» [رواه البخاري (١٠٠) في العلم؛ ومسلم (٢٦٧٣) في العلم].

ولقد كان رسول الله ﷺ كثيراً ما يقول على إثر تعليم أصحابه، ووعظهم، وإرشادهم: «وليُبلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ» [رواه البخاري (١٠٤)؛ ومسلم (١٣٥٤) في الحج].

ويقول: «رُبَّ مُبَلَّغٍ أوعَى مِن سامعٍ» [رواه الترمذي (٢٦٥٨) في العلم].

وعن طريق العلم، وبذله، ونشره، وجمع الناس عليه انتشر الإسلام، وانتقلت معارفه من مشكاة النبوَّة إلى أذهان الناس وبيوتهم، ومعاهدهم، ومدارسهم، وأحيائهم، ولو نظرنا إلى ما بين أيدينا من كنوز العلم، وأسفار

الحديث، والتفسير، والفقه، وغيرها من أنواع المعارف والعلوم لعرفنا أن ذلك كان بفضل تعليم العلم ونشـره.

لقد كان السلف الصالح، والخَلَف المستنير، إنما يدفعهم إلى نشر العلم وبذله ـ رغبتهم في تحصيل رضوان الله تعالى، وطلبهم الأجر والمثوبة من رب العالمين تبارك وتعالى، إيماناً منهم بمثل قول النبي ﷺ: «خَيرُكُم مَن تعلَّمَ القرآنَ، وعلَّمه» [رواه البخاري (٥٠٢٧) في فضائل القرآن].

وقوله: «إذا مات ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاَّ مِن ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدعُو له» [رواه مسلم (١٦٣١) في الوصية].

وقـوله: «مَن دعا إلى هُدًى كان له من الأجرِ مثلُ أُجورِ مَن تَبِعَهُ لا يَنقصُ ذلك من أُجورِهِم شيئاً» [رواه مسلم (٢٦٧٤) في العلم].

وقـوله: «لأن يَهدِيَ اللهُ بـكَ رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ» [رواه البخاري (٤٢١٠) في المغازي؛ ومسلم (٢٤٠٦) في فضائل الصحابة].

وحُمْرُ النَّعَمِ: الإبل الحمراء، جمع أحمر، وهو مثل يُضرب لكل نفيس. وفيه الحثّ على هداية الخَلق إلى الحق، وذلك لا يحصل إلا بالعلم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حَسَـدَ إلاَّ في اثنتينِ: رجلٌ آتـاهُ اللهُ مالاً فسلَّطهُ على هَلَكَتهِ في الحقِّ، ورجلٌ آتاهُ اللهُ الحكمةَ، فهو يَقضي بها، ويعلِّمُها» [رواه البخاري (٧٣) في العلم؛ ومسلم (٨١٦) في صلاة المسافرين].

والمراد بالحسد هنا: الغبطة، وهي: أن يتمنَّى مثل ما لغيره من الفضل، وهذا جائز، لا شيء فيه.

والمراد بالحكمة: العلم النافع، وقيل: السنَّة.

وقال ﷺ: «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً» [رواه البخاري (٣٤٦١) في أحاديث الأنبياء].

وقال: «نَضَّرَ اللهُ امرأً سمعَ منَّا شيئاً، فبلَّغهُ كما سمعهُ، فرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى من

سامعٍ» [رواه الترمذي (٢٦٥٨) في العلم].

وإلى جانب هذه الدعوة المُلِحَّة المباركة على بذل العلم، ونشره، وتعليمه لكل من سألَهُ، وسعَى في طلبه، كان الوعيد الشديد، والتحذير المخيف لكل مَن كتمه، وبخل به، وحبسه عمَّن طلبه، ورغب فيه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن سُئِلَ عن علمٍ فكتمهُ أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نار» [رواه أبو داود (٣٦٥٨) في العلم، والترمذي (٢٦٥١) في العلم].

وهذه عقوبة تساوي في ضررها خطر كتمان العلم، وحبسه عن أهله، لأن في حبس العلم، ومنعه هجرُ الدين، وحمل الناس على ارتكاب العظائم، وانتهاك المحارم.

ومما ينبغي أن يعلمه العلماء، وطلاب العلم أن الله عز وجل أخذ عليهم العهد والميثاق أن يعَلِّموا الناس، ويفقِّهوهم في الدين، وإلا كانوا عرضة لسخط الله عز وجل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال عز وجل: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

فبيَّنَ سبحانه وتعالى في هذه الآية أن على المقيمين أن يُعَلِّمُوا المجاهدين إذا رجعوا من غزوهم بما حملوا من العلم حالَ غيبتهم، ليشارك الفريقان في العلم، ولا يستأثر به مَن حضر، دون من غاب.

لقد كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «لولا آية في كتاب الله لما حدَّثتكم،

ثم قرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يصيح في النَّاس، ويحذِّر العلماء من كتمان العلم، كما يحذِّر العوام من هجره، ويقول: «أيها النَّاس، ما لي أرى علماءكُم يذهبون، وجهَّالكم لا يتعلَّمون، تعلَّموا قبل أن يُرفعَ العلم، فإن رفعَ العلم بذهاب العلماء».

وليستمع كل من خاف الله عز وجل والدار الآخرة إلى هذا التهديد الذي خصَّ به البخلاء في التعليم، والتجَّار بثقافة المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٠].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٤ ـ ١٧٦].

إن من أشنع ما يتَّصف به المعلم، والمُتعلم أن تكون عملية العلم والتعليم لغير الله عز وجل، وإنما لأجل الفخر، والكسب، والتكاثر في الدنيا، والتطاول على عباد الله تعالى، ومثل هذا في السوء أن ينفكَّ العلم عن التقوى، وينفصل عن العمل، فإن العلم وسيلة إلى تعظيم الله تعالى، وبلوغ الخشية منه، والعمل بما يرضيه.

قال رسول الله ﷺ: «مَن تعلَّمَ علماً مما يُبتغَى به وجهُ اللهِ عز وجل، لا يتعلمهُ إلاَّ ليُصيبَ به عرضاً من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامة». يعني ريحها. [رواه أبو داود (٣٦٦٤) في العلم].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٣].

لقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «ويلٌ للذي لا يعلمُ مرَّة، وويلٌ للذي يعلمُ ولا يعملُ سبعَ مرات» نسأل الله السلامة من الإثم، والتوفيق للعمل بمقتضى العلم.

* * *

الشعبة التاسعة عشرة

تعظيم القرآن المجيد وحفظ حدوده وأحكامه

القرآن الكريم، هو كلام ربنا عز وجل الهادي إلى صراط مستقيم، وهو الكلام المقدسُ الذي تنزَّه عن كل عيب، وسما فوق كل نقص: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]. وهو حبل اللهِ المتين، ومنهجُه الذي اختاره لعباده، وشرعته التي ارتضاها لهم، فحفظهم به من الضلال، وحماهم من الفرقة والشتات، وضمن لهم به سعادة الدارين، وهو الكتاب المعجز الذي يحمل بنفسه برهان سموِّه وإعجازه. قال الله عز وجل: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥ـ١٦].

وعن جابر رضي الله تعالى عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «أمَّا بَعْدُ،

فإن خَيْرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ محمدٍ ﷺ. وشرَّ الأُمُورِ مُحْدَثاتُها، وكُلُّ بِدْعةٍ ضَلالَةٌ» [رواه مسلم (٨٦٧) في الجمعة].

وقال ﷺ: «تركْتُ فيكم أمْرَينِ لن تضلُّوا ما تمسَّكْتم بهما: كتابُ اللهِ، وسنَّتي» [رواه مالك في (الموطأ)، ص ٨٩٩].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ اللهِ، هل بعد هذا الخير الذي نحن فيه من شرٍّ نحذرُهُ؟ قال: «يا حُذَيفةُ، عليك بكتابِ اللهِ، فتعلَّمْهُ، واتَّبعْ ما فيه خَيْراً لك» [رواه بن حبان (١٧٧)].

وعن أبي شُرَيْحِ الخُزاعيِّ رضي الله عنه قال: خرج علينا رسولُ الله ﷺ، فقال: «أَبْشِرُوا، وأَبْشِرُوا، أَلَيْسَ تَشْهدُون أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأنِّي رسولُ الله»؟ قالوا: نعم. قال: «فإنَّ هذا القُرْآنَ سَبَبٌ طرفُهُ بيدِ اللهِ، وطرفُهُ بأيديكم، فتمسَّكُوا به، فإنَّكُمْ لن تضلُّوا، ولن تَهْلكُوا بعده أبداً» [رواه ابن حبان (١٢٢)].

وعن زيد بن أرْقم رضي الله عنه، قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ، فقال: «إنِّي تاركٌ فيكم كتابَ الله، هو حَبْلُ الله، من اتَّبعَهُ كان على الهُدَى، ومن تركَهُ كان على الضَّلالةِ» [رواه ابن حبان (١٢٣)].

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «القُرْآنُ شافع مُشَفَّعٌ، وماحِلٌ مُصَدَّقٌ، من جعله أمامَهُ قاده إلى الجنَّةِ، ومن جعلهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ ساقه إلى النَّارِ» [رواه ابن حبان (١٢٤)].

ماحل: مجادل عن صاحبه يوم القيامة.

هذا هو القرآن الكريم الذي يجب تعظيمه، وتفخيمه، وتكريمه، والقيام بحقوقه، فإن ذلك من مظاهر الإيمان، ومن أعظم شعبه.

ولتعظيم القرآن وتكريمه مظاهر كثيرة، نذكر أهمها:

١ ـ الإكثار من قراءته، والمواظبة على تلاوته، كلما سنحت الفرص، وواتت الأوقات، فإن من أحبَّ شيئاً، أقبل عليه، وأكثر من ذكره.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «اقْرَؤوا القُرْآنَ، فإنَّه يأتي يَوْمَ القيامةِ شفيعاً لأصحابه» [رواه مسلم (٨٠٤) في صلاة المسافرين].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرْآنَ، فهو يقومُ به آنَاءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ، ورَجُلٌ آتاهُ اللهُ مالاً، فهو ينفقُهُ آناءَ اللَّيْلِ، وآناءَ النَّهارِ» [رواه البخاري (٥٠٢٦) في فضائل القرآن؛ ومسلم (٨١٥) في صلاة المسافرين].

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الذي يقرأ القرآن، وهو حافظ له مع السَّفَرَةِ الكرام البرَرَةِ، ومَثَلُ الذي يقرأ القرآنَ، وهو يتعاهدُهُ، وهو عليه شاقٌّ له أجرانِ» [رواه البخاري (٤٩٣٧) في التفسير؛ ومسلم (٧٩٨) في صلاة المسافرين].

٢ ـ ترتيله، وتحسين الصوت عند تلاوته، التزاماً بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ اللهِ ﷺ يقول: «ما أَذِنَ الله لشيْءٍ ما أَذِنَ لنبيٍّ حَسنِ الصَّوْتِ يتغنَّى بالقْرآنِ، يَجْهرُ به» [رواه البخاري (٥٠٢٣) في فضائل القرآن؛ ومسلم (٧٩٢) في صلاة المسافرين].

أَذِنَ: استمع.

وعن أبي بردة أن النبيَّ ﷺ قال لأبي موسى رضي الله عنه: «لو رأيْتَني، وأنا أستمعُ لقراءتِكَ البارحةَ، لقد أوتيتَ مِزْماراً من مَزامِيرِ آلِ داود» [رواه مسلم (٧٩٣) في صلاة المسافرين].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «سمعتُ النبيَّ ﷺ قرأ في العشاء (بالتين والزيتون) فما سمعت أحداً أَحْسَنَ صَوْتاً منه» [رواه البخاري (٧٦٩) في الأذان؛ ومسلم (٤٦٤) في الصلاة].

٣ ـ أن يكثر من حفظ القرآن ما استطاع، فإنه نور في القلب، ومن أحبه الله تعالى جعل قلبه وعاء لكتابه، وعلى حافظ القرآن أن يتعاهده، ويكثر من تلاوته خشية النسيان.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جَوْفهِ شَيءٌ من القرآن كالبَيْتِ الخَرِبِ» [رواه الترمذي (٢٩١٤) في أبواب ثواب القرآن].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: «يقال لصاحب القرآن: اقْرَأ، وارْتَقِ، ورتِّلْ كما كُنْتَ ترتِّلُ في الدُّنْيا، فإن منزلتَكَ عند آخرِ آيةٍ تقرؤها» [رواه الترمذي (٢٩١٥) في أبواب القرآن].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تعاهدُوا هذا القرآنَ، فوالذي نَفْسُ محمدٍ بيدِهِ لهُوَ أشدُّ تفلُّتاً من الإبل في عُقُلها» [رواه البخاري (٥٠٣٣) في فضائل القرآن؛ ومسلم (٧٩١) في صلاة المسافرين].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّما مثَلُ صاحبِ القرآنِ كمثلِ صاحبِ الأبل المعقلة، إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت» [رواه البخاري (٥٠٣١)؛ ومسلم (٧٨٩)].

٤ ـ أن ينصت عند سماعه، ويصغي له عند قراءته، امتثالاً لأمر ربه عز وجل:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وليخرج بهذا الأدب عن محاكاة المشركين الذين كانوا يلغطون عند قراءة القرآن كيلا يسمعوا شيئاً منه، فيتأثروا به. قال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

٥ ـ أن يستعيذ بالله عز وجل عند بداية كل قراءة، عملاً بقول الله عز وجل:

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٨ ـ ٩٩].

٦ ـ أن يقرأ القرآن متطهراً، نظيف الفم واللسان، حسن الهيئة، متوجهاً إلى القبلة، تاركاً للعبث والتشاغل، إنَّه وهو يقرأ القرآن إنما يناجي ربه، فليكن على أحسن حالاته وهيئاته.

فإن للقرآن مكانتـه، ومنزلتـه التي ينبغي معها أن يأخذ قارئ القرآن نفسه بمثل هذه الآداب.

قال الله تعالى في حق هذا القرآن: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

وأمُّ الكتاب: هو اللوح المحفوظ.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٧ ـ ٨٠].

٧ ـ الوقوف على رؤوس الآيات، وسؤال الله تعالى المغفرة إذا مرَّ بآياتها، والاستعاذة بالله عز وجل من النار إذا قرأ آية فيها الحديث عنها، عملاً بفعل النبي ﷺ، واقتداء به.

٨ ـ مذاكرة القرآن، والاجتماع عليه، قراءة، ودراسة، فإن ذلك من القرب والعبادات الطيبة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما اجتمع قَوْمٌ في بَيْتٍ من بُيوتِ الله، يَتْلُونَ كتابَ الله، ويتدارسونَهُ بينهم إلاَّ نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتْهُم الرحمةُ، وحفَّتْهم الملائكةُ، وذكرهم الله فيمن عِنْدَهُ، ومن بطَّأ به عملُه، لم يُسرِعْ به نَسَبُهُ» [رواه مسلم (٢٦٩٩) في الذكر].

٩ ـ التخشُّعُ عند قراءة القرآن، وسماعه، واستشعار عظمته، واستشعار أنه كلام الرب عز وجل، الذي من شأنه أن تخشع له النفوس، وتطمئن به القلوب، وتتأثر به الأرواح وتفيض عند سماعه العيون.

قال الله تعالى: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَـٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ

﴿خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «اقْرأ عليَّ القُرْآنَ» قال: فقلتُ: يا رسولَ الله، أقرأ عليكَ، وعليك أُنزل. قال: «إنِّي أشْتَهي أنْ أسمعَهُ من غَيْري». فقرأتُ: النِّسَاءَ، حتى إذا بلغْتُ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، رفعت رأسي، أو غمزني رجل إلى جنبي، فرفعتُ رأسي، فرأيت دموعه تسيل. [رواه البخاري (٤٥٨٢) في التفسير؛ ومسلم (٨٠٠) في صلاة المسافرين].

١٠ ـ تدبُّر آياته، والتفكر في معانيه، فإن ذلك أدعى للتأثر بهديه، وإدراك مراميه.

قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صَ: ٢٩].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

١١ ـ تعلم أحكامه، وتفهم أسراره، والتفقه فيه، فإن هذا عون لإدراك جماله، ووسيلة للوقوف على سمو معانيه ومراميه، وطريق للعمل به. وهذا مقصد عظيم من مقاصد كتاب الله عز وجل، وهو عبادة يؤجر المرء بها، ويثاب عليها.

عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُكم من تعلَّم القرآنَ، وعلَّمه» [رواه البخاري (٥٠٢٧) في فضائل القرآن].

وعن عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه قال: خرج علينا رسولُ الله، ونحنُ في الصُّفةِ، فقال: «أيُّكم يُحبُّ أن يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إلى بُطْحانَ، أو إلى العقيقِ، فيأتيَ منه بناقتينِ كَوْماوَيْنِ في غَيْرِ إثْمٍ، ولا قَطْعِ رحمٍ»؟. فقلنا: يا رسولَ الله، نُحِبُّ

ذلكَ. قال: «أفلا يَغْدُو أحدُكم إلى المسجد، فيعْلَمَ، أو يقرأ آيتينِ من كتاب الله عزَّ وجلَّ خَيْرٌ له من ناقتينِ، وثلاثٌ خَيْرٌ له من ثلاثٍ، وأرْبَعٌ خَيْرٌ له من أربعٍ، ومن أعدادهِنَّ من الإبلِ» [رواه مسلم (٨٠٣) في صلاة المسافرين].

الصفة: موضع مظلل في مسجد النبي ﷺ كان يأوي إليه فقراء المهاجرين.

يغدو: يذهب في الغُدْوَة، وهي أول النهار.

بُطْحان: اسم موضع بقرب المدينة.

العقيق: واد بالمدينة.

كوماوين: تثنية كوماء، وهي من الإبل العظيمة السنام.

١٢ ـ التخلق بأخلاق القرآن، والتأدب بآدبه، والعمل بأحكامه، والوقوف عند حدوده، فإن هذا هو المقصود من قراءته، وتدبر آياته، وهو الغرض من إنزاله، فإنه دستور الحياة، وقانون الأمة، ونظامها، وشريعتها.

لقد سئلت السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاق رسول الله ﷺ، فقالت: «فإنَّ خُلُقَ نبي الله ﷺ كان القرآنَ» [رواه مسلم (٧٤٦) في صلاة المسافرين].

ومعنى هذا أنه كان ﷺ يطبق أحكامه، ويترجم شرائعه بسلوكه، ويحلُّ حلاله، ويحرم حرامه.

وإن من الشناعة بمكان أن يُرى قارئ القرآن مخالفاً له، معرضاً عن العمل بهديه. مستخفًّاً بأوامره ونواهيه، فإن هذا لا يتفق وتعظيم القرآن بحالٍ أبداً، ومثل هذا حريٌ أن يصدق فيه قول الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة: ٥].

* * *

الشعبة العشرون

الطَّهاراتُ

الطَّهارة: معناها: النظافة، والتخلص من الأدناس الحسية والمعنوية، كالنجاسات، والعيوب. والغرض منها: أن يظلَّ المسلم حسن الظاهر والباطن، طيب المظهر والمخبر.

والطهارة بأنواعها من الدين، وشطر من الإيمان، وشعبة من شعبه، حث عليها الإسلام، ورغب فيها، لأنها عنوان الوعي، وعلامة الفهم والذوق.

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ، والحمدُ لله تَمْلأُ الميزانَ، وسُبْحانَ الله، والحمدُ لله تَملآنِ، أو تَمْلأ ما بَيْنَ السَّماواتِ والأرضِ، والصلاةُ نُورٌ، والصَّدقةُ بُرْهانٌ، والصبرُ ضياءٌ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لكَ أو عليكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فبائعٌ نَفْسَهُ فمعْتِقُها، أو موبقُها» [رواه مسلم (٢٢٣) في الطهارة].

يغدو: يسعى.

موبقها: مهلكها.

قال يحيى بن آدم: الوضوء نصف الإيمان، لأن الله جلَّ ثناؤه سمَّى الصلاة إيماناً، فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. يعني صلاتكم إلى بيت المقدس.

ولا تجوز الصلاة إلا بوضوء، فهما شيئان، كل واحد منهما نصف للآخر.

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اسْتَقيمُوا، ولن تُحْصُوا،

واعلموا أنَّ خَيْرَ أعمالكم الصَّلاةُ، ولا يحافظُ على الوضوءِ إلاَّ مُؤمنٌ» [رواه أحمد: ٥/ ٢٨٢].

والطهارة من الأدناس الحسيَّة أمر مُحبَّب للدين، كما أن الخلاص من الأدناس المعنوية كالعيوب أمر محبب أيضاً في الدين، فإذا كان الخلاص من العيوب إنما يتم بالتوبة منها، والرجوع عنها، فإن الخلاص من الأقذار الحسية يتم بالماء الطهور.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

إن ديننا الحنيف حضَّ على الاعتناء بالطهارة، ورغب فيها غسلاً، ووضوءاً، وإزالة للنجاسات، والروائح الكريهة، والسِّمات البشعة، والفضلات القذرة في الثوب والبدن والمكان، وأمر الدين أن يكون المسلم شامة بين الأمم، تلوح عليه كل سمات الكمال، والجمال، والأناقة، والذوق الرفيع، بغير كبر، ولا خيلاء.

لقد أمر الإسلام بالغُسْل كلَّما اتَّسخ البدن، والغَسْل كلما اغبرَّ الثوب، كما أمر بأخذ الظفر، وقص الشعر كلما طالا. ودعا إلى تنظيف الفم، وتطييب البدن.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «الغُسْلُ يَوْمَ الجمعة واجبٌ على كل محتلم» [رواه البخاري (٨٧٩) في الجمعة؛ ومسلم (٨٤٦) في الجمعة].

محتلم: بالغ.

وفي رواية: «الغُسلُ يوم الجمعة واجب على كل محتلم، وأن يستنَّ، وأن يَمسَّ طيباً إن وجد» [رواه البخاري (٨٨٠) في الجمعة؛ ومسلم (٨٤٦) في الجمعة].

يستن: يستاك.

وقال عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «إنكم قادمُونَ على إخوانكم، فأصْلحُوا رحالكم، وأصْلحُوا لباسكم، حتَّى تكونوا كأنكم شامةٌ في النَّاسِ، فإنَّ الله لا يُحبُّ

الفُحْشَ، ولا التَّفحُّشَ» [رواه أبو داود (٤٠٨٩) في اللباس].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خَمْسٌ من الفِطْرةِ: الختانُ والاسْتِحْدادُ، وتقليمُ الأظفارِ، ونَتْفُ الإبْطِ، وقصُّ الشاربِ» [رواه البخاري (٥٨٨٩) في اللباس؛ ومسلم (٢٥٧) في الطهارة].

الفطرة: الحالة الطيبة، والسنة المرضية التي عليها المرسلون.

الاستحداد: حلق العانة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لولا أن أشُقَّ على أمتي لأمرتُهم بالسِّواك مع كل صلاةٍ» [رواه البخاري (٨٨٧) في الجمعة؛ ومسلم (٢٥٠) في الجمعة].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله ﷺ: «السِّواكُ مَطْهرةٌ للفَم، مَرْضَاةٌ للربِّ» [«صحيح النسائي» (٥)].

ولقد حرّم الدين التضمُّخَ بالنجاسات، وأمر بتجنُّبها، وبين أنها من أسباب العذاب في القبر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ رسول الله ﷺ على قبرين، فقال: «أما إنَّهما ليُعذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبير، أما أحدُهما فكان يَمْشي بالنَّميمةِ، وأمَّا الآخرُ فكان لا يَسْتترُ من بولِهِ». قال: فدعا بعسيبٍ رَطْبٍ، فشقَّهُ باثْنينِ، ثم غرس على هذا واحداً، وعلى هذا واحداً، ثم قال: «لعلَّهُ أن يُخفَّفَ عنهما ما لم يَيْبسا» [رواه البخاري (٢١٦) في الوضوء؛ ومسلم (٢٩٢) في الطهارة].

وقد نهى النبي ﷺ عن التنجيس في الأماكن العامة التي يعتاد الناس ارتيادها، والجلوس فيها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقُوا اللَّعانَيْنِ». قالوا: وما اللعَّانانِ، يا رسولَ الله؟. قال: «الذي يتخلَّى في طريق النَّاسِ، أو في ظلِّهم» [رواه مسلم (٢٦٩) في الطهارة].

اللعانين: الأمرين الجالبين للعن.

يتخلى: يتغوط.

لقد تكرم الله تعالى على عباده بوفرة المياه العذبة الطاهرة النقية، وجعلها مادة الحياة، ووسيلة النظافة، والخلوص من الأقذار.

قال الله عز وجل: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨ـ٤٩].

وقال رسول الله ﷺ في البحر: «هُوَ الطَّهُورُ ماؤهُ، الحِلُّ ميتتُهُ» [صحيح البخاري (٥٩)].

ولشدَّة عناية الإسلام بالنظافة، والطهارة في الجسم والثوب والمكان، جعلها شرطاً لصحة الصلاة، نفلاً كانت، أو فرضاً.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتُقْبلُ صَلاةٌ بغَيْرِ طُهُورٍ، ولاصَدَقةٌ من غُلولٍ» [رواه مسلم (٢٢٤) في الطهارة]

غلول: خيانة، وسرقة من مال الغنائم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتُقْبلُ صلاة أحدِكُم إذا أحدث حتى يتوَضَّأ» [رواه البخاري (١٣٥) في الوضوء؛ ومسلم (٢٢٥) في الطهارة].

وإذا أصابت المرء جنابة كان عليه أن يغتسل، والغسل تعميم الجسد بالماء.

أما الوضوء فيكفي فيه غسل الأعضاء الثلاثة، مع مسح الرأس.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ﴾ [المائدة: ٦].

إن مما لا شك فيه أن الطهارة التي أمر بها الإسلام بكل أنواعها لهي عنوان الرقي والتحضر، وهي أيضاً وقاية للإنسان من كثير من الأوبئة والأمراض، فإن جلَّها إنما ينشأ من إهمال النظافة، وعدم تجنب الأقذار.

وبعد هذا وذاك، فإن الطهارة غسلاً كانت، أو وضوءاً، أو تخلصاً من النجاسات، فإنها إن صحبتها نية الطاعة، وامتثال الأمر، واتباع الهدي، كانت عبادة من أجلِّ العبادات، التي يؤجر بها المرء، ويثاب عليها عند الله تبارك وتعالى، وقد سبق أن ذكرنا قول النبي ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ».

وقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقولُ: «إنَّ أمَّتي يُدْعَوْنَ يَوْمَ القيامةِ غُرّاً محجَّلينَ من آثارِ الوُضُوءِ، فمن اسْتَطاعَ منكم أن يُطيلَ غُرَّتَهُ فلْيفعلْ» [رواه البخاري (١٣٦) في الوضوء؛ ومسلم (٢٤٦) في الطهارة].

والغرة، والتحجيل في الأصل بياض في جبهة الفرس وقوائمها، وهو هنا كناية عن النور الذي يتلألأ في أعضاء الوضوء يوم القيامة.

وقال ﷺ: «تَبْلُغُ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوءُ» [رواه مسلم (٢٥٠) في الطهارة].

والحلية: الزينة التي يزدان بها المؤمن من الجواهر النفيسة يوم القيامة، فإنها تأخذ من أطرافه، حيث كان يبلغ الوضوء منها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ أتى المقبرة، فقال:

«السَّلامُ عليكم دارَ قَوْمٍ مؤمنينَ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقُونَ. ودِدْتُ أنّا قد رأيْنَا إخْوانَنا». قالوا: أو لسْنا إخوانَكَ، يا رسولَ الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخوانُنا الذين لم يأتُوا بَعْدُ». فقالوا: كيف تعرفُ من لم يأتِ بَعْدُ من أمتكَ، يا رسولَ الله؟ فقال: «أرأيْتَ لو أنَّ رجُلاً له خَيْلٌ غُرٌّ مُحجَّلةٌ، بَيْنَ ظَهْرَي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ، ألا يعرِف خَيْلَهُ»؟ قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: «فإنَّهم يأتُونَ غُرّاً

مُحجلينَ من الوضوء، وأنا فرطُهم على الحوض، ألا ليُذادَنَّ رجال عن حَوْضي، كما يُذادُ البعيرُ الضَّالُّ، أناديهم، ألا هلُمَّ، فيقالُ: إنَّهم قد بدَّلُوا بَعْدَكَ، فأقولُ: سُحْقاً، سُحْقاً» [رواه مسلم (٢٤٩) في الطهارة].

دهم بهم: سود لم يخالط لونها لون آخر.

فرطهم: سابقهم، ومتقدمهم.

سحقاً: بعداً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا توضَّأ العبدُ المسلمُ، أو المؤمن، فغسل وجهَهُ، خرج من وجْهِهِ كُلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينَيْهِ مع الماء، أو مَعَ آخرِ قَطْرِ الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كُلُّ خطيئةٍ كان بطشَتْها يداه مع الماء، أو مَعَ آخرِ قَطْرِ الماء، فإذا غسل رجليه خرجتْ كُلُّ خطيئة مشَتْها رجلاه مع الماء، أو مَعَ آخرِ قَطْرِ الماء، حتَّى يخرجَ نَقيّاً من الذنوب» [رواه مسلم (٢٤٤) في الطهارة].

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضَّأ، فأحسن الوُضُوءَ خرجت خطاياه من جسده، حتَّى يَخرجَ من تَحْتِ أظفاره» [رواه مسلم (٢٤٥) في الطهارة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يَمْحُو الله به الخطايا، ويَرْفعُ به الدرجات»؟ قالوا: بلى، يا رسولَ الله. قال: «إسْباغُ الوُضُوءِ على المكارهِ، وكَثْرَةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباطُ» [رواه مسلم (٢٥١) في الطهارة].

وعن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «ما منكم من أحَدٍ يتوضَّأ، فيُبْلغُ، أو فيُسْبغُ الوُضُوءَ، ثم يقول: أشهد ألاَّ إلـهَ إلاَّ الله وحْدَهُ لا شريكَ له، وأشْهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، إلاَّ فُتحتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثمانيةُ، يدخلُ من أيِّها شاء» [رواه مسلم (٢٣٤) في الطهارة].

ويستحبُّ أن يزيد: «اللَّهُمَّ، اجعلْني من التَّوابينَ، واجعلني من المتطهرينَ» [رواه الترمذي (٥٥) في أبواب الطهارة].

ويقول أيضاً: «سُبحانَكَ اللَّهُمَّ، وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إلٰهَ إلاَّ أنْتَ، أسْتغفرُكَ، وأتُوبُ إليك» [رواه النسائي (٨١) و(٨٣) في اليوم والليلة].

هذه هي الطهارة بأبعادها، وأشكالها، وأهدافها في هذا الدين، وهي مفخرة من مفاخره، وسمة من سماته الناصعة، فهل لنا في تعظيمه، والعضِّ على شرائعه بالنواجذ، فإننا لن نجد مثله، ولن يسعدنا غيره، ولن ينفعنا عند الله عز وجل سواه.

* * *

الشعبة الحادية والعشرون

الصلوات الخمس

إن الصلوات الخمس أعظم عبادات الإسلام، وأجلُّها قدراً، ومكانة في الدين، وهي الركن الثاني من أركان الإسلام.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شَهادةِ أن لاإلَـه إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رمضانَ» [رواه البخاري (٨) في الإيمان؛ ومسلم (١٦) في الإيمان].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قال: «الصَّلاةُ على وقتها». قُلْتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «برُّ الوالدين». قُلْتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله» [رواه البخاري (٥٢٧) في المواقيت؛ ومسلم (٨٥) في الإيمان].

قال الإمام البيهقي رحمه الله تعالى: ليس في العبادات بعد الإيمان بالله تعالى الرافع للكفر عبادة سمَّاها الله عز وجل إيماناً، وسمَّى رسولُ الله ﷺ تَرْكَها كُفْراً إلا الصلاة.

قال الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣].

يعني صلاتكم.

وقال رسولُ الله ﷺ: «العَهْدُ الذي بَيْننا وبَيْنَهم الصَّلاةُ، فمن تركها فقد كفر» [رواه الترمذي (٢٦٢٣) في الإيمان].

وهي لعظمتها كانت أول ما يحاسب عليه الإنسان يوم القيامة من حقوق الله تعالى:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أوَّلَ ما يُحاسبُ به العبدُ يَوْمَ القيامة من عمله صلاتُهُ، فإن صلحَتْ فقد أفْلَحَ وأنْجَحَ، وإن فسدتْ فقد خاب وخسر، فإن انْتَقَصَ من فَرِيضَتِهِ شيئاً، قال الرَّبُّ عزَّ وجلَّ: انْظرُوا هَلْ لعبدي من تطوُّعٍ، فيكمَّلُ بها ما انْتقصَ من الفريضةِ، ثم تكونُ سائرُ أعمالِه على هذا» [رواه الترمذي (٤١٣) في الصلاة].

وعن معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأسُ الأمْرِ الإسلامُ، وعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وذِرْوَةُ سَنامِهِ الجهادُ» [رواه الترمذي (٢٦١٦) في الإيمان].

فالصلاة إذاً إيمان، وشعبة من شعب الإيمان، وركن من أركان الإسلام، وفريضة من فرائض الدين، ومن أنكرها فقد كفر، ومن تساهل بها فقد فسق.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، وقال: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ بين الرَّجُلِ، وبين الشِّرْكِ والكفْرِ تَرْكَ الصَّلاة» [رواه مسلم (٨٢) في الإيمان].

والصلاة لأهميتها، لم يكتف الدين بأن يفرضها على المسلمين في السنة، أو الشهر، أو اليوم مرّة واحدة، بل فرضها في اليوم والليلة خمس مرّاتٍ، موزّعة في أوقات معينة، لتظلَّ شغل العبد في الليل والنهار، وتظلَّ معه، كلما طرقته غفلة من الغفلات، وحالت بينه وبين الله عز وجل آفة من الآفات.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «خَمْسُ صلواتٍ افْتَرَضهُنَّ الله تعالى، من أَحْسَنَ وضُوءَهُنَّ، وصلاَّهُنَّ لوقتهِنَّ، وأتمَّ رُكوعَهُنَّ وخُشوعَهُنَّ، كان له على الله عَهْدٌ أن يَغْفِرَ له، ومن لم يَفْعَل، فليس له

على الله عَهْدٌ، إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه» [صحيح أبي داود (٤١٠)].

والصلاة طهرة للعبد من المعاصي والذنوب، وتمحيص له من الخطايا والعيوب، فهي تُنقِّي باطن العبد من الآثام، كما ينقي الماء ظاهره من الأدران.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «أرأيْتُمْ، لو أنَّ نَهَراً ببابِ أحدِكم يغتسلُ منه كُلَّ يَوْمٍ خمس مرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى من دَرَنِهِ شيْءٌ»؟ قالوا: لا يَبْقى من دَرَنِهِ شيْءٌ. قال: «فذلكَ مَثَلُ الصَّلواتِ الخَمْسِ، يَمْحُو الله بهنَّ الخطايا» [رواه البخاري (٥٢٨) في مواقيت الصلاة؛ ومسلم (٦٦٧) في المساجد].

وعن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، قال: سمعت رسولُ الله ﷺ يقول: «ما من امْرِئٍ مُسلمٍ تحضُرُهُ صلاةٌ مكْتُوبةٌ، فيُحسنُ وضُوءَها، وخُشُوعَها، وركوعَها، إلاَّ كانتْ كفَّارةً لما قَبْلَها من الذُّنوبِ، ما لم يُؤتِ كبيرةً، وذلكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ» [رواه مسلم (٢٢٨) في الطهارة].

وعن ثَوْبانَ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك بكَثْرةِ السُّجودِ لله، فإنَّكَ لا تَسْجُدُ لله سَجْدةً إلاَّ رفعكَ الله بها دَرَجةً، وحطَّ عنْكَ بها خطيئةً» [رواه مسلم (٤٨٨) في الصلاة].

والصلاة النافعة الخاشعة من شأنها أن تطرد عن القلب الرغبة في المعاصي، وتحول بينه وبين الذنوب، وذلك لما فيها من ذكر وفكر، واستحضار لعظمة الرب عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

لهذا كله كانت الصلاة قُرَّة عيون الصالحين، وراحة قلوب المؤمنين.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وجُعلتْ قُرَّةُ عَيْني في الصَّلاة» [رواه أحمد: ٣/ ١٢٨].

وعن حُذَيفة رضي الله عنه، قال: «كان رسولُ الله ﷺ إذا حَزَبه أمْرٌ صلَّى» [رواه أحمد: ٥/ ٣٨٨].

نعم، إن في الصلاة لشغلاً عن كل بلوى، وفيها السلوى عن كل خطب، إن الصلاة الحقيقية لتوقظ القلب بشكل دائم ومستمر، وتوقظ فيه الإحساس بأن الفاعل الحقيقي في هذا الوجود إنما هو الله تعالى، وليست الأسباب إلا صنائع أقامها الله تعالى في هذه الحياة، فهو الحاكم عليها، والمتصرف فيها، فليس هناك داع لربط القلب بها، والاعتماد أساساً عليها.

وإن من خصائص هذه الصلاة التي توجب لها فخامة، أنه لا عبادة أشغل للجوارح منها، فإن مبناها على الخشوع في ظاهر البدن، وباطنه.

والخشوع: سكون الظاهر، وحضور القلب، لذلك كان من حقها أن لا يشغل المصلي قلبه بغيرها، لينال خيرها، ويفلح بأدائها.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ـ٢].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المصلي يناجي ربَّهُ عز وجل، فلينظُرْ أحدكم بما يناجي ربه، ولا يَجْهَرْ بعضُكم على بعض بالقراءة» [رواه أحمد: ٢/ ٦٧].

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرَّجُل ليصلي، ولعله أن لا يكون له من صلاته إلا عُشْرُها، تُسْعُها، ثُمنُها، سُبُعها...» حتى انتهى إلى آخر العدد [رواه أحمد: ٤/ ٣١٩].

ومن خصائص هذه الصلوات الخمس، أنها تتأكد لها الجماعة، وحضور المساجد.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: «صلاةُ الجماعةِ أفضلُ من صلاة الفذِّ بسَبْعٍ وعشرينَ دَرَجةً» [رواه البخاري (٦٤٥)؛ ومسلم (٦٥٠) في المساجد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاةُ الرَّجلِ في

جماعة تُضَعَّفُ على صلاتهِ في بيته وفي سوقه خمساً وعشرينَ ضِعْفاً، وذلك أنَّه إذا توضَّأَ، فأحسن الوضُوءَ، ثم خرج إلى المسجد، لا يخرجُهُ إلاَّ الصلاة، لم يَخْطُ خُطْوَةً إلاَّ رفعتْ له بها دَرَجةٌ، وحُطَّتْ عنه بها خطيئةٌ، فإذا صلَّى لم تزَلِ الملائكةُ تصلِّي عليه ما دام في مُصَلاَّهُ، ما لم يُحْدِثْ، اللَّهم ارْحَمْهُ، ولا يزالُ في صلاة ما انْتظرَ الصَّلاةَ» [رواه البخاري (٦٤٧) في الأذان].

وقال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦ـ٣٨].

ولقد شرع الدين لهذه الفرائض الخمس روافد من السنن، تمدُّها من بين يديها ومن خلفها، وتساعد معها على البلوغ بالمؤمن إلى درجة القرب من الله عزَّ وجلّ، والخشية من جنابه.

وقد رغب النبي ﷺ في هذه السنن، فدعا إليها، وحافظ عليها.

عن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من صلَّى اثْنَتَيْ عَشْرةَ ركعةً في يَوْمٍ وليلةٍ بُنيَ له بهنَّ بيتٌ في الجنَّةِ». قالت أم حبيبة: فما تركتُهنَّ مُنْذُ سمعتُهنَّ من رسول الله ﷺ. [رواه مسلم (٧٢٨) في صلاة المسافرين].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «صليت مع رسول الله ﷺ ركعتين قبل الظهر. وركعتين بعدها، وركعتين بعد الجمعة، وركعتين بعد المغرب، وركعتين بعد العشاء» [رواه البخاري (١١٦٩) في التهجد؛ ومسلم (٧٢٩) في صلاة المسافرين].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ لا يَدَعُ أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة» [رواه البخاري (١١٨٢) في التهجد].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لم يكُنِ النبيُّ ﷺ على شيْءٍ من النَّوافلِ أشدَّ تعاهُداً منه على ركعتي الفجر» [رواه البخاري (١١٦٣) في التهجد؛ ومسلم (٧٢٤) رقم (٩٤) في صلاة المسافرين].

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، عن النبي ﷺ قال: «رحم الله امْرَأً صلَّى قَبْلَ العصر أربعاً» [رواه الترمذي (٤٣١) في الصلاة].

ومن الصلوات المستحبَّات المندوبة صلاة الوتر، وأقلها ركعة، وأكثرها إحدى عشرة ركعة، ووقتها من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر.

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يصلّي بالليل إحدى عشرة ركعة، يوتر منها بواحدة، فإذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن، حتى يأتيه المؤذن، فيصلِّي ركعتين خفيفتين. [رواه مسلم (٧٣٦) في صلاة المسافرين].

وعن علي رضي الله عنه قال: «الوترُ ليس بحَتْمٍ كصلاة المكتوبة، ولكن سنَّ رسول الله ﷺ، قال: «إنَّ الله وِتْرٌ يُحبُّ الوِتْرَ، فأوترُوا، يا أَهْلَ القرآن» [رواه أبو داود (١٤١٦) في الصلاة؛ والترمذي (٤٥٣) في الصلاة].

ومن الصلوات التي افترضها الله تعالى على نبيه ﷺ، وهي سنة لأمته صلاة التهجد، وهي صلاة الليل بعد النوم.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

فكان يقوم من الليل حتى تفطرت قدماه، امتثالاً لأمر ربه عز وجل.

قال الله تعالى له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأته، فإن أبَتْ نضح في وجهها الماءَ، رحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّتْ، وأيقظتْ زوجها، فإن أبى نضحتْ في وجهِهِ الماءَ» [رواه أبو داود (١٣٠٨) في الصلاة].

وعن أبي هريرة، وأبي سعيد رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله ﷺ: «إذا أيقظ الرجلُ أهلَهُ من الليل، فصلَّيا أو صلَّى، ركعتين جميعاً، كُتبا في الذاكرين والذاكرات» [رواه أبو داود (١٣٠٩) في الصلاة].

وقال ﷺ: «أفضلُ الصيام بعد رمضان شَهْرُ الله المحرم، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل» [رواه مسلم (١١٦٣) في الصيام].

وقد أثنى الله عز وجل على طوائف من المسلمين كانوا يقومون من الليل، فقال عـزَّ وجـلَ: ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ـ١٨].

وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦].

اللهم اجعلنا منهم بفضلك، وكرمك يا رب العالمين.

* * *

الشعبة الثانية والعشرون

الزكــاة

الزكاة في عرف الشرع: اسم لقَدْرٍ مخصوصٍ، من مالٍ مخصوصٍ، يعطى لناس مخصوصين.

وهذا القدر من المال اختيـر له هذا الاسـم (الزكـاة) لما فيـه من المعاني المستحسنة الجميلة، المناسبة لهذه العبادة العظيمة:

ـ فمن معاني الزكاة: النماء والزيادة. يقال: زكى الزرع، إذا نما وزاد. والزكاة الشرعية، لا شك أنها تنمي المال، وتزيده بركة ونفعاً.

ـ ومن معاني الزكاة: الطهارة، والنقاء من العيوب.

قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ٩]. أي طهَّرها، وخلَّصها من الأدناس الحسية والمعنوية، والزكاة تطهِّر نفس فاعلها من عيب البخل، وأكل حقوق المحتاجين، وتطهِّر ماله من التبعات، وحقوق الناس، كما تطهِّر نفـس الفقير من الحسد والكراهية.

ـ ومن معاني الزكاة أيضاً: المدح، والثناء الحسن الجميل.

قال الله تعالى: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

أي تنمّي أعمالهم الخيِّرة، وتمتدح فعالهم الحميدة، ولا شـكَّ أن الزكـاة الشـرعية تكسـب صاحبها الذكر الحسـن عند الناس، والثنـاء الطيب الجميل، وتمتدحه عند الله تعالى.

وسمّيت الزكاة الشرعية أيضاً: صدقة.

قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وهي أيضاً تسمية حسنة مناسبة، لأن أداءها إيماناً واحتساباً يدل على صدق فاعلها في تديُّنه، ومحبته لله تعالى، وثقته بما وعده عليها من الخَلَف في الدنيا، والمثوبة في العقبى.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والزكاة فريضة من فرائض الإسلام، وركن من أركانه، وشعبة من شعب الإيمان، وهي في جُلِّ آيات القرآن الكريم، وأقوال النبي ﷺ قرينة الصلاة، لم تنفكَّ عنها، ولم يفصل بينهما بفاصل.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ﴾ [التوبة: ١١].

وقال رسول الله ﷺ: «بُنيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شهادةِ أن لا إلـهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة، وحجِّ البيت، وصومِ رمضانَ» [رواه البخاري (٨) في الإيمان؛ ومسلم (١٦) في الإيمان].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أمِرْتُ أنْ أقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهدُوا أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأنَّ محمداً رسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتُوا الزَّكاةَ، فإذا فعلوا ذلكَ عصَمُوا مني دماءَهُمْ وأموالَهُمْ إلاَّ بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على الله» [رواه البخاري (٢٥) في الإيمان؛ ومسلم (٢٢) في الإيمان].

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: «ادعهم إلى شهادة أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، فإن هُمْ أجابُوا لذلكَ، فأعلمْهُمْ أنَّ الله

قد افترض عليهم خَمْسَ صلواتٍ في كُلِّ يَوْمٍ ولَيْلةٍ، فإن هم أجابُوا لذلك فأعْلِمْهم أنَّ الله قد افترض عليهم صَدَقَـةً، تؤخذُ من أغنيـائهم، وتُردُّ على فقرائهم، وإيَّـاكَ ودَعْوَةَ المظلومِ، فإنَّه ليس بَيْنَها وبَيْنَ الله حجابٌ» [رواه البخاري (١٣٩٥) في الزكاة؛ ومسلم (١٩) في الإيمان].

لذلك كان منع الزكاة، والبخل بها من كبائر الذنوب، أما نكران وجوبها فهو كفر، والعياذ بالله تعالى.

وبناء على هذا فقد أعلن أبو بكر الصديق رضي الله عنه الحرب على مانعي الزكاة، وقال: «والله لأقاتِلنَّ من فرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، فإنَّ الزَّكاةَ حقُّ المال، والله لو منعُوني عِقالاً كانُوا يؤدُونَهُ إلى رسولِ الله ﷺ لقاتلتهم على منعه» [رواه البخاري (١٤٠٠) في الزكاة؛ ومسلم (٢٠) في الإيمان].

وقال رسـولُ الله ﷺ: «من أعْطَى زكاة ماله مُؤْتجراً، فله أجْرُهـا، ومَـن منعها، فإنَّا آخذُوها وشَطْرَ ماله عَزْمـةً من عَزَماتِ ربِّنا، ليـس لآلِ محمَّدٍ منها شَيْءٌ» [رواه أحمد: ٥/ ٢؛ وأبو داود (١٥٧٥)].

وقد بيّن القرآن الكريم، والنبي العظيم ﷺ عقوبة مانع الزكاة في الآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤_٣٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أتاهُ الله مالاً فلم يُؤدِ زكاتَهُ مُثِّلَ له يَوْمَ القيامةِ شُجاعاً أقْرَعَ له زبيبتان، يُطوِّقُهُ يوم القيامة، ثم يأخذُ بِلِهْزِمتيه، ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزُكَ» [رواه البخاري (١٤٠٣) في الزكاة].

شجاعاً: ثعباناً.

أقرع: لا شعر برأسه لكبره. وكثرة سمه.

زبيبتان: نكتتان سوداوان فوق عينيه.

لهزمتيه: شدقيه.

ولتشريع هذه العبادة العظيمة (الزكاة) حِكَمٌ جمَّة، وفوائد كثيرة تعود على الفرد والأمة.

فالزكاة نظام تشريعيّ يقوم على توزيع المال على حسب ما تقتضيه المصلحة الفردية والاجتماعية، ويرعى نظام التكافل بين أفراد الأسرة الإسلامية.

فالمسلمون في تعارفهم، وتعاونهم، وتراحمهم، وتعاطفهم كالجسد الواحد يشدُّ بعضه بعضاً، كما عبَّر عن ذلك الرسول المصطفى ﷺ. حيث قال:

«المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بعضُه بعضاً» وشبَّك بين أصابعه. [رواه البخاري (٦٠٢٦) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٥) في البرّ].

وقال: «مَثَلُ المؤمنين في توادّهم، وتراحُمهم، وتعاطُفِهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسهر، والحمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٦) في البرّ].

فلا بُدَّ إذاً - والحالة هذه - أن ينتفعوا جميعاً بما خَلَقَ الله تعالى من مال، وبما وهب من فضل، بحيث تنتفي الحاجة، ويسدُّ الخلل، وتتحقَّقُ الكفاية للجميع.

وليس يشترط أن يتساوى الناس في امتلاك المال حتى يكونوا فيه كأسنان المشط، فإن المصلحة تقتضي التفاضل، والتفاوت، بعد أن تتحقق الكفاية.

قال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

ثم إن من شأن الزكاة أن تقوِّي آصرة الأخوة والمحبة بين الناس، وتحافظ

على مستوى الكفاية لأفراد المجتمع، وتحميه من أخطار الفوارق الاجتماعية الكبيرة التي تولد الصراع بين الطبقات، وتفتح الأبواب لتسلل المستغلّين والمفسدين في الأرض.

ووراء هذه الزكاة المفروضة فتح الدين الباب واسعاً للتطوع ببذل المال، والتبرع به في كل سبيل يحقق الخير والرفاهية للأمة كلها، ويضمن المصلحة للمسلمين جميعاً، وليس لهذا البذل والإنفاق حدٌّ يقف عنده.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقد رغَّب الدين بهذا البذل والإنفاق، ووعد عليه بأضعاف مضاعفة من الأجر والعوض.

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

وقال رسولُ الله ﷺ: «من تصدق بعَدْلِ تَمْرَةٍ من كَسْبٍ طيِّبٍ ـ ولا يقبلُ الله إلاَّ الطيِّب ـ فإنَّ الله يتقبَّلُها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها، كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ، حتَّى تكونَ مِثْلَ الجبل» [رواه البخاري (١٤١٠)؛ ومسلم (١٠١٤)].

فَلُوَّه: مُهْرَهُ.

وقال ﷺ: «ما من مُسلمٍ يكْسُو مسلماً ثوباً إلاَّ كان في حِفْظِ الله ما دام عليه منه خِرْقَةٌ» [رواه الترمذي (٢٤٨٦)].

وقال: «من يسَّر على مُعْسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة» [رواه مسلم (٢٦٩٩) في الدعوات].

وقال: «والله في عَوْنِ العبد ما كان العبدُ في عَوْن أخيه» [رواه مسلم (٢٦٩٩) في الدعوات].

وقال: «ما من يَوْمٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلاَّ ملكانِ ينزلانِ، فيقُولُ أحدُهُما: اللَّهم أعْطِ مُنْفقاً خلفاً، ويقـولُ الآخرُ: اللَّهم أعْطِ مُمْسـكاً تلفاً» [أخرجه البخاري (١٤٤٢) في الزكاة؛ ومسلم (١٠١٠) في الزكاة].

ثم إن الله عز وجل افترض الزكاة في جل أموال المسلمين، وهي الذهب، والفضة، والأوراق النقدية، وعروض التجارة، ومن الثمار: النخيل، والأعناب، ومن الزروع، كل الحبوب التي تقتات وتدخر، ووسع بعض العلماء الدائرة، فأوجب الزكاة، في كل ما تنتجه الأرض من زروع وثمار.

وتجب الزكـاة أيضاً في الأنعام السـائمة وهي: الإبل، والبقر، والغنم، والمعز.

ولوجـوب الزكاة في هذه الأموال شـروط معينة، وأنصبـة مقدَّرة، ينبغي معرفتها، والبحث عنها في كتب السنة والفقه.

والله عـزّ وجلّ وزّع أمـوال الزكاة بين أصنـاف من النـاس ذكرهم بقولـه: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة: ٦٠].

ولو أن المسلمين رعوا هذه الفريضة حقَّ رعايتها، وقاموا بها كما ينبغي لأحسُّوا بفضلها، وأدركوا فوائدها، وجنوا ثمرات تشريعها، ولداووا كل خلل في مجتمعهم، ورمموا كل عيب فيه، ولما بقي بينهم بائس يشكو، ولا معدم يبكي، ولا مشرَّد لا يجد المأوى، ولا حاقد يتربص الدوائر، والله عز وجل حكيم، وشرعه فيه الكفاية. ودينه يحمل كل الخير للعباد.

* * *

الشعبة الثالثة والعشرون

الصيـام

الصيام في اللغة: يطلق على ترك الشيء، والإمساك والكف عنه، كلاماً كان، أو طعاماً، أو نكاحاً.

قال الله تعالى حكاية عن السيدة مريم عليها السلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦].

صوماً: أي إمساكاً عن الكلام.

ويقال: صام الفرس: إذا قام على غير اعتلاف.

قال النابغة الذِّبْيانيُّ:

خَيْـلٌ صيـامٌ وخَيْـلٌ غيـر صـائمـةٍ تحتَ العَجَاج وأخْرَى تَعْلِكُ اللُّجُمَا

والصيامُ في الشـرع: هو الإمساكُ عن المفطرات بنيّـة من أهله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

وهذا المعنى الشرعي للصوم ـ كما ترى ـ وثيق الصلة بمعناه اللغوي، لكنه ضمن دائرة أضيق، لأنه خاص بترك المفطرات وحدها، أي ترك شهوتي البطن، والفرج. بإضافة النية إليه.

وللصوم مكانة عظيمة في دين الله عز وجل، وهو من العبادات القديمة التي عرفت قبل الإسلام.

وقد فرضه الله عز وجل على المسلمين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

كُتب: أي فُرض.

وعدَّه النبي ﷺ ركناً من أركان الإسلام، فقال: «بُني الإسلامُ على خَمْسٍ: شهادةِ أن لا إلـهَ إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وحَجِّ البَيْتِ، وصَوْمِ رمضانَ» [رواه البخاري (٨) في الإيمان؛ ومسلم (١٦) في الإيمان].

والصوم شعبة من شعب الإيمان الكبيرة، التي علمت من الدين بالضرورة، لذلك كان جحود فرضيته كفراً، والعياذ بالله تعالى، وإفطاره بغير عذر تهاوناً فسق، ومعصية كبيرة. وليس هذا ولا ذاك يصح أن يكون من أخلاق المسلمين وصفاتهم.

وقد بيَّن النبي ﷺ فضل الصوم، ورغب فيه، وحث عليه.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ما من عَبْدٍ يصُومُ يوماً في سبيل الله، إلاَّ باعد الله بذلكَ اليَوْمِ وجْهَهُ عن النَّارِ سَبْعينَ خريفاً» [رواه البخاري (٢٨٤٠) في الصوم؛ ومسلم (١١٥٣) في الصيام].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «كُلُّ عملِ ابنِ آدمَ يُضاعَفُ: الحسنةُ عَشْرُ أمثالها إلى سَبْعِ مئةِ ضِعْفٍ، قال الله عزَّ وجل: إلاَّ الصَّوْمَ، فإنَّهُ لي، وأنا أَجْزي به، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وطعامَهُ من أجْلي، للصائمِ فَرْحتانِ: فَرْحةٌ عند فِطْرِهِ، وفَرْحةٌ عند لقاءِ ربِّهِ، ولخُلُوفُ فيه أطيبُ عند الله من ريح المسْكِ» [رواه البخاري (١٩٠٤) في الصوم؛ ومسلم (١١٥١) في الصيام].

وفي رواية: «الصِّيامُ جُنَّةٌ، فإذا كان يَوْمُ صَومِ أحدكم، فلا يَرْفَثْ، ولا يَصْخبْ، فإن سابَّه أحدٌ، أو قاتلَهُ، فليقُلْ: إنِّي صائمٌ».

خلوف فم الصائم: تغير رائحته بسبب الصيام.

جنة: وقاية. يرفث: الرفث: السخف، وفاحش الكلام.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إن في الجنَّةِ باباً يُقالُ له: الرَّيانُ، يَدْخلُ منه الصَّائمونَ، يوم القيامة، لا يدخلُ معهم أحدٌ

غَيْرُهم، يقال: أين الصائمـون؟ فيدخلون منـه، فإذا دخل آخرُهم أغلق، فلم يَدْخلْ منه أَحَدٌ» [رواه مسلم (١١٥٢) في الصيام].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلت: يا رسولَ الله، مُرْني بأمْرٍ ينفعني الله به، قال: «عليكَ بـالصَّوْمِ، فإنَّـهُ لا مِثْلَ له» [رواه النسائي: ٤/ ١٦٥].

وقد ذكـر النبي ﷺ فضل شـهر رمضان، ومكانتـه في الدين، فهو أفضل الشهور، وأعظمها، وقد افترض الله صيامه على خير الأنبياء، وخير الأمم، سيدنا محمد ﷺ، وأمته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كانتْ أوَّلُ ليلة من رمضانَ صُفِّدتِ الشَّياطينُ، ومَرَدةُ الجنِّ، وغلِّقتْ أبوابُ النَّارِ، فلم يُفتحْ منها بـابٌ، وفُتِحتْ أبوابُ الجنَّـةِ، فلم يُغلقْ منها بابٌ، ونـادى مُنادٍ: يا باغيَ الخير أقْبلْ، ويا باغيَ الشرِّ أقصر، ولله عُتقاءُ من النَّارِ وذلكَ في كُلِّ ليلة» [رواه الترمذي (٦٨٢) في الصوم].

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل رمضانُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هذا الشَّهْرَ قد حضركم، وفيه ليلةٌ خَيْرٌ من ألف شهرٍ، من حُرِمَها فقد حُرِمَ الخيْرَ، ولا يُحْرَمُ خَيْرَها إلاَّ مَحْرومٌ» [رواه ابن ماجه (١٦٤٤)].

وقال رسول الله ﷺ: «من صام رمضانَ إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدَّم من ذنبهِ» [رواه البخاري (٣٨) في الإيمان؛ ومسلم (٧٦٠) في صلاة المسافرين].

ولقد كان في هذا الشهر المبارك ـ شهر رمضان ـ فضائل وقعت فيه، ومآثر ومكرمات، أشرق فضلها، وظلّت تُذكَر على الدهور والأيام، ويحفظها الخواص والعوام، نذكر أشهرها:

١ ـ نزول القرآن في هذا الشهر المبارك: وهذا أمر متفق عليه بين العلماء.
قال الله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أُنْزِلَ القرآنُ في ليلة واحدة إلى سماء الدُّنيا ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك بعشرين سنة» [رواه الحاكم: ٢/ ٢٢٢-٢٢٣].

وفي روايـة عنه قال: «فُصل القرآنُ من الذِّكر، فـوضع في بيت العزَّة من السَّماءِ الدُّنيا، فجعل جبريل ينزل به على النبي ﷺ». [رواه الحاكم: ٢/ ٢٢٣].

والقرآن أكبر نعمة خصَّ الله تعالى بها سكان هذه الأرض من الجنِّ والإنس. وهداهم به إلى سبُل الخير في الدنيا، ومسالك الجنان في العقبى.

قال الله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

٢ ـ ومن فضائل رمضان وجود ليلة القدر فيه، وهذا أمرٌ متَّفقٌ عليه أيضاً بين العلماء، وهي الليلة المباركة التي أنزل فيها القرآن.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [الدخان: ٣-٦].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾. وأرجح الأقوال أن هذه الليلة المباركة في آحاد العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك.

لهذا قال النبي ﷺ: «تحرَّوا لَيْلـةَ القَدْرِ في الوِتْـرِ من العَشْـرِ الأواخرِ من رمضانَ» [رواه البخاري (٢٠١٧) في الصوم؛ ومسلم (١١٦٩) في الصيام].

وذكر النبي ﷺ فضل قِيامها، فقال: «من قام لَيْلةَ القَدْرِ إيماناً، واحْتِساباً غُفرَ له ما تقدَّم من ذنبه» [رواه البخاري (٢٠١٤) في التراويح؛ ومسلم (٧٦٠) في صلاة المسافرين].

ومن فضائل شـهر رمضان أيضاً صلاة التـراويح، وهي عشـرون ركعـة، صلّاها الصحابة فرادى في عهد النبي ﷺ، وأبي بكر رضي الله عنه، وصدراً من

خلافة عمر، ثم جمع عمر الناس فيها على إمام واحد، فصُلِّيت جماعة من يومئذٍ، وغدت شعار هذا الشهر المبارك، تمتلئ فيها مساجدهم، ويحضرها الرجال والنساء، والصغار والكبار، ويقرأ فيها القرآن، وتحتسب قيام هذا الشهر المبارك.

٣ ـ ومن مآثر شهر رمضان أن الله عز وجل أكرم نبيه ﷺ وأصحابه الكرام بالنصر المبين في غزوة بدر الكبرى، التي سميت غزوة الفرقان، فإن الله تعالى فرّق فيها بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، فكانت كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى، وسمت مبادئ الخير، واندحرت فلول الشرك، وانتصرت القلة على الكثرة، والعقيدة على الخرافة.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

٤ ـ ومن مآثر رمضان أيضاً فتح مكة المكرمة، فقد كان في العاشر من هذا الشهر المبارك، سنة ثمان من هجرة المصطفى ﷺ، فتم بهذا الفتح المبين فضل الله على المؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانحسرت فلول الشرك، ونكست أعلام الباطل.

قال الله تعالى: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾.

والصوم عبادة تزكو بها النفس، ويرتقي بها الخلق، ويتحقق بها التراحم، ويستعان بها على الصبر، ويتخلص بها الجسد من كثير من فضلاته، وأخلاطه المضرة، وسمومه القاتلة، وتتحرر به النفس من مألوفاتها، وأسر عاداتها، لتتمتع بالحرية الطاهرة في اختيار مصالحها، وطلب منافعها، بعيدة عن ضغوط الشهوات الآسرة، والرعونات المعتادة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إن مصالح الصوم لما كانت مشهودة بالعقول السليمة والفطر المستقيمة، شرعه الله تعالى لعباده، رحمة بهم وإحساناً إليهم، وحمية لهم وجُنَّة، وقال: وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح

الظاهرة، والقوى الباطنة، فالصوم يحفظ على القلوب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته أيدي الشهوات، وهو أكبر عون على التقوى.

وللصوم أحكـام، وآداب كثيرة أفردها العلماء بالبحث والكتابة، ينبغي معرفتها، والوقوف عليها.

وإلى جانب الصوم المفروض رغَّب الدين بكثير من نوافل الصوم، كصيام يوم عرفة، وعاشوراء، والأيام البيض، ويوم الإثنين والخميـس، وسـتة أيام من شوال، وغير ذلك.

عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: سئل رسولُ الله ﷺ عن صَوْمِ يَوْمِ عَرَفةَ، فقال: «يكفِّرُ السَّنةَ الماضيةَ، والباقيةَ» [رواه مسلم (١١٦٢) في الصيام].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسـولَ الله ﷺ صام يـوم عاشُوراءَ، وأمر بصوْمِهِ [رواه البخاري (٢٠٠٤) في الصيام؛ ومسلم (١١٣٠) في الصوم].

وعن أبي قتادة رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «يُكفِّرُ السنة الماضية» [رواه مسلم (١١٦٢) في الصوم].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صَـوْمُ ثلاثـة أيام من كُلِّ شَـهْرٍ صَوْمُ الدَّهـر كلِّه» [رواه البخاري (١٩٧٩) في الصوم؛ ومسلم (١١٥٩) في الصيام].

وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صُمتَ من الشَّـهْرِ ثلاثاً، فصُمْ ثـلاثَ عَشْـرَةَ، وأربعَ عَشْـرةَ، وخَمْسَ عَشْرَةَ» [رواه الترمذي (٧٦١) في الصيام].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسولُ الله ﷺ يتحرّى صَوْمَ الإثنيْنِ والخميسِ. [رواه الترمذي (٧٤٥) في الصيام].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الأعمالُ يَوْمَ الإثنينِ والخميسِ، فأحبُّ أن يُعرضَ عملي وأنا صائمٌ» [رواه الترمذي (٧٤٧) في الصيام].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«من صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال، كان كصيام الدَّهر» [رواه مسلم (١١٦٤) في الصوم].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال له : «فصم يَوْماً، وأفطِرْ يَوْماً، فذلك صيام داود عليه السلام، وهو أفضل الصوم». قلت : إنِّي أطيقُ أفضل من ذلـك، فقال النبي ﷺ: «لا أفْضَلَ من ذلـكَ» [أخرجه البخاري (١٩٧٦) في الصيام؛ ومسلم (١١٥٩) في الصوم].

* * *

الشعبة الرابعة والعشرون

الاعتكـاف

الاعتكاف في اللغة: معنـاه: الإقامة على الشـيء، والملازمة له. ومنه، قول الله عز وجل: ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

والاعتكاف شرعاً: هو المكثُ في المسجد بنية مخصوصة.

والاعتكاف مشروع في الدين، وهو سنّة من سنن الإسلام، وشـعبة من شعب الإيمان، وعبادة يترتب عليها الأجر والثواب.

ودليل مشروعيته قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وعن عائشـة رضي الله عنها: «أن النبيَّ ﷺ كان يعتكف العشْـرَ الأواخرَ من رمضانَ حتَّى توفَّاهُ الله تعالى، ثم اعتكف أزواجُهُ من بعدِهِ» [رواه البخاري (٢٠٢٦) في الاعتكاف؛ ومسلم (١١٧٢) في الاعتكاف].

وحكمة تشريع الاعتكاف إنما تتجلى في حاجة العبد إليه، إذ لا بدَّ للمسلم بين الفينة والأخرى من محاولة لكفكفة النفس عن شهواتها المباحة، وحبسها على طاعة مولاها، والتفرغ لعبادته، كي ترتاض بحبِّ الله تعالى، وإيثار رضاه على ترك ما هو محرم من شهواتها، والنفس أمَّارة بالسوء، تواقة للمعاصي.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣].

ومخامرة الدنيا تزيد من إقبال النفس عليها، وتعلقها بها، وطلبها لها.

وهيهات أن يمنعها من ذلك أو يردعها عنه إلا تربيتها في مثل تلك الخلوات في بيوت الله على حبّ الله تعالى، والكفّ عن محارمه.

فمن ثَمَّ شرع الاعتكاف ليكون سبباً لجمع الخاطر، وتصفية القلب، وتربية النفس على الزهد بالشهوات المباحة، والتعالي بها عن المخالفات والآثام.

والاعتكاف سنة في كل وقت، وهو في شهر رمضان أشدُّ استحباباً، وفي العشر الأخير منه أشدُّ تأكيداً، إلا أن ينذره العبد على نفسه، فيصبح واجباً، ويطالب العبد بالوفاء به.

قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وحكمة تأكدُّه في العشر الأخير من رمضان إنما تتمثل بطلب ليلة القدر، فهي على الراجح فيه، وهي ليلة مباركة، حريّة أن يشمر المرء لها، ويجدَّ في طلبها، ويعتكف رغبة في الظفر بها، والنيل لها.

عن أنس رضي الله عنه قال: دخل رمضان، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا الشَّهْرَ قد حضركُمْ، وفيه لَيْلةٌ خَيْرٌ من ألف شَهْرٍ، من حُرِمها فقد حُرمَ الخيْرَ، ولا يُحْرَمُ خَيْرَها إلاَّ مَحْرومٌ» [رواه ابن ماجه (١٦٤٤)].

وقال الله عز وجل: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

ويشترط لصحة الاعتكاف، والاعتداد به شروط، وهي:

١ ـ النيّة، وذلك عند ابتدائه، فيقصد المكث في المسجد مدَّة معينة للتعبد، تحقيقاً للسنة، ورغبة في الأجر. فلو دخل المسجد لغرض دنيوي، ولم يخطر في باله أي قصد، لم يعتبر لبثه في المسجد اعتكافاً شرعياً، وهذا لأن الاعتكاف عبادة، ولا بدَّ لصحتها وحصول الأجر فيها من النية.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنِّياتِ، وإنَّما لكلِّ امْرِئ ما نَوَى» [رواه البخاري (١) في أول صحيحه؛ ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة].

٢ ـ المكث في المسجد، ويجب أن يستمر هذا المكث في المسـجد مدَّة يصح أن تسمى في العرف اعتكافاً.

٣ ـ أن يكون الاعتكاف في المسجد، فلا يصح في البيوت ونحوها، وقد ذهب جمهور العلماء إلى صحة الاعتكاف في جميع المساجد، ودليل ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال بعض العلماء: لا يجوز الاعتكاف إلا في المسجد الجامع، وهو الذي تقام فيه الجمعة.

هذا بالنسبة للرجال، أما النساء فلهن أن يعتكفن في مساجد بيوتهنَّ، بل ربما كان ذلك أفضل لهن، لبعدهن عن البروز للرجال، والاختلاط بهم.

٤ ـ الصوم، فإن النبي ﷺ لم يعتكف إلا صائماً. وقال بعض العلماء: ليس الصوم شرطاً في صحة الاعتكاف، بل هو مجرد سنة من سننه، وعليه فيصح الاعتكاف عندهم من غير صوم.

هذا، وإذا نذر العبد اعتكاف مدَّة معينة لزمته، ووجب عليه الوفاء بنذره، وعندئذٍ لا يجوز له الخروج من المسجد، ما دام شيء من المدَّة التي عيَّنها، إلا لغرض: كقضاء حاجة، ووضوء، ونحو ذلك.

وإذا عيَّن الناذر لاعتكافه مسجداً خاصاً، لم يتعيَّن، وله الاعتكاف في غيره من المساجد، لأنها كلها في الفضل سواء، وليس لبعضها فضل على ما سواه من المساجد، إلا إذا عيَّن المسجد الحرام، ومسجد النبي ﷺ، والمسجد الأقصى، فإنها تتعين لاعتكافه، ولا يجزئه الاعتكاف في غيرها، لزيادة فضلها، وتضاعف أجر العبادة فيها، لكن يقوم المسجد الحرام مقامهما، ولا عكس، ويقوم مسجد النبي ﷺ مكان المسجد الأقصى، ولا عكس أيضاً.

ودليل وجوب الوفاء بالنذر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

وقوله في الثناء على المؤمنين: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «من نَذَرَ أنْ يُطيعَ الله فلْيطِعْهُ، ومن نَذَرَ أن يَعْصيَ الله فلا يَعْصِهِ» [رواه البخاري (٦٧٠٠) في الأيمان والنذور].

وللاعتكاف آداب، ينبغي للمعتكف أن يأخذ نفسه بها، ليتحقق غرضه من الاعتكاف على أحسن وجه، نذكر بعضها:

١ ـ الاشتغال بالطاعة والعبادة: كذكر الله تعالى، وقراءة القرآن، ومذاكرة العلم، وذلك لحصول المقصود من الاعتكاف.

٢ ـ أن يكون الاعتكاف في المسجد الجامع، وهو الذي تقام فيه الجمعة، للخروج من خلاف من لا يرى الاعتكاف إلا فيه.

٣ ـ أن لا يتكلّم إلا بخير، فلا يشتم، ولا ينطق بغيبة، ونميمة، ولغو، ونحو ذلك.

ولابن القيم في هذا الموضوع كلام نفيس ننقله لك رجاء الانتفاع به، والحرص عليه.

قال رحمه الله تعالى: فصل في هديه ﷺ في الاعتكاف: لمّا كان صلاح القلب واستقامته على طريق سيره إلى الله تعالى متوقفاً على جمعه، ولمَّ شعثه، بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يلُمُّه إلا الإقبال على الله، وكان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام مما يزيده شعثاً، ويشتته في كل وادٍ، ويقطعه عن سيره إلى الله تعالى، أو يضعفه، أو يعوِّقه، أو يوقفه ـ اقتضت رحمة العزيز الرحيم بعباده أن يشرع لهم من الصوم ما يذهِب فضولَ الطعام والشراب، ويستفرغ من القلب أخلاط الشهوات المعوِّقة عن سيره إلى الله تعالى، وشَرَعَهُ بقَدْر المصلحة، بحيث ينتفع به العبد في دنياه وآخرته، ولا يضره، ولا يقطعه عن مصالحه العاجلة والآجلة.

وشرع لهم الاعتكاف الذي مقصوده وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعه عليه، والخلوة به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق، والاشتغال به وحده، بحيث يصير ذكره، وحبُّه، والإقبال عليه في محلِّ هموم القلب، وخطراته كلها، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكير في تحصيل مراضيه، وما يقرِّب منه، فيصير أنسه بالله، بدلاً عن أنسه بالخلق، فيُعِدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور، حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه.

فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم، ولما كان هذا المقصود إنما يتم مع الصوم، شرع الاعتكاف في أفضل أيام الصوم، وهو العشر الأخير من رمضان، ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه اعتكف مفطراً قطُّ، بل قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: «لا اعْتِكافَ إلاَّ بصَوْمٍ» [رواه أبو داود (٢٤٧٣)؛ والبيهقي: ٤/ ٣١٥؛ والدارقطني، ص ٢٤٧، وسنده قوي].

إن سُنَّة الاعتكاف تكاد تكون منسيّة في أيامنا، ولم تعدْ تدخل في حسبان أكثر الناس، وكأنهم لم يعودوا بحاجة إلى ترقية أرواحهم، وتنمية أخلاقهم، ومزيد قربهم من ربهم عز وجل، ولم يعد لأكثر الناس حاجة إلا بالدنيا، وثرائها وشهواتها، وحاجاتها، كأنهم قد خُلقوا لها، وكتب لهم الخلود فيها، واستوثقوا أن لا رحيل عنها، فهي مركز الاهتمام القائم، والشغل الدائم، ولا حول، ولا قوة إلا بالله تعالى.

* * *

الشعبة الخامسة والعشرون

الحج إلى بيت الله الحرام

الحج في اللغة: القصد، وقيل: القصد إلى مُعظَّم.

وهو في الشرع: قصد بيت الله الحرام لأداء عبادة مخصوصة بشروط مخصوصة.

والحج ركن من أركان الإسلام العظيمة، وشعبة من شعب الإيمان المهمة، وعبادة من العبادات التي تشعر بالرقة، وتملأ القلب بالخشية، والجسد بالسكينة، والنفس بالطهر، واليد بالبذل، والعين بالعفة، وتجدد العهد مع الله عز وجل على الولاء، والمحبة، والذكر، والشكر، والطاعة.

لذا أكثر الإسلام من الدعوة إليه، والترغيب فيه، والحثّ عليه، وبين آثاره، وفضائله.

قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال رسول الله ﷺ: «بُنيَ الإسلامُ على خَمْسٍ: شهادةِ أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأن محمداً رسولُ الله، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، والحجِّ، وصَوْمِ رمضانَ» [أخرجه البخاري (٨) في الإيمان؛ ومسلم (١٦) في الإيمان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ العمل أفضلُ، قال: «إيمانٌ بالله، ورسولِهِ». قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: «الجهادُ في سبيلِ الله». قيل: ثُمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبْرُورٌ» [رواه البخاري (٢٦) في الإيمان؛ ومسلم (٨٣) في الإيمان].

والحج المبرور: هو الذي سلم لصاحبه من المعاصي. واستقام فيه على نهج الحقّ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «من حَجَّ، فلم يَرْفَثْ، ولم يَفْسُقْ رجعَ كيَوْمَ ولدته أمُّه» [رواه البخاري (١٨٢٠) في الحج؛ ومسلم (١٣٥٠) في الحج].

لم يرفث: الرفث: الجماع، وحديث النساء فيما يتعلق بالجماع، وهو أيضاً: الفحش في القول.

لم يفسق: الفسق: الخروج عن الطاعة، وتدخل فيه المعاصي وسوء الخُلق.

وقال ﷺ: «والحجُّ المبرُورُ ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّةُ» [رواه البخاري (١٧٧٣) في العمرة؛ ومسلم (١٣٤٩) في الحج].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالتْ: يا رسولَ الله، نرى الجهادَ أفْضَلَ العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لا، ولكن، أفضلُ الجهادِ حجٌّ مَبْرُورٌ» [رواه البخاري (١٥٢٠) في الحج].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وتنطلق حرمة الحج، ومكانته من عظمة بيت الله الحرام، فإن الله عز وجل أضافه لنفسه، تعظيماً له وتشريفاً، وبين أنه أول بيت وُضع في هذه الأرض لعبادة الله تعالى.

فقال عز وجل: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

وقال: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

وقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا

وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٦ـ٢٩].

هذا الحج بما فيه من تلبيـة لله تعالى، وإجابة لنداء إبـراهيم عليـه الصلاة والسلام، فإن فيه أيضاً من المنافع الدينية والدنيوية، ما يجلُّ عن الحصر، وحسب من يحجُّ هذا البيت أنه في ضيافة رب العالمين، في أقدس بيوته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وفْدُ الله ثلاثة: الحاجُّ، والمعتمرُ، والغازي»[رواه النسائي: ٥/ ١١٣، وابن حبان (٣٦٩٢)، والحاكم: ١/ ٤٤١]

إن لقاء المسـلمين في تلك الرحاب الطاهرة لأعظم وسـيلة تبعث الأُنـس بينهم، وتؤلف بين قلوبهم، وتنمِّي أواصر المحبة في نفوسهم، وتظهرهم سواداً أعظم، تملأ العيون هيبة ورهبة.

إن الحج إلى بيت الله تعالى فريضة العمر، لم يوجبه الدين إلاَّ مرَّة واحدة على المستطيع، لطفاً بالمسلمين، وتيسيراً لهم، وتخفيفاً عليهم، ورحمة بهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسولُ الله ﷺ، فقال: «أيُّها النَّاسُ، قد فَرض الله عليكم الحجَّ فحُجُّوا». فقال رجل: أكُلَّ عامٍ يا رسـولَ الله؟ فسـكت رسـول الله ﷺ، حتى قالها ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «لو قُلْتُ: نعم، لوجبتْ، ولما اسْتَطعتُمْ». ثم قال: «ذرُوني ما تركتكُمْ، فإنَّما هلك من كان قبلكُمْ بكثْرَةِ سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيْءٍ فأْتُوا منه ما اسْتَطعتُمْ، وإذا نَهيْتُكم عن شَيْءٍ، فدعُوهُ» [رواه مسلم (١٣٣٧) في الحج].

لكن يُستحبّ إذا كان مستطيعاً أن يحج كل خمسة أعوام على الأقل.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: إنَّ عبداً صحَّحْتُ له جِسْمَهُ، ووسَّعْتُ عليه في المعيشة، تمضي عليه خَمْسَةُ أعوامٍ، لا يَفِدُ إليَّ لمحرُومٌ»[حديث صحيح، رواه ابن حبان(٣٧٠٣)]

هذا، وإن العمرة أيضاً فريضة على المستطيع مرَّةً واحدة في العمر، شأنها شأن الحج. وقال بعض العلماء: العمرة سُنَّة، وليست بفريضة.

واستدل من قال بوجوبها بمثل قول الله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٩٦] أي ائتوا بهما تامين.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسولَ الله، هل على النساء جهادٌ؟ قال: «نعم، عليهنَّ جهادٌ لا قتال فيه: الحجُّ والعمرةُ» [رواه ابن ماجه (٢٩٠١)].

وقال رسول الله ﷺ في بيان فضل العمرة: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما» [رواه البخاري (١٧٧٣)؛ ومسلم (١٣٤٩)].

وقال: «عمرةٌ في رمضان تقضي حجَّةً معي» [رواه البخاري (١٨٦٣)؛ ومسلم (١٢٥٦)].

وقال: «تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنهما ينفيان الذنوب والفقر، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد والذهب والفضة» [رواه الترمذي (٨١٠)].

هذا، وينبغي للحاج والمعتمر أن يعرف قدر هاتين العبادتين، فيؤديهما حقهما، ويتأدب بآدابهما، وهذه الآداب تتجلى قبل الحج، وفي أثنائه، وبعد الفراغ منه.

فيبدأ قبل الحج فيحاسب نفسه، ويُبرئها مما أصابته من المظالم والآثام، ويتوب إلى الله عز وجل من الذنوب، ويندم على ما فرط في الطاعات، وقارف من السيئات.

وأن يعدَّ نفقته من أطيب ماله وأحلِّه، فإن رسول الله ﷺ قال: «إن الله طيّبٌ، لا يَقْبلُ إلاَّ الطَّيبَ» [رواه مسلم (١٠١٥) في الزكاة].

فإذا همَّ أن يخرج من بيته، فليودِّعه بركعتين. فإنه قد روي: عن النبي ﷺ إنه قال: «ما خلَّف أحد عند أهله أفضلَ من ركعتين يركعهُما عِنْدَهم حينَ يُريدُ سَفَراً» [ذكره النووي في (الأذكار)، وقال: رواه الطبراني، وهو حديث معضل، أو مرسل، لكن له شاهد عند الدارمي: ٢/ ٢٨٩].

ثم ليدعُ لنفسه بالسلامة، وبما صح عن النبي ﷺ، عن أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال: «بسمِ الله، توكَّلْتُ على الله، اللَّهم إنِّي أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِل أو أُزَلَّ، أو أَظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجهَلَ، أو يُجْهَلَ عليَّ» [رواه أبو داود (٥٠٩٤)؛ والترمذي (٣٤٢٧)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ: باسمِ الله، توكَّلْتُ على الله، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله، يُقالُ له: كُفيتَ، ووقيت، وهُديت، وتنحَّى عنه الشيطانُ» [رواه الترمذي (٢٤٢٦)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر كبَّرَ ثلاثاً، ثم قال: «﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣ ـ ١٤]، اللَّهم إنا نسألُكَ في سفرنا هذا البرَّ والتَّقْوى، ومن العمل ما تَرْضى، اللَّهم هَوِّنْ علينا سَفَرنا هذا، واطْوِ عنا بُعْدَهُ، اللَّهم أنت الصاحبُ في السَّفر، والخليفةُ في الأهل، اللَّهم إنِّي أعوذُ بك من وَعْثاءِ السَّفرِ، وكآبة المنظر، وسوء المنْقَلبِ في المال والأهل» وإذا رجع قالهنَّ، وزاد فيهنَّ: «آيبُونَ، تائبونَ، عابدُونَ، لربنا حامدُونَ» [رواه مسلم (١٣٤٢) في الحج].

ثم يودع أهله، وأصحابه، ويسألهم الدعاء، ويدعو لهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إني أريدُ سفراً فزودني، فقال: «زوَّدك الله التقوى». قال: زدني. قال: «وغفر لك». قال: زِدْني. قال: «ويسَّرَ لكَ الخيْرَ حيْثُما كُنْتَ» [رواه الترمذي (٣٤٤٥)].

وقال ﷺ: «من أراد أن يُسافِرَ، فلْيقُلْ لمن يُخلِّفُ: أَسْتَوْدِعُكم اللهَ الذي لا تضيعُ ودائعُهُ» [رواه ابن السني (٥٠٦)].

وقال: «إنَّ الله إذا اسْتُودِعَ شيئاً حفظه» [رواه أحمد: ٢/ ٨٧].

وعن سالم أن ابن عمر رضي الله عنهما كان يقول للرجل إذا أراد سفراً: ادْنُ مني أودِّعْكَ، كما كان رسولُ الله ﷺ يُودِّعُنا، فيقول: «أَسْتَوْدِعُ الله دينكَ،

وأمانتكَ، وخواتِيمَ عملكَ» [رواه الترمذي (٣٤٤٣)].

ثم ينبغي أن يُكثر ذكر الله تعالى في سفره، ويتجنب الغيبة، والكذب، والجدال، وكل ما لا يرضاه الله تعالى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أريد أن أسافر، فأوصني، قال: «عليكَ بتقْوى الله تعالى، والتكبيرِ على كل شَرفٍ» فلما ولَّى الرجل، قال: «اللهم اطْوِ له البعيد وهوِّنْ عليه السَّفَرَ» [رواه الترمذي (٣٤٤٥)].

شرف: ما ارتفع من الأرض.

وإذا أشرف على بلد يُريد نزولها، فليقل: ما رواه صهيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ لم يَرَ قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: «اللَّهم ربَّ السَّماواتِ السَّبْعِ وما أظْلَلْنَ، والأرضينَ السَّبْعِ وما أقْلَلْنَ، وربَّ الشَّياطينِ وما أضْلَلْنَ، وربَّ الرِّياحِ وما ذَرَيْنَ، أسألكَ خَيْرَ هذه القرية، وخَيْرَ أهلها، وخَيْرَ ما فيها، ونعُوذ بكَ من شرِّها، وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها» [رواه النسائي في (عمل اليوم والليلة) (٥٤٤)].

ويُستحب إذا نزل منزلاً أن يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات من شرِّ ما خلق».

عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل مَنْزلاً، ثم قال: أعوذُ بكلماتِ الله التَّاماتِ من شرِّ ما خلق، لم يضرَّه شيْءٌ حتى يَرْتحِلَ من منزله ذلك» [رواه مسلم (٢٧٠٨)].

وإذا وصل مكة ورأى البيت الحرام، فليقل: «اللهم زد هذا البيت تشريفاً، وتعظيماً، وتكريماً، ومهابة، وبرّاً، وزد من شرفه، وكرمه، وعظمه ممن حجَّه، أو اعتمره تشريفاً وتكريماً وتعظيماً وبرّاً، اللَّهم أنت السَّلامُ، ومنك السَّلامُ، حينا ربنا بالسلام».

فإذا دخل المسجد، فليبدأ بالطواف حول البيت سبع طوفات، بادئاً طوافه من الحجر، جاعلاً له عن يساره، وإن أمكنه أن يقبله في كل طوفة كان حسناً، فإذا فرغ من طوافه، فليصل ركعتين عند مقام إبراهيم إن أمكنه، وإلاَّ صلّى في أي

مكان من الحرم، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، بادئاً بالصفا، ومنتهياً بالمروة، ثم ليكثر من الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن، والطواف، وعمل البرّ، فإن هذه هي فرصة العمر التي قد لا تتكرر مرة أخرى، فإن العبادة في المسجد الحرام بمئة ألف عبادة فيما سواه، من أرض الدنيا.

فإذا كان يوم التروية خرج إلى منى، وصلّى فيها الظهر والعصر، والمغرب والعشاء، والفجر من يوم عرفة، وفي اليوم التاسع صعد إلى عرفات، فإن الوقوف بها أعظم شعائر الحج. حتى إن النبي ﷺ قال: «الحجُّ عَرَفة» [رواه الترمذي (٨٨٩)].

وعليه أن يَغْتنم هذا اليوم، ولا يضيعه بشيء من الغفلات، قال رسول الله ﷺ: «ما من يَوْمٍ أفضلُ عند الله من يوم عرفة، ينزل الله إلى السَّماء الدنيا، فيباهي بأهل الأرض أهلَ السَّماء، فيقولُ: انظروا إلى عبادي شُعْثاً غُبْراً ضاحين، جاؤوا من كلِّ فجٍّ عميقٍ، يرجون رحمتي، ولم يروا عذابي، فلم يُرَ يومٌ أكثرُ عتْقاً من النار من يوم عرفة» [رواه أبو يعلى (٢٠٩٠)، وابن حبان (٣٨٥٣)].

وقال ﷺ: «خيرُ الدُّعاءِ دعاء يوم عرفة، وخيرُ ما قلت أنا والنبيُّون من قبلي: لا إلـهَ إلاَّ الله وحده لا شريكَ له، له الملكُ، وله الحمدُ، وهو على كل شيْءٍ قدير» [رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وضعف إسناده، لكن له ما يشهد له].

فإذا غربت الشمس دفع إلى مزدلفة، فصلَّى بها المغرب والعشاء جمع تأخير، وبات فيها إلى ما بعد منتصف الليل، ويسن أن يصلي فيها الفجر، ويقف عند المشعر الحرام، ويدعو، ثم يذهب إلى منى، فيرمي جمرة العقبة ضحى، ثم يذبح إن شاء، ثم يحلق، أو يقصر، ثم يطوف طواف الإفاضة، وبهذا يكون قد أنهى مناسك الحج، ولم يبق عليه إلا أن يعود إلى منى، فيبيت بها ليالي التشريق، ثم إذا أراد السفر، طاف طواف الوداع، وفي قلبه حبُّ البيت، داعياً أن لا يجعل ذلك آخر العهد بهذا البيت المشرَّف.

وعليه بعد الحج أن يستأنف حياة تقية نقية، عليها علامات الرضى، ومن خلالها تبدو آثار الحج المبرور.

* * *

الشعبة السادسة والعشرون

الجهاد في سبيل الله تعالى

الجهاد معناه: بَذْلُ الجُهْدِ والطاقة في تحصيل مرضاة الله عزَّ وجلَّ، فيدخل في هذا كلُّ جُهد يبذله المؤمن، يكون فيه طاعة لله تعالى، ومصلحة للمسلمين، سواء كان بالفكر واللسان، أو بالجسم والبنان، أو بالحسام والسنان.

فالقتالُ إذاً نوع من أنواع الجهاد، وليس هو كلَّ الجهاد. ويدل على ذلك قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦].

فالجهاد إذاً بمعناه الواسع وجب مع بزوغ فجر الدعوة إلى الله عز وجل، فكان لزاماً على النبي ﷺ، وأصحابه الكرام أن يبذلوا كل وسعهم، ويقدموا كل ما في طوقهم لتبليغ دعوة الحق، والصبر عليها، وتحمل الأذى في سبيلها.

قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقال له: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧ ـ ١٢٨].

فجاهد ﷺ، وصبر وصابر، ودعا إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادل المشركين بالتي هي أحسن، وقدَّم لهم كل حجة مقنعة، وكل دليل مستبين، ولقي ﷺ هو وأصحابه الكرام الأذى، ومسهم من المشركين سوء العذاب، فلم يحركوا ساكناً ضد من صدهم وآذاهم، بل صبروا عليهم، وألانوا

القول لهم، وتركوا كل الفرص لأفكارهم وما يدعون إليه لأن تتسرب إلى قلوب المشركين وأفهامهم من غير عنف، ولا ردود فعل، ولتأخذ دعوتهم طريقها في كل ناحية بهدوء ورويَّة، فلم تمض فترة ما قبل الهجرة الشريفة إلا وقد سمع بالإسلام كل قاصٍ ودانٍ، وعلم جلَّ مبادئه كل عدوٍّ وصديق، حتى أبو طالب الذي لم يؤمن بهذا الإسلام كان يقول:

ولقد علمتُ بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

وحتى الوليد بن المغيرة، وهو من أشد أعداء الرسول والإسلام كان يقول في ملأ قريش: إن لهذا القرآن لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمُغدِق، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه.

حتى أهل الشام، والعراق، والأمراء في أطراف الجزيرة سمعوا بالإسلام، ووصلت إليهم أخباره، واستنارت لديهم أفكاره، فالنجاشي ما إن سمع من جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه بعض ما يدعو إليه الإسلام، وما يحمله من الأفكار والأحكام، حتى أعلن بصراحة وقال: إن ما جاء به محمد ﷺ وما جاء به عيسى عليه السلام ليخرج من مشكاة واحدة، وأسلم رضي الله عنه، ودان دين الحق.

كل هذا كان بفضل الصدق في الدعوة، والحكمة في التبليغ، والرفق في المعاملة، والصبر على الأذى.

وكانت هذه المدَّة، وهي ثلاث عشرة سنة كافية لتهيئة الأجواء، والأذهان، والأفهام، والنفوس لفهم هذا الدين، وإدراك مبادئه، ومقاصده، سواء قبله المشركون، أم ناصبوه العداء.

فهم عند أنفسهم يعرفون صحة هذا الدين، وسمو شعائره وشرائعه، وهم في أنفسهم مغلوبون منهزمون، لا يمنعهم من الاتباع إلا الحسد والعناد.

والنبي ﷺ، وأصحابه الكرام كانوا يعرفون أن مهمتهم الأساسية إنما هي

تبليغ هذا الدين، وإقامة سلطانه في الأرض، وتطبيق مبادئه بين الناس، لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة من خالفه هي السفلى.

ولقد استأذن بعض الصحابة رضوان الله عليهم النبي ﷺ أن يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، واستعمال شيء من القوة ضد خصومهم، فلم يأذن لهم، وأمرهم بالصبر، وبشرهم بالفرج والنصر، وضرب لهم القدوة الحسنة بمن كان قبلهم، ليستنوا سنتهم، ويصبروا على الحق والأذى صبرهم.

عن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: أتيت النبيَّ ﷺ، وهو متوسّدٌ بُرْدَةً، وهو في ظلِّ الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدَّةً، فقلت: يا رسولَ الله، ألا تدعو لنا، فقعد، وهو مُحْمرٌّ وجهه، فقال: «لقد كان مَن قبلكم ليُمْشطُ بمِشَاطِ الحديد، ما دون عظامه من لحم، أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مَفْرِقِ رأسه، فَيُشقُّ باثْنيْنِ، ما يصرفُهُ ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمْرَ حتى يسير الراكبُ من صَنْعاءَ إلى حَضْرَ مَوْتَ، ما يخافُ إلاَّ الله» [رواه البخاري (٣٨٥٢) في مناقب الأنصار].

وبعد كل ما ذكر، كان من الحكمة لحمل الإسلام، وتبليغ دعوته أن يهاجر النبي ﷺ وأصحابه الكرام إلى المدينة المنورة، بعد أن آمن بعض أهلها، وتعهدوا بمناصرة الإسلام، وحماية النبي ﷺ.

وبعد الهجرة الشريفة، وبعد فترة بلوغ الدعوة أذهان معظم الناس، واستمرار تعنت المشركين، وإصرارهم على الصدِّ عن سبيل الله تعالى ـ جاء الإذن للمسلمين بالدفاع عن أنفسهم أمام أذى المشركين وحربهم.

قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩ـ٤٠]. أي أذن لهم بالقتال دفاعاً عن النفس، لأنهم ظُلموا. ثم خطا الإسلام بهم خُطوة أخرى وراء الإذن لهم بالدفاع، فأمرهم بقتال من يقاتلهم، أو يبيِّت النية لحربهم، وقتالهم، فقال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وبعد غزوة بدر الكبرى، وانتصار المسلمين، وظهور الحقِّ للقاصي والدَّاني، وبيان مواقف العناد الباطل والظلم الفاضح ـ جاء الأمر بالجهاد والقتال مطلقاً، لأن الحال لم تعد تمثل الجهل بالإسلام، وإنما أصبحت تتركز حول كسر قناته، والصدِّ عنه، سواء كان هذا من طرف أهل الكتاب، أم كان من المشركين، لذلك كان من الحق والإنصاف، أن تعلن الحرب على الكافرين جميعاً، لأن حالتهم تنم عن العدوان، والتربص بالإسلام، والتجمع على قتاله، وقتال أهله، وليس لهم عذر من بقية جهل مبادئه وشرائعه.

وجاء الترغيب بالجهاد، والحث عليه، لأنه تمحّض وسيلة لصيانة الدين، وحماية أهله، وكان لا بدَّ منه لدرء الفتنة، وتأمين حرية الدعوة، والدخول فيها.

وبهذه القوة القتالية كسرت رؤوس الفتنة، وقُلِّمتْ أظفار الطواغيت، وانفتح الباب واسعاً ليدخل الناس في الإسلام، لا بعصى الإكراه، وإنما بدافع الحب والقناعة، وعدم الخوف من أصحاب البطش والطغيان.

وأوضح دليل على هذا هزيمة قريش، الذين كانوا يشكلون حجر الزاوية في سلطان الإرهاب، والصدِّ عن الدين، فلما هزموا، وأسلموا، دخل الناس في دين الله أفواجاً.

قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾.

ومن هنا تعلم أن الجهاد ليس لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وإنما هو لقصم ظهر المعتدين، والصادين عن دين الله، وإزاحة بأسهم وطغيانهم من طريق العباد، لتتأمن الحرية الدينية لكل الناس، وتنتهي أساليب الفتنة في العقيدة والعبادة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

هذا وينبغي أن يعلم المسلمون في كل زمان ومكان، أن دينهم هو الحقُّ، وأن الخير كل الخير فيه، وأن الزمان لا يخلو من عدو للمسلمين، وحاقد عليهم، ومتربص بهم، وعامل ضدهم، ولا سبيل لدفع هؤلاء ودرء أخطارهم من قوَّة تحمي الحق، وتصون البلاد، وهذه القوة تتمثل بوحدة المسلمين، وتقواهم لله تعالى، ومناصرتهم لدينه، وأخذهم بنصيب وافر من العلوم النافعة، وقوة العتاد والسلاح الرادعة، وبهذا لا تضيع أمتهم، ولا تنكس رايتهم، ولا تنهزم جيوشهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقال: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والجهاد فرض على المسلمين، وشُعبة من شُعب دينهم، وهو سبيل عزتهم، ما تركه المسلمون يوماً من الدهر إلا ذلوا، وطمع بهم عدوهم.

وقال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقال رسول الله ﷺ: «إن في الجنَّةِ مئة درجة أعدَّها الله للمجاهدينَ في سبيلِ اللهِ، ما بَيْنَ الدَّرجتين، كما بين السَّماء والأرض» [رواه البخاري (٢٧٩٠) في الجهاد].

وقال: «ما اغبرَّتْ قدما عَبْدٍ في سبيل الله، فتمسَّهُ النَّارُ» [رواه البخاري (٢٨١١) في الجهاد].

وقال: لغَدْوَةٌ في سبيل الله، أو رَوْحةٌ خَيْرٌ من الدُّنيا، وما فيها» [رواه البخاري (٢٧٩٥) في الجهاد؛ ومسلم (١٨٨٠) في الإمارة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله ﷺ، فقال: أيُّ النَّاس أفضل؟ قال: «مؤمنٌ يجاهدُ بنفسه وماله في سبيل الله» [رواه البخاري (٢٧٨٦) في الجهاد؛ ومسلم (١٨٨٨) في الإمارة].

إن المسلمين لم يكونوا في يوم من أيامهم بأشدَّ حاجة إلى الجهاد والإعداد له من أيامهم هذه، التي اتضح فيها كراهية الكفار لهم، وتكالبهم عليهم، وتربصهم بهم.

* * *

الشعبة السابعة والعشرون

المرابطة في سبيل الله عزَّ وجلَّ

المرابطة في سبيل الله تعالى: معناها: ملازمةُ ثغور البلاد، والإقامة عند حدودها، لمراقبة تحركات العدو، ودرء خطره، ومنع جنوده من دخول بلاد المسلمين، وتجاوز حدودها.

وهذا عمل مبرور، وشعبة من شُعب الإيمان، وهو عمل واجب على الأمة، وهو بحقٍّ جنودها أوجب.

إن المرابطة عند حدود البلاد عمل تقتضيه سلامة الأمة، وصيانة بلادها، وتحصيل أمنها، وحفظ كرامتها، ودرء الخطر عنها، ولا يجوز بحال التهاون بهذا الواجب الخطير، أو التقليل من شأنه.

وواجب ولاة الأمور في العالم الإسلامي إعداد الأبطال المهرة، وتأهيلهم بالإيمان الراسخ، والخلق القويم، والعبادة لله تعالى، وتزويدهم بالعلم والمعرفة، والخبرة بأنواع الدراية والحماية والرقابة، ليكونوا حراساً أمناء، ورقباء أوفياء لأمن بلادهم، وحفظ حدودها، فيلزموا الثغور، ويرابطوا عند الحدود، بعيونهم اليقظة الساهرة، وأيديهم الفتية القوية، ونفوسهم الأبية النقية، يرقبون حركات العدو، ومؤامراته، ويتحسسون مواقعه، ويرصدون مسالكه، فإذا شموا رائحة غدر انتصبوا لها، وإذا سمعوا هيعة طاروا إليها، وإذا رأوا تحركاً صوَّبُوا إليه السلاح، وأمطروه وابلاً من النيران، لا همَّ لهم إلا إرضاء الله تعالى، وحماية دينه، وصيانة البلاد، وحفظ العباد. هذه المرابطة، وهذا السهر على حماية الحدود يضمن للأمة عزتها وأمنها وسلامتها.

لهذا لم يكن غريباً أن يمجّد الدين هذا الرباط، ما دام في سبيل الله تعالى، ويعدُّه نوعاً من أرقى أنواع الجهاد، ويعِدُ عليه بالمثوبة، ويدخر له أعظم الأجر، ويأمر به أمراً مبرماً، لا نقض له، ولا رجعة فيه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥ ـ ٤٦].

عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «رباطُ يَوْمٍ في سبيلِ الله خَيْرٌ من الدُّنيا وما عليها، ومَوْضعُ سَوْطِ أحدِكم من الجنَّةِ خيرٌ من الدُّنيا وما عليها، والرَّوْحةُ يرُوحُها العبد في سبيل الله تعالى، أو الغَدْوَةُ خيْرٌ من الدُّنيا وما عليها» [رواه البخاري (٢٨٩٢) في الجهاد].

وعن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رِباطُ يَوْمٍ ولَيْلةٍ خَيْرٌ من صيامِ شَهْرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عملُهُ الذي كان يعملُه، وأُجرِيَ عليه رِزْقُهُ، وأمن الفتَّانَ» [رواه مسلم (١٩١٣) في الإمارة].

وعن فَضَالةَ بن عُبيْدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ ميِّتٍ يُختمُ على عملِهِ إلاَّ المرابطَ في سبيل الله، فإنَّه يُنمَّى له عملُهُ إلى يوم القيامة، ويُؤمَّنُ فتنة القبر» [رواه أبو داود (٢٥٠٠) في الجهاد، والترمذي (١٦٦٦) في الجهاد].

وعن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رباطُ يومٍ في سبيل الله خيْرٌ من ألف يَوْمٍ فيما سواه من المنازِلِ» [رواه الترمذي (١٦٦٧) في فضائل الجهاد].

إن هذه الأدلة الصادقة لتحمل أعظم البراهين على فضل المرابطة في سبيل الله تعالى، وعظيم أجرها، والترغيب فيها، فثواب المرابط لا ينقطع بالموت،

ورزقه لا يفوت بفوت الحياة، بل يُعطاه في الجنة أعظم حظّاً، وأوفر قدراً، وحسْبُهُ شرفاً أن يحفظه الله تعالى من فتنة القبر، وسؤال الملكين، وما ذلك إلا لأنه جاد براحته لربه، وروحه لدينه وأمته، فأجدر به أن يكرمه الله عز وجل بكل هذه الكرامات، ويخصَّهُ بكل هذه النعم والهبات، وإنه والله ليس بخاسر بما فاته من الدنيا ـ إن فاته ـ شيء برباطه، بل هو الرابح المحظوظ، لأنه جاد بالقليل، فنال الكثير، وضحَّى بالفاني، فأعطي الباقي، وشتان بين ما بذله، وما حصل عليه.

فإذا كانت الغدوة في سبيل الله ـ وهي المرَّة الواحدة من الغدو، وهو السير في أول النهار، وإذا كانت الروحة ـ وهي المرّة الواحدة من الرواح، وهو السير آخر النهار ـ نقول: إذا كانت الغدوة والروحة في سبيل الله تعالى خيراً من الدنيا، وما فيها، فأي حظ ناله هذا المرابط المجاهد؟!.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْبٍ فيه عُيَيْنةٌ من ماء عَذْبةٌ فأعجبته، فقال: لو اعْتزلتُ النَّاسَ، فأقمتُ في هذا الشِّعْبِ، ولن أفعلَ حتَّى أستأذنَ رسولَ الله ﷺ، فذَكر ذلك لرسولِ الله ﷺ، فقال: «لا تَفْعلْ، فإن مُقام أحدكم في سبيل الله أفضلُ من صلاته في بيته سبعين عاماً، ألا تحبُّون أن يغفرَ الله لكم، ويُدْخلكم الجنَّة؟ اغْزُوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فُوَاقَ ناقةٍ، وجبتْ له الجنَّةُ» [رواه الترمذي (١٦٥٠) في الجهاد].

فواق ناقة: أي مقدار ما بين الحلبتين.

لقد كان من أخلاق أصحاب النبي ﷺ أنهم لا يقطعون أمراً، حتى يشاوروا فيه رسول الله ﷺ، فيقفوا بذلك على رضاه، فإن أمرهم ائتمروا، وإن نهاهم انتهوا، وكان لهم عليه الصلاة والسلام كالأب الرحيم، وكانوا معه كالأبناء البررة، وبهذا وذاك كتب لهم النصر، واستحقوا ثناء الله العاطر، وتبوَّؤوا مكان الصدارة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ

﴿رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وكم تحبُّ الأمة، وتطمع أن يكون جنودها، وحماة بلادها، على مثل هذا المستوى من الإيمان، والطاعة، والسلوك الرائع المستقيم. يوقنون بأن البذل خير من البخل، والعطاء خير من البلاء، والباقي خير من الفاني، والجهاد أفضل من القعود، وإعداد العدة خير من استجدائها، وكيف وقد أمروا أن يأخذوا بملاكها، وأن يعدوا أشدها، ويجمعوا أفضلها وأكثرها.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدخلُ بالسَّهمِ الواحد ثلاثةَ الجنَّةَ. صانعَهُ يَحْتسبُ في صنعته الخيرَ، والراميَ به، والممِدَّ به» [رواه البخاري (٢٨٥٣)].

وقال الله عز وجل: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقال رسول الله ﷺ: «اركبُوا، وارمُوا، وأن تَرْمُوا أحبُّ إليَّ من أن تركبُوا، وكل شيْءٍ يلهو به الرَّجُلُ باطل إلا تأديبَهُ فرسَهُ، ورميه من قوسِهِ، وملاعبتَهُ لامرأتـه، ومن تعلَّمَ الرَّمْيَ، ثم تـركه، فهو نعمةٌ تـركها» [رواه الترمذي (١٦٣٧)؛ وأبو داود (٢٥١٣)].

* * *

الشعبة الثامنة والعشرون

الثبات للعدو وترك الفرار من الزحف

الثباتُ للعدوِّ، والصمودُ في وجهه، وعدمُ الفرار عند لقائه واجب حتم من واجبات الدين، وعزائم الإسلام، وهو شعبة عظيمة من شُعب الإيمان، وهو مِلاك الجهاد، وسبب النصر في الحرب، ولقد جاء الأمرُ به صريحاً في القرآن الكريم، والسنة الشريفة.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٤٥ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٥-٤٦].

والصبرُ: هو الثباتُ، وحبسُ النفس عند المكاره والشدائد، والصبرُ مفتاحُ النصر، وقد أمر الله به عز وجل، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وقال عز وجل: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وأجر هؤلاء الصابرين وبشارتهم في الدنيا، إنما هي النصر والعزَّةُ والغنيمة.

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ۝١٨ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٩ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢٠].

وأمَّا أجرُهم وبشارتهم في الآخرة فهي أسمى وأعلى وأشهى، إنها الكرامة في دار الكرامة، إنها جنة المأوى، وجنة الخلد والرضوان.

وقد جمع الله عز وجل للمجاهدين الصابرين الثابتين هاتين البشارتين والكرامتين في قوله الكريم حيث قال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣]

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

وعن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتَّى إذا مالت الشَّمْسُ قام فيهم، فقال: «يا أيُّها النَّاسُ، لا تتمنَّوُا لقاءَ العدُوِّ، واسْألُوا الله العافية، فإذا لقيتُموهُمْ فاصْبرُوا، واعلمُوا أنَّ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ». ثم قال النبي ﷺ: «اللَّهم مُنْزِلَ الكتابِ، ومُجْرِيَ السَّحاب، وهازِمَ الأحزاب، اهْزمهم، وانصُرْنا عليهم» [رواه البخاري (٣٠٢٥) في الجهاد؛ ومسلم (٢٦٠٧) في الجهاد].

وفي الجانب الآخر جاء النهي في القرآن والسنَّة صريحاً وقوياً وحازماً عن الفرار والتولِّي، وترك أرض المعركة لأيِّ سبب من الأسباب، اللهم إلا إذا كان ذلك لمكر يمكره بالعدو، أو خديعة يخدعه بها، ليستجرّه، وينقضّ عليه، ويفتك به.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ

ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥ ـ ١٦].

وقال رسول الله ﷺ: «اجْتنبُوا السَّبْعَ الموبقاتِ» قالوا: يا رسولَ الله، وما هُنَّ؟ قال: «الشِّرْكُ بالله، والسِّحْرُ، وقتلُ النَّفْسِ التي حرَّم الله إلاّ بالحقِّ، وأكلُ الرِّبا، وأكلُ مالِ اليتيمِ، والتَّولي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المحْصناتِ المؤمناتِ الغافلاتِ» [رواه البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا؛ ومسلم (٨٩) في الإيمان].

فعدَّ ﷺ الفرار من الزحف، وترك الثبات في المعركة واحداً من هذه الجرائم المهلكة، وما ذلك إلا لشدَّة خطره، وعظيم ضرره.

وينبغي أن يُعلم أن المسلمين ليسوا هُواة حرب وضرب، ولكنهم إذا فرضت عليهم الحرب، وحملوا على الضرب، وتعيَّن ذلك سبباً لحريتهم وكرامتهم وسلامتهم، كانوا أسود شرى، وفرسان كرٍّ ونزالٍ.

وقد سبق قول النبي ﷺ: «لا تتمنَّوا لقاء العدوِّ، وسلُوا الله العافية، فإذا لقيتُموهُمْ فاصْبرُوا، واعلمُوا أنَّ الجنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيوفِ».

والله عز وجل قد أوجب على المؤمنين ـ في أول ما شرعت فريضة الجهاد ـ أن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من الأعداء، فإذا فرَّ منهم كان آثماً، ثم خفَّف عنهم ـ عزَّ وجلَ ـ وأوجب عليهم أن يثبت الواحد منهم لاثنين من المشركين.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤ ـ ٦٦].

ولقد درج رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام على هذا التكليف، وقاموا به حقَّ القيام، وما كانوا في يوم من الأيام إلاّ قلَّةً في وجوه أعدائهم، ولكن هذه القلة بإيمانها، وثباتها، وإخلاصها كانت هي المنتصرة، ولما حاول بعض الصحابة مرَّة

أن يأنسوا بكثرتهم، ويركنوا إلى مظاهر قوتهم خانتهم تلك الكثرة، وخذلتهم تلك القوّة، وألفوا أنفسهم منهزمين، ولقد ذكَّرهم الله تعالى بهذا، وبيَّن لهم عواقبه، ليظلُّوا على خط النصر، وحقيقة الأمر، فقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥].

لكن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يمتازون بسرعة الفيئة، ويقفون على نقطة الخطأ، وسرّ الداء، فيصلحون ما فسد، ويعودون إلى الصواب، فما هي إلا لحظات، ويتغيَّر الحال، وتنكشف الكُربُ، وينزل النصر، ويأتي الفرج، وبعد تلك الصحوة في حُنين، وتدارك الخطأ جاء النصر، وقال الرب عزَّ وجلّ:

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

إن الثبات في المعارك، والصمود في الحرب ثمرة عوامل كثيرة، تتجمع كلها في رياض الإيمان بالله تعالى، والاعتماد عليه، والثقة به، والامتثال لأمره في إعداد القوّة، واتخاذ الأُهبة، ومن أعظم هذه العوامل:

١ ـ حبُّ الدين، والرغبةُ في شدّ أزره، ودفع الخطر عنه، واعتقاد أنه أنفس شيء تملكه الأمة، ويدخره الوطن، فهو حريٌّ أن يبذَل في سبيله النفسُ والنفيسُ، وهذا ما كان يتحلَّى به أجدادنا العظام، وأسلافنا الكرام، فإنهم كانوا يقولون للناس: جئنا لنخرجكم من عبادة العباد، إلى عبادة الله عز وجل، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، كانوا يقولون هذا، ويؤمنون به، فإن النبي ﷺ عيَّن لهم الهدف من القتال، وأبان لهم المقصد من تحريك السلاح، فقال عليه الصلاة والسلام: حين قال له قائل: يا رسولَ الله، الرجلُ يقاتل للمغنم، والرجلُ يقاتل ليُذكَرَ، والرجلُ يقاتل ليُرى مكانه.

وفي رواية: يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية.

وفي رواية: يقاتل غضباً، فمن في سبيل الله؟.

قال ﷺ: «من قاتلَ لتكُونَ كلمةُ الله هِيَ العُلْيَا، فهو في سبيل الله» [رواه البخاري (٢٨١١) في الجهاد؛ ومسلم (١٩٠٤) في الإمارة].

٢ ـ معرفة عواقب الجهاد ونتائجه، وأنها كلها حسنة على المسلمين، فهي إما نصر على العدو، وإما شهادة في سبيل الله تعالى، وجنة عرضها السماوات والأرض.

وقد قالها النبي ﷺ وأصحابُه للكفار حين توعدوهم، وتربَصوا بهم: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

ولقد كانت هذه قناعتهم الحقة التي تعلموها، وآمنوا بها، وقاتلوا بسلاحها، وانتصروا بروحها.

لقد كانوا لا يشكُّون بفوز الشهداء، وسعادتهم عند الله تعالى، وأنهم أحياء في جنة الخلد يرزقون ويطعمون. وكيف لا يؤمنون بهذا، والله عز وجل قال في محكم كتابه، وهو أصدق القائلين: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠].

وقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤].

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «ما أحدٌ يَدْخلُ الجنَّة يُحبُّ أن يرجعَ إلى الدُّنيا، وله ما على الأرضِ من شيْءٍ، إلاَّ الشَّهيدُ، يتمنَّى أن يرجعَ إلى الدُّنيا فيُقْتلَ عَشْرَ مرَّاتٍ، لما يَرَى من الكرامة» [رواه البخاري (٢٨١٧) في الجهاد؛ ومسلم (١٨٧٧) في الإمارة].

٣ ـ اعتقاد أن الأجل محدود، لا يمدُّه الخلود إلى الراحة. أو يؤخره فرار من المعركة، كما أنه لا يقدمه جهاد، ولا ثبات في أرض المعركة، وقد صدق من قال:

قد يُقْتَلُ الجبانُ في آخرِ الصَّفِّ ويَنْجُو مُقارِعُ الأبطالِ

قال الله عز وجل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

لقد كان المجاهدون من سلف هذه الأمة لعلمهم بهذه الحقيقة، وإيمانهم بها، لا يهابُون الإقدام، ولا يضايقهم كثرة العدو، والثبات عند لقائه.

٤ ـ معرفة ما تتطلبه الحرب من تضحيات، وما تجره من مصائب. لكنها بسيطة إذا ما قيست بنتائجها، ثم إن هذه الويلات ليست من نصيبهم وحدهم، بل هي أيضاً من نصيب أعدائهم، وهم أجدر بتقبلها، والصبر عليها، لما لهم فيها من الجزاء والعطاء.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

* * *

الشعبة التاسعة والعشرون

أداء الخمس من المغنم إلى الإمام
أو عماله على الغانمين

الغنيمةُ، والغنائم: هي أموالُ الكفار التي أحرزها المقاتلون وغنموها بعد قتالهم القتال المشروع، سواء كانت هذه الأموال منقولة، أم غير منقولة، وقد سمّاها القرآن الكريم غنائم، كما سمَّاها أنفالاً، وأوجب فيها الخمس، يُدفع للإمام ليوزعه على من ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم.

قال الله عز وجل: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

عبدنا: محمد ﷺ.

يوم الفرقان: يوم بدر، الذي فرق الله تعالى فيه بين الحقِّ والباطل.

الجمعان: جيش الصحابة، وجيش كفار قريش.

فهذا الخمس من الغنائم، يخمَّسُ خمسة أخماسٍ:

ـ خمس منه للنبي ﷺ ينفقه في مصالحه.

ـ وخمس لآل بيته، وهم المسلمون من بني هاشم والمطلب، الذين لا تحلُّ لهم الزكوات والصدقات.

ـ وخمس لليتامى، وهم الفقراء ممن مات أباؤهم، وهم صغار دون البلوغ.

ـ وخمس للمساكين، وهم من يملكون دون كفايتهم، ويدخل فيهم الفقراء، فإنهم أسوأ حالاً من المساكين.

ـ وخمس لأبناء السبيل: وهم كل من انقطع بعيداً عن ماله في غير بلده.

وأما ربُّنا عز وجل، فقد ذكر معهم تشريفاً لهم، وإلا فكلُّ شيء له سبحانه وتعالى خلقاً، وملكاً.

وسهم النبي ﷺ يوضع بعد وفاته في مصالح المسلمين. وأما الأخماسُ الأربعة الباقية، فهي من نصيب المقاتلين، توزع عليهم.

وكان النبي ﷺ يعطي الراجل من المقاتلين سهماً، بينما يعطي الفارس ثلاثة أسهم، وقيل: سهمين.

وأما تسمية الغنائم أنفالاً فقد جاء في قول الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

وهذه الآية الكريمة نزلت على النبي ﷺ في أعقاب غزوة بدر الكبرى حين اختلف الصحابة في الغنائم، ومن يستحقها، ومن هو أولى بها، فأخبرهم الله عز وجل أن حكمها إلى الله تعالى، وأن النبي ﷺ يتولى توزيعها حسب ما يأمره ربه عز وجل، وقد فعل ﷺ.

قال العلماء: وفي قول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ دليل على أن الغنائم تُخمَّس مهما كانت، قليلة أو كثيرة.

ولما كانت خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفُتحت جُلُّ بلاد المسلمين في الشام والعراق وغيرهما، ارتأى أن يوزع الأموال المنقولة وحدها، ويترك الأرضين ملكاً لبيت مال المسلمين، يديرها أصحابها الأصليون، ويؤدون خراجها لبيت المال، وذلك حتى لا تصير البلاد الكثيرة لنفر قليل من الفاتحين.

وكان مبنى رأيه رضي الله عنه أن تبقى هذه الأرضون عدَّة للمسلمين، تجهز منها الجيوش، وتقضى المصالح، وتعطى الذرية، وكانت حجته في ذلك قول الله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الحشر : ٧] .

وقد أرضى عمر رضي الله عنه الفاتحين بحكمه، ووافقوه على رأيه، وظلّت الأراضي المفتوحة بعده عدّة للمسلمين، وخزانة لمصالحهم .

وقد جاء في السنّة الشريفة ما يدل على وجوب إعطاء الخمس من الغنائم إلى إمام المسلمين، وأن ذلك من الإيمان .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قَدِمَ وَفْد عبد القيس، فقالوا: يا رسول الله، إنَّا من هذا الحيّ من ربيعة، ولسنا نصل إليك إلاَّ في الشْهرِ الحرام، فَمُرْنا بأمْرٍ نأخذُه عنك، ونَدْعُوا إليه مَنْ وراءنا، فقال: «آمُرُكم بأرْبَعٍ، وأنهاكُمْ عن أربع: «الإيمانِ بالله» ثم فسرها لهم: «شهادةِ أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأني رسولُ الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وأن تؤدُّوا إليَّ خُمْسَ ما غنمتم، وأنهى عن الدُّباءِ، والحنتم، والمقَيَّرِ، والنَّقيرِ» [رواه البخاري (٥٢٣) في مواقيت الصلاة؛ ومسلم (١٧) في الإيمان] .

وهذه الأربع عبارة عن أوعية كانوا ينتبذون فيها التمر، أو الزبيب، فيسارع إليها الإسكار، وحرمة الانتباذ بها منسوخ .

الدُّباء: اليقطين إذا يبس، واتخذ وعاء .

الحنتم: جرار، كانت تعمل من طين، وشعر، ودم .

المقير: الأوعية المطلية بالقار، وهو الزفت .

النقير: جذع ينقر وسطه .

ومعلوم أن توزيع الغنائم على المقاتلين، بعد أخذ خمسها إنما هو من خصائص الإمام، وواجباته، أو نائبه، عماله على الجيوش، ولا يجوز للجند أن يأخذوا شيئاً إلا بعد جمع الغنائم، وتوزيعها، وأيُّما شيْءٍ أخذ قبل هذا فهو غلول وخيانة، أي سرقة محرمة، وقد جاء النهي عن الغلول، والتشديد في أمره، والوعيد عليه .

قال رسول الله ﷺ: «أدُّوا الخيط، والمخْيَطَ، فإن الغُلولَ نار وشنار» [ذكره الهيثمي في (المجمع): ٥/ ٣٤٠].

أي عذاب، وعار.

وكان من هدي النبي ﷺ: أنه إذا أرسل سرية أن يوصيهم، ويقولَ لهم: «اغْزُوا بسمِ الله، وقاتلُوا من كفر بالله، ولا تغُلُّوا ولا تَغْدرُوا» [رواه مسلم (١٧٣١)].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان على ثَقَلِ النبيِّ ﷺ رجُلٌ يُقالُ له: كَرْكَرَةُ، فمات، فقال رسول الله ﷺ: «هو في النَّار». فذهبُوا يَنْظُرونَ إليه، فوجَدُوا عباءة قد غلَّها [رواه البخاري (٣٠٧٤) في الجهاد].

ثَقَل: العيال، وما يثقل حمله من الأمتعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبيُّ ﷺ، فذكر الغُلُولَ، وعظَّمَ أمْرَهُ، قال: «لا أُلْفِينَّ أحدَكُم، يوم القيامة على رقبتِه فرسٌ له حَمْحَمةٌ، يقولُ: يا رسولَ الله أغِثْني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبْلغتُكَ، وعلى رقبته بعير له رُغاء، يقولُ: يا رسول الله أغثني، فأقولُ: لا أملك لك شيئاً، قد أبْلغتُكَ. وعلى رقبته صَامِتٌ، فيقولُ: يا رسولَ الله أغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبْلغتُكَ، أو على رقبتهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقول: يا رسولَ الله أغِثْني، فأقولُ: لا أملكُ لك شيئاً، قد أبْلغتُكَ» [رواه البخاري (٣٠٧٣) في الجهاد؛ ومسلم (١٨٣١) في الإمارة].

لا أُلفين: لا أجدنَّ.

حمحمة: صوت الفرس، دُون الصهيل.

رغاء: صوت البعير.

صامت: الذهب والفضة، وقيل: ما لا روح له من أصناف المال.

رقاع تخفق: ثياب تضطرب.

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

فلا يجوز لمن جاهد أو يجاهد في سبيل الله تعالى، وأظفره الله تعالى وسلمه، وغنَّمه أن يختم جهاده، ويقابل فضل الله تعالى بالغلول والخيانة، ويفسد به جهاده، ويرجع بالمذمة بعد ما بذله من التضحية.

إن مثل هذا التحذير من الغلول والخيانة كان له أكبر الأثر في سلوك الصحابة رضوان الله عليهم وعفتهم، وكفّ أيديهم عن مال الله تعالى وأموال الأمة.

لقد فتح المسلمون بلاد فارس، وجاؤوا بغنائمها وكنوزها إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولم يختلسوا منها شيئاً، ولما رأى عمر عفتهم، قال قولته: «إن قوماً أدَّوا مثل هذا لأمناء». فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «عفَفْتَ يا أمير المؤمنين، فعفَّتْ رعيَّتُكَ، ولو رتَعْتَ لرتعوا».

لقد صدق عمر، وصدق علي رضي الله عنهما، وصدقت الرعية في تدينها، وعفتها، وأمانتها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

* * *

الشعبة الثلاثون

العتق بقصد التقرُّب إلى الله عزَّ وجلّ

عتق الرقاب المسترقَّة، وتخليصُها من العبودية قربة من القُرَب، وشعبة من شعب الإيمان العظيمة.

وقد دلَّ على مشروعية العتق في سبيل الله، والترغيب فيه قول الله عز وجل في محكم كتابه الكريم: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٧].

اقتحم العقبة: اخترقها، وتخطَّاها. والعقبة: المرتقى الصعبُ الذي يحول بين المرء ومُبتغاه، وهي هنا الأهواء التي تصد عن مرضاة الله تعالى، وفُسِّرت هنا بفك الرقبة، وتخليصها من الرِّقِّ، وما بعدها من القُرَب.

مسغبة: مجاعة.

مقربة: قرابة.

متربة: فقر، كأنه لفقره لاصق بالتراب.

المرحمة: الرحمة.

والعقبة التي يُدْعىَ العبدُ لاقتحامها هي هذه المبرَّات التي من شأنها أن تخلصه من النار، وهي أشبه بالسفن التي يمخر بها الراكب لجج البحر، ليصل إلى شاطئ الأمن والسلامة.

إنها إعتاق الرقاب، وإطعام الجياع، إنها الإيمان برب العباد، والصبر على طاعته، ورحمة عباده.

إنَّ هذا ليدلّ بأروع بيان على أن العتق قربة مُنجية، ومكرمة مشكورة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من أعْتقَ رقبةً، أعْتقَ الله بكلِّ عُضْوٍ منها عُضْواً من أعْضائـهِ من النَّـار، حتَّى فَرْجَهُ بفَرْجِـهِ» [رواه البخاري (٢٥١٧) في العتق؛ ومسلم (١٥٠٩)].

وهذا الهدي النبوي أبلغ ما يكون في الترغيب في العتق، وتحرير الرقاب الْتماساً للأجر، ورغبة في الثواب والنجاة.

ثم إن الدين أدخل العتق في جملة الكفَّارات، والكفارات من شأنها أن تزيل العقوبة، وهذا يدل على رفعة قدر هذه الفضيلة، وأنها من القرب الجليلة.

ففي كفارة القتل الخطأ يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟﴾ [النساء: ٩٢].

وفي الظهار يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

وفي حنث اليمين يقول تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقد أمر رسول الله ﷺ مَن أفسد صومه بالجماع أن يعتق رقبة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جُلوسٌ عند النبيِّ ﷺ، إذ جاءه رجلٌ، فقال: يا رسولَ الله، هلكْتُ. قال: «مالك»؟ قال: وقعتُ على امرأتي، وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تجدُ رقبةً تُعتقُها»؟ قال: لا. قال: «فهلْ تَسْتَطيعُ أنْ تصُومَ شَهْرَيْنِ مُتتابعينِ»؟ قال: لا، فقال: فهلْ تجدُ إطعام ستينَ مسكيناً»؟ قال: لا. فمكث النبيُّ ﷺ، فبينا نحنُ على ذلك أُتِيَ النبيُّ ﷺ بفرَقٍ فيه تمرٌ، قال: «أيْنَ السَّائلُ»؟ فقال: أنا. قال: «خُذْ هذا، فَتَصدَّقْ به». فقال الرجل: أعلى أفْقَرَ منِّي، يا رسولَ الله، فَوَالله ما بَيْنَ لابَتَيْها أهْلُ بيْتٍ أفْقَرُ من أهْلِ بَيْتي،

فضحكَ النبيُّ ﷺ، حتى بدتْ أنيابه، ثم قال: «أطْعِمْهُ أهْلَكَ» [رواه البخاري (١٩٣٦)؛ ومسلم (١١١١)].

عرق: وعاء.

لابتيها: حرَّتيها. والحرَّة: الأرض ذات الحجارة.

وفوق إدخال العتق في الكفارات ـ والكفارات كما ذكرنا تزيل العقوبة، وتعفِّي على أثر الجناية، وهذا يدل على فضيلة العتق ـ فإن الدين جعل العتق أيضاً فدية للنفس إذا قتلت بغير حقٍّ، وفي هذا أيضاً بيان على فخامة قدر هذه الفضيلة، وعلوِّ شأنها، وهذا من شأنه أن يرغب فيها، ويدعو إليها، ثم إن الحثّ والترغيب في العتق كان من أهم الشرائع والدوافع في تحرير الرقاب، وإعادة الحرية لمن فقدها بسبب جناية الكفر في الأصل، لأن الرِّق، كما يعرِّفونه: «عَجْزٌ حُكْمِيٌّ سبَبُهُ في الأصلِ الكفْرُ».

ولما كان في العتق كل هذا الفضل، وكان يترتب عليه كل ذلك الأجر، اهتمَّ به الصحابة والتابعون والصالحون، وتسابقوا إليه، وحرصوا عليه، وأكثروا منه.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكثر من عتق الرقاب، وكان يبحث عن أضعفهم، وأكثرهم تعرضاً للأذى والإهانة. حتى عتب عليه أبوه، وقال له: لِمَ لَمْ تعتق الأقوياء، فيكونوا لك عوناً في النوائب؟ فأجاب ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما أعتقهم لله تعالى، وفيه نزل الثناء العطر في القرآن الكريم ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ أي النار ﴿ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل: ١٧ ـ ٢١].

ولقد كان الكثيرون من الصحابة رضوان الله عليهم يبحثون عن أنفس الرقاب عند أهلها ليتقرَّبوا إلى الله تعالى بعتقها.

فقد رُوي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: يا رسولَ الله، أي الأعمالِ أفضل؟ قال: «الإيمانُ بالله، والجهادُ في سبيل الله». قال: قلتُ: أيُّ الرِّقاب

أفْضَلُ؟ قال: «أنْفَسُها عِنْدَ أهْلِها، وأكْثَرُها ثمناً» [رواه البخاري (٢٥١٨) في العتق؛ ومسلم (٨٤) في الإيمان].

وكان لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما غلام، اسمه: نافع، عرض عليه عبد الله بن جعفر عَشَرةَ آلاف درهم، أو ألف دينار ثمناً له، فدخل عبد الله بن عمر على زوجته صفية، فقال لها: أعطاني ابن جعفر بنافع عشرة آلاف درهم، أو ألف دينار، فقالت له زوجته: فما تنتظر أن تبيع، قال: فهلا ما هو خير من ذلك؟! هو حُرٌّ لوجه الله تعالى.

ومن الطرف النادرة ما ذكره شبيب بن شيبة قال: كُنَّا بطريق مكة، وبَيْنَ أيدينا سُفْرَة لنا نتغذَّى في يوم قائظٍ: أي شديد الحرّ، فوقف علينا أعرابيٌّ، ومعه جارية له زنجية، فقال: يا قومُ، أفيكم أحدٌ يقرأ كلامَ الله، حتَّى يكتب لي كتاباً؟ قلْنَا له: أصِبْ من غدائنا حتى نكتب لك ما تريد. قال: إني صائم، فعجبْنا من صومه في تلك البريَّة. فلما فرغنا من غدائنا دعونا به، فقلنا: ما تريدُ، فقال: أيُّها الرجل، إن الدُّنيا قد كانت ولم أكن فيها، وستكون، ولا أكون فيها، فإني أردت أن أعتق جاريتي هذه لوجه الله، وليوم العقبة، أتدري ما يَوْمُ العقبة: قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾. فاكتبْ ما أقولُ لك، ولا تزيدنَّ عليَّ حرفاً: هذه فلانةُ، خادمُ فلان، قد أعتقها لوجه الله، وليوم العقبة. قال شبيب: فقدمت البصرة، فأتيت بغداد، فحدَّثتُ بهذا الحديث المهدي، فقال: مئة نسمة تُعتق على عُهْدَة الأعرابي.

هذا، ولقد بقيت كلمة ينبغي أن نقولها: وهي أن الإسلام لم يخترع الرِّق، ولم يقرَّه رغبة به، وحباً له، وتشجيعاً عليه بل جاء، والناس في الجاهلية، وقبل الإسلام يسترقُّ بعضهم بعضاً بكثير من الأسباب، منها: البيع والشراء. ومنها العجز عن وفاء الدين، ومنها القرصنة والخطف، ومنها الغزو والسلب، وأسباب أخرى، فلما جاء الإسلام حرَّم كل تلك الأسباب، إلا ما كان بسبب الحرب المشروعة، إذا أسر المشركون وأهلوهم قبل الإسلام، فإن الدين قد وضع في يد

إمام المسلمين أمر هؤلاء الأسرى، وخيره فيهم سياسة، يفعل ما يراه مصلحة للمسلمين، إن شاء أن يسترق من شاء منهم استرق، وإن شاء أطلقهم، أو فادى بهم ما لدى المشركين من أسرى المسلمين. يفعل ما يراه أصلح وأنسب، وقد كان المشركون يسترقون من وقع في أيديهم من المسلمين، فعاملهم الدين بالمثل، ومع ذلك فقد أوصى الإسلام بهؤلاء الأرقاء خيراً، وأمر بإكرامهم، ومعاملتهم المعاملة الإنسانية اللائقة ببني البشر، ورغب في تحريرهم، وجعل قسماً من أموال الزكاة في هذا السبيل.

عن المعرور بن سويد قال: رأيت أبا ذرٍّ رضي الله عنه، وعليه حلَّةٌ، وعلى غلامه حلَّةٌ مثلُها، فسألته عن ذلك، فذكر أنه سابَّ رجلاً على عهد رسول الله ﷺ فعيَّره بأمه، فقال النبي ﷺ: «إنَّك امْرُؤٌ فيك جاهلية، هم إخوانكم وخولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» [رواه البخاري (٢٥٤٥) في العتق؛ ومسلم (١٦٦١) في الإيمان].

* * *

الشعبة الحادية والثلاثون

الكفَّارات الواجبة بالجنايات

الكفَّاراتُ: جمعُ كفَّارة، وهي مشتقة من الكَفْرِ، وهو السَّتْرُ. وسمِّيت كفارة لسترتها الذنب، تخفيفاً من الله تعالى.

والكفَّارةُ عند الفقهاء: فعل ما من شأنه أن يمحُوَ الذنبَ من عتقٍ، وصدقةٍ، وصيامٍ.

والكفَّارات مشروعة، والاستجابة لها، والقيام بها من الإيمان، لأنها فرضت على المؤمنين، وهم الذين يطبقونها، بدافع من إيمانهم، والتزامهم بأحكام دينهم.

والكفَّارات إنما شرعت في الدين جبراً للخلل الذي أوقعه الإنسان في تصرفاته، فهي ترميم لما قد أفسده، وإصلاح لما قد أخطأ به، وإزالة لآثار ما قد ترتب على فعله.

فكفارة القتل الخطأ مثلاً فيها تعويض على المجتمع عما أزهق المخطئ من الأنفس البريئة، بإحياء نفس غيرها، وتخليصها من الرِّق، إذ الرق أشبه ما يكون حكماً بالموت، وفي الإطعام تخليص نفوسٍ من الجوع، والعوز، والحرمان.

وفي الصيام تخليص للنفس أيضاً من أدران السيئات، وسموٌّ إلى درجة التقوى، والبعد عن المنكرات.

وفي كفارة الظهار مثلاً إحباط للزور الذي ارتكبه المظاهر حين شبَّه زوجته بأمه، واعتدى على حرمة حليلته.

وكفارة اليمين فيها مَحْو لآثارها المترتبة على الحنث من لحوق الذنب به، وحصول الإثم منه.

وهكذا تجد أن الكفَّارات فيها بعض التعويض عمّا فات، وإحداث ترميم لما قد وقع من المفاسد، والخطيئات، وفتح باب القُرَب إلى الله عز وجل.

وسنذكر هذه الكفَّارات بشيء من التفصيل والإيضاح، ونبدأ أولا بكفارة القتل:

١ ـ كفّارة القتل:

وهذه الكفارة واجبة على قاتل النفس المحرَّمة لحقِّ الله عز وجل، سواء كان القتل عمداً، أم شبه عمد، أم خطأ، وسواء عفا أولياء المقتول عن الدية المستحقَّة، أم لم يعفوا، لأنها ـ كما قلنا ـ إنما شرعت لحقّ الله تعالى، وتعويضاً عما قد وقع، أو ترميماً لما قد حدث.

وهذه الكفارةُ هي عتقُ رقبة مؤمنة سليمة من العيوب التي تضرُّ بالعمل، أو الكسب، فإن لم يتمكن من عتق تلك الرقبة، أو لم يجدها، فصيام شهرين متتابعين، فإن عجز عن الصيام فإنه لا يجب عليه الإطعام، لعدم وروده في النص، بل تبقى الكفَّارة في ذمته حتى يقدر عليها.

ودليل وجوب كفارة القتل قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

وإذا وجبت الكفَّارة في القتل الخطأ، فوجوبها في القتل العمد وشبه العمد أولى.

وعن واثلة بن الأسْقع رضي الله عنه قال: أتَيْنا النبيَّ ﷺ في صاحبٍ لنا قد أوْجبَ، فقال رسول الله ﷺ: «أعْتقُوا عنه رقبةً يَعْتِقُ الله بكلِّ عُضْوٍ منه عُضْواً منه من النَّار» [رواه أبو داود (٣٩٦٤) في العتق].

أوجب: يعني وجبت له النار، بارتكابه القتل العمد.

وفي الحديث دليل على وجوب الكفارة في القتل العمد.

٢ ـ كفَّارة الظهار:

والظِّهارُ في اللغة: مأخوذ من الظهر، وهو في الشرع: أن يشبِّهَ الزوج زوجته في الحرمة بإحدى محارمه: كأمه، وأخته، فيقول لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي.

وكان العرب في الجاهلية يعدُّون الظهار أسلوباً من أساليب الطلاق، لكن الشريعة الإسلامية أعطت الظهار حكماً آخر، وبنت عليه أحكاماً أخرى غير أحكام الطلاق.

والذي يعنينا الآن إنما هو كفارة الظهار، أما أحكام الظهار الأخرى فسوف يجدها من يريد مبثوثة في بابها من كتب الفقه.

فإذا نطق الزوج بلفظ الظهار، ثم أتبعه بالطلاق، كان طلاقاً، واندرج الظهار فيه، ولم يبقَ له أثر. أما إذا لم يفعل ذلك، فإنه يعتبر عائداً في كلامه، مخالفاً لمقتضاه، وعندئذٍ تلزمه كفارة يكلَّفُ بإخراجها قبل أن يمسَّ زوجته، وهذه الكفارة هي: عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب المخلة بالكسب والعمل، فإن لم يجد الرقبة، أو لم يستطع إعتاقها، فعليه صيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع، كان عليه أن يطعم ستين مسكيناً من أوسط ما يطعم أهله.

ودليل وجوب هذه الكفارة، حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة أوس بن الصامت رضي الله عنها تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرَتْ سنِّي، وانقطعَ

ولدي ظاهر منّي، اللهم إني أشكُو إليكَ، فما برحتْ حتى نزل جبريلُ بهؤلاء الآيات: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ [رواه أبو داود (٢٢١٤) في الطلاق].

والآيات هي قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ١ ـ ٤].

ويلاحظ في كفارة الظهار أن الله عز وجل لم يذكر في الرقبة وصف الإيمان، فقاس جمهور العلماء الرقبة في الظهار على الرقبة في القتل، وأوجبوا فيها الإيمان، وهكذا كل رقبة لم يذكر فيها وصف الإيمان.

٣ ـ كفارة اليمين:

واليمينُ: هو الحلف باسم من أسماء الله تعالى، أو صفة من صفاته.

واليمين ثلاثة أقسام:

ـ لغوٌ: وهو ما يجري على اللسان بغير قصد؛ كقول القائل: لا والله، وبلى والله، وهذه لا شيء فيها، وإن كان الأولى تجنُّبها.

ـ منعقدة: أي مقصودة، وهي الحلف على توثيق أمرٍ غير ثابت المضمون بذكر أحد أسماء الله عز وجل، أو ذكر صفة من صفاته.

ـ غمُوسٌ: وهي اليمين التي يتعمد قائلها الكذب فيها، وسميت غموساً، لأن صاحبها يستحق بها أن يغمس في نار جهنم عقوبة له، لاستخفافه باسم الله تعالى، وتعمده الكذب.

واليمين المنعقدة إذا حنث فيها ـ أي أثم بسبب عدم الوفاء بما التزم ـ

واليمين الغموس تجب فيهما الكفارة، وقيل: الغموس لا كفارة لها، لأنها لا ترفعها إلا التوبة النصوح إلى الله تعالى.

وكفارة اليمين مخير فيها الحالف أولاً بين ثلاثة أشياء:

ـ عتق رقبة مؤمنة، أو إطعام عشرة مساكين، من أوسط ما يأكل مع أهله، أو كسوتهم بما يعتاد لبسه، مما يسمى في العرف كسوة.

فإن عجز عن واحدة من هذه الثلاثة وجب عليه صيام ثلاثة أيام، ولا يجب التتابع، بل يسنُّ.

ودليل كفارة اليمين على نحو ما ذكرنا، قول الله عز وجل: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وقد ألحق العلماء نذر اللجاج باليمين.

ونذر اللجاج، هو ما يقع حال الخصومة، وذلك كأن يقول شخص يريد الامتناع من كلام أحد من الناس أثناء الخصومة بينهما: إن كلمته، فلله علي أن أصوم يومين. وحكم هذا النذر إذا وقع، وكلم من نذر أن لا يكلمه، أن صاحبه مخير بين شيئين:

ـ إخراج كفارة يمين.

ـ أو فعل ما نذره، وهو صيام يومين، وذلك لأن هذا النوع من النذر يشبه النذر من جانب كونه التزاماً، ويشبه اليمين من جانب كونه وسيلة امتناع عن أمر. ودليل ذلك ما رواه عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفَّارةُ النَّذْرِ كفَّارةُ اليمين» [رواه مسلم (١٦٤٥) في النذر].

أمَّا ما عدا نذر اللجاج، فإن الواجب على الناذر التزام ما نذره، لا يغنيه

عن ذلك شيء، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾ [الحج: ٢٩].

٤ ـ **كفارة إفساد الصوم في رمضان بالجماع**. وهي كما علمت من قبل:

ـ عتق رقبة مؤمنة سليمة من العيوب المخلة بالكسب.

ـ صيام شهرين متتابعين إن لم يجد الرقبة، أو لم يقدر عليها.

ـ إطعام ستين مسكيناً، لكل مسكين مدُّ حب من غالب قوت البلد، إن لم يستطع الصوم.

وهذه الكفارة مرتبة على نحو ما ذكرنا، لا ينتقل إلى خصلة منها إلا إذا عجز عن التي قبلها، فإن عجز عن الكل ثبتت الكفارة في ذمته حتى يقدر على خصلة منها.

وكفارة الجماع هذه إنما تجب على الزوج المجامع وحده، دون الزوجة، وإن كانت صائمة، وإن كانت قد أفطرت بالجماع، ولزمها القضاء، ووقعت بالإثم، لأنه لم ينقل أنها أمرت بالكفارة كالرجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحنُ جلوسٌ عند النبيِّ ﷺ، إذ جاء رجل، فقال: يا رسول الله، هلكتُ، قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي، وأنا صائم. فقال رسول الله ﷺ: «هَلْ تجدُ رقبةً تعتقُها»؟ قال: لا، قال: «فهلْ تستطيعُ أنْ تصُومَ شَهْرَيْنِ مُتتابعين»؟ قال: لا. قال: «فهل تجدُ إطعامَ ستينَ مسكيناً»؟ قال: لا. فمكث النبيُّ ﷺ، فبينما نحن على ذلك، أُتِيَ النبيُّ ﷺ بفَرْق فيه تَمْرٌ، قال: «أين السائلُ»؟فقال: أنا، قال: «خُذْ هذا، فتصدَّقْ به». فقال الرجل: أعلى أفقرَ مني، يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيْها أهلُ بَيْتٍ أفقرُ من أهْلِ بيتي، فضحك النبيُّ ﷺ، حتى بدَتْ أنيابُه، ثم قال: «اطعِمْهُ أهلكَ» [رواه البخاري (١٩٣٧)؛ ومسلم (١١١١)].

هذا، وينبغي أن يُعلم أن الكفارة تتعدد بتعدد الأيام التي أفطرها بالجماع، ويجب مع الكفارة قضاء اليوم الذي أفسده بالجماع.

وقال العلماء: يشترط عند أداء الكفارة النيّة، وذلك بأن ينوي العتق، أو الصوم، أو الإطعام، لأنها حقّ مالي أو بدني يجب تطهيراً، كالزكاة والصيام، فلا بدَّ لصحتها من النية، لأن الأعمال بالنيات.

وهناك كفارات أخرى في الصوم والحج أوجبها الدين جبراً لما قد يوقعه الحاج أو المعتمر من النقص، أو الخلل في حجه أو عمرته، نمسك عنها خشية الإطالة، وينبغي معرفتها.

وهناك كفارة يسميها العلماء كفارة إقامة الحدِّ على مستوجبه.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال، وحوله عصابة من أصحابه: «بايعُوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب به في الدنيا، فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله، فهو إلى الله، إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه» فبايعناه. [رواه البخاري (١٨)؛ ومسلم (١٧٠٩)].

* * *

الشعبة الثانية والثلاثون

الإيفاء بالعقود

العقـود: جمع عقد، ويطلق على ما التـزمه العبد، وأخذه على نفسـه، والتزم الوفاء به، سواء كان ذلك نحو ربه عز وجل، أو نحو غيره من العباد.

قال العلماء: كل من عقد عقداً من العقود التي أثبتتها الشريعة، وجعلت له حكماً بين الله تعالى، أو بين العباد بعضهم من بعض، لزمه أن يوفي به، وليس له أن يعمل ما يخالفـه.

فأوّلُ ذلك: أنه إذا تقبّل الإسـلام، ودخل فيـه، وعقده على نفسه، فليس له أن يحدث في إسلامه ما لا يلائمه، ولا يليق به.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [المائدة: ٧].

وإذا افتتح صلاة مكتوبة لم يكن له أن يتحلَّلَ منها قبل إتمامها، ولا أن يفعل فيها فعلاً لا يليق بها.

وإذا عقد صوماً مفروضاً، أو حجاً مفروضاً، ثم أعرض عنه، ولم يأت بما يقتضيه عقده، كان مخالفاً لما أمر الله تعالى به من الإيفاء بالعقود، وكان آثماً.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقال: ﴿ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٣].

ومن نذر نذراً، أو التزم لله تعالى قُرْبة كان عليه الوفاء بما التزمه، وإلاَّ كان ناقضاً لعقده، مُخلاً بعهده والتزامه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ ﴾ [الحج: ٢٩].

وقال: ﴿ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

وإذا عقد مع الناس عقداً، أو عاهد أحداً عهداً وجب عليه الوفاء به، فإذا أوجب البيع بينه وبين المشتري كان عليه تسليم السلعة إلى المشتري، وكان على المشتري تسليم الثمن إلى البائع.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

وإن كان بينهما شرط من خيار، أو أجل، أو رهن، أو كفيل؛ فالشرط لازم لهما، لأنهما عقدا عليه، والتزما به. ويلحق بهذا حكم الأمان، فإذا عقد لرجل من المشركين، أو من أهل البغي عقد أمان لم يجز التعرض له بعد ذلك بموجب هذا العقد والعهد.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [التوبة: ٦].

ومن استأجر أجيراً فاستوفى عمله كان عليه أن يُعطيه أجره، وإذا استُودع وديعة كان عليه حفظها، وإذا استحفظ سرّاً كان عليه كتمه، وإذا استشاره مستشير كان عليه نصحه.

والوفاء بالعقود والعهود باب واسع، وموضوع فسيح، يدخل فيه ضروب، وأنواع من التصرفات والالتزامات، ويتناول الناس كلهم أفراداً وجماعات، شعوباً ودولاً، حكاماً ومحكومين. لذلك، فإن الله عز وجل قد خاطب به المؤمنين جميعاً، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل: ٩١].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: ثلاثةٌ أنا خَصْمُهم يَوْمَ القيامة، رجُلٌ أعْطَى بي ثم غدر، ورجلٌ باع حُرّاً فأكل ثمنَهُ، ورجلٌ استأجر أجيراً، فاسْتَوْفى منه، ولم يعطِهِ أجرَهُ» [رواه البخاري (٢٢٢٧) في البيوع].

وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمانَ لمن لا أمانَةَ له، ولا دينَ لمن لا عَهْدَ له» [رواه ابن حبان (١٩٤)].

وقال: «المسلمونَ عِنْدَ شُروطهم» [ذكره البخاري: ٤/ ٥٦٩ في الإجارة].

وقال: «إنَّ أحقَّ الشُّروط أن يُوفى به ما اسْتَحللْتم به الفُروجَ» [رواه البخاري (٢٧٢١) في الشروط؛ ومسلم (١٤١٨) في النكاح].

لهذا كله كان الوفاء بالعقود والعهود من الإيمان، ومن أعظم شعبه، ومن أخلاق المؤمنين، ومن فضائل هذا الدين، وكان الخُلف به، والنقض له، والتَّفلُّت منه من أخلاق المنافقين والكافرين.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «أرْبَعٌ من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خَصْلةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصْلةٌ من النِّفاقِ، حتَّى يَدَعَها: إذا اؤتُمنَ خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر» [رواه البخاري (٣٤) في الإيمان؛ ومسلم (٥٨) في الإيمان].

وقال تعالى فيهم: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

وقال سبحانه فيهم، أيضاً، وبأمثالهم من أهل الكتاب: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥ ـ ٥٦].

وقال رسول الله ﷺ: «لكل غادر لواء يَوْمَ القيامةِ، يقال: هذه غَدْرة فُلانٍ» [رواه مسلم (١٧٣٦) في الجهاد].

إن الوفاء بالعقود واجبٌ محتَّمٌ، وهو مظهر من مظاهر الرجولة، والشهامة، والفتوَّة، والأريحية. وهو أيضاً مظهر من مظاهر الإيمان، والتقوى، والخشية من الله عـزَّ وجلّ، فالتزام هذا الخُلق الرفيع يكسب العبد الجمال والكمال، ويضمن له سعادة الدنيا، وسلامة الآخرة.

* * *

الشعبة الثالثة والثلاثون

تعديد نعم الله عز وجل وما يجب من شكرها

المراد بتعديد نِعَم الله تعالى ذكرها، وتذكُّرها، لا ضبطها، وحصرها، فإنها من الكثرة بحيث لا يطيق العبد حصرها مهما كان حظه منها قليلاً.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ونِعَم الله تعالى هي ما تكرَّم به عزَّ وجل من المنح والعطايا، والمنافع والمصالح في الأنفس والآفاق، والدنيا والآخرة، والمتصلة والمنفصلة، ومن أجلِّها ـ بعد الإيمان ـ نعمة الإيجاد والإمداد.

فهذا العبد لم يكن في هذه الدنيا، فتكرم الله تعالى بإيجاده، قال الله عزّ وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

والاستفهام هنا للتقرير، أي أتى عليه حين من الزمن لم يكن، ثم كان، فمن الذي أنعم عليه بنعمة الوجود؟ إنه الله تبارك وتعالى، فأجدر به أن يعرف هذه النعمة، ويذكرها، ويشكرها.

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ﴾ [فاطر: ١١].

وقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وقال: ﴿۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾[الكهف: ٥١].

وهذا الخلق الذي تكرم به الرب عز وجل كان في منتهى الكمال، وغاية التكريم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقال: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [التغابن: ٣].

نعم إنه أحسن تقويم في الظاهر والباطن، وأحسن تصوير في الحقيقة والواقع.

وبعد هذا التقويم الجيد، والتصوير الحسن، كان التكريم المستفيض، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وبعد نعمة الإيجاد كانت نعمة الإمداد، كما قال عز وجل: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢ـ١٣٤].

بل، لعل نعمة الإمداد كانت أسبق من نعمة الإيجاد، فإن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق هذا الإنسان خلق له كل ما في هذا الكون من النعم، فهذه السماء والأرض كما قال الله تعالى: ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٨ـ٣٣].

وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٢ـ٣٤].

وبعد هذا الإعداد والإمداد، والتهيئة والتحضير والتسخير، قال الله تعالى لملائكته: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة: ٣٠].

ولتستقيم خلافته، وتتيسر قيادته، وينهض بمهمته، تكرم الله عليه، فزوده بكل المواهب والطاقات، والقدر والإمكانات، وجعل بين يديه كل الوسائل والآلات.

قال سبحانه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ﴾ [الأعراف: ١٠].

وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ [الملك: ١٥].

وقال: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل: ٧٨].

فهذه المواهب، وتلك الأرض الذلول ملك العبد في هذه الحياة، وهي طوع بنانه، يعمل فيها ما يشاء، ويسخرها بما يريد، وما هذه المعطيات التي أنتجتها هذه الحضارة إلا وليدة هذه المواهب الفذَّة، وهذا الكون المعطاء.

إن هذه النعم التي ذكرناها من نعمة الإيجاد إلى نعمة الإمداد لتعد صغيرة إذا ما قيست بنعمة الإيمان والهداية، فإن نعمة الإيمان هي التي أهَّلت هذا الإنسان لأن يهنأ بهذه النعم كلها، ونعمة الهداية جعلته أهلاً لها، والله سبحانه وتعالى بمحض فضله أرسل رسله بالهدى ودين الحق، ليعلِّموا الناس أصول الفضائل، ويرشدوهم إلى معالم الخير، ويقودوهم إلى حقائق المنافع والمصالح، فكانت نعمة الدين من أجل النعم.

قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣].

هذا في الدنيا، وهناك النعمة العظمى، والمنَّة الغالبة الباقية في الآخرة،

وهي الجنة التي هي دار النعيم المقيم، والسعادة السرمدية، والتي أعدَّ الله تعالى فيها لعبـاده الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الله عـز وجـل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

كلُّ هذه النعم في الدين والدنيا، والأنفس والآفاق، يجب على العبد أن يذكرها، ويتذكرها، ويستشعرها دائماً، لأن هذا الذكر لها، والشعور بها، يجعله يحس ويدرك فضل الله عليه، ورحمته به، وحبه له، ويعلم علم اليقين أن هذا كله من فضل ربه عليه، ولولاه لما كان، ومن غيره لن يكون.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

إن هذه النعم لتقضي بالبداهة أن على هذا العبد أن يشكرها، ويدين لربه بالولاء والطاعة عليها، لذلك قال العلماء: إن ذكر هذه النعم وشكرها واجب على العبد، وشعبة من شعب إيمانه، وخصلة من خصال دينه، ويتحقق هذا الشكر بأمور كثيرة، نذكر منها:

١ ـ اعتقاد أن الله عز وجل أنعم فأكثر، وأعطى فأجزل.

٢ ـ الثناء على الله تعالى، وحمده على ما تفضل به.

٣ ـ الإشفاق من زوال نعم الله تعالى عنه.

٤ ـ أن ينفق مما أتاه الله تعالى، ويواسي منه أهل الحاجة، ولا يدع باباً من أبواب الخير إلا ساهم فيه.

٥ ـ أن لا يفخر بما أتاه الله تعالى على غيره، فإن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور.

٦ ـ أن لا يكتم نِعَم الله عليه.

٧ ـ أن يستعمل بدنه، وجاهه، وماله فيما يرضي الله تعالى عنه.

إن هذا الشكر من العبد إنما هو من باب مقابلة الإحسان بالإحسان.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص: ٧٧].

وقال: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وعلى الإنسان أن يعلم أن هذه النِّعَم إنما تدوم وتنمو بذكرها الدائم، وشكرها المستمر، وإلا كانت عرضة للذهاب والزوال، وزال عنها نعمة الانتفاع والهناءة بها.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧].

وقال: ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

وقال بعضهم:

إذا كنْتَ في نعمة فارْعَها ... فإنَّ المعاصي تُزيلُ النِّعم

وقد أمرنا ربنا تبارك وتعالى في أكثر من آية في كتابه الكريم أن نشكره، ونظل دائماً على ذكر مستمر لفضله ونعمه، حتى نبقى أهلاً لها، وتبقى نعمه جارية علينا.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى ليَرْضَى عن العَبْدِ يأكلُ الأَكْلَةَ فيحمَدُهُ عليها، ويَشْرَبُ الشَّرْبَةَ فيحمدُهُ عليها» [رواه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر].

إن أخطر ما يقوم به العبد، أن يستعمل نعم الله في حربه، ويستعين بإحسان الله على معصيته، فيضع الكفر محل الشكر، والنُّكْرَ محل الذكر، ولا يضرُّ بذلك إلا نفسه.

قال الله تعالى: ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨ ـ ٣٠].

اللهمّ أعنّا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا رب، ولا تجعلنا من الغافلين.

* * *

الشعبة الرابعة والثلاثون

حفظ اللسان عمًّا لا يُحتاج إليه

إن الله عزّ وجل خلق اللسان في الإنسان، وجعله ترجمان جنانه، ومن أعظم أعضائه التي بها قضاء حاجاته، وبيان مراداته، فلا ينبغي أن يشغِله في الترهات، ويثقِله في الممقوتات، وهو نعمة يجب شكرها، والله تعالى سوف يسأل عنها.

قال الله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة قٓ: ١٨].

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: اعلم أنه ينبغي لكل مكلَّف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، إلا كلاماً تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الإمساكُ عنه، لأنه قد ينجرّ الكلام المباح إلى حرام، أو مكروه، بل هذا كثير، أو غالب في العادة، والسلامة لا يعدلها شيء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«من كان يؤمنُ بالله واليَوْمِ الآخر فلْيقُلْ خَيْراً، أو ليصْمُتْ» [رواه البخاري (٦٠١٨) في الأدب؛ ومسلم (٤٨) في الإيمان].

فهذا الحديث نصّ صريح في أنه لا ينبغي للعبد أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيراً.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله، ما النَّجاة؟

قال: «أمْسِكْ عليْكَ لسانَكَ، وليَسعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتكَ» [رواه الترمذي (٢٤٠٨) في الزهد].

وعن سفيانَ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، حدِّثْني بأمْرٍ أعْتصمُ به، قال: «قُلْ ربِّيَ الله، ثم اسْتقِمْ». قلت: يا رسولَ الله، ما أخْوَفُ ما تخافُ عليَّ؟ فأخذ بلسانِ نفسهِ، ثم قال: «هذا» [رواه الترمذي (٢٤١٢) في الزهد].

وعن ابن عمر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكْثِرُوا الكلامَ بغيْرِ ذكر الله، فإنَّ كَثْرَةَ الكلامِ بغيْرِ ذِكْرِ الله تعالى قَسْوَةٌ للقلْبِ، وإنَّ أبعد النَّاسِ من الله القلْبُ القاسي» [رواه الترمذي (٢٤١٣) في الزهد].

والحقيقة أن كثرة الكلام مزلَّة خطرة، لما قد يترتب عليه أحياناً من المخاطر، والعواقب التي قد لا تكون محسوبة للمتكلم، ولا يصونه من هذه المزالق إلا الحيطةُ، وقلةُ الكلام.

لهذا قال بعضهم:

احفظْ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ ... لا يَلْدَغنَّكَ إنَّهُ ثُعْبانُ
كم في المقابر من قتيلِ لسانهِ ... كانت تهابُ لقاءَهُ الشَّجْعانُ

عن بلال بن الحارث المزني رضي الله عنه، أن رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوانِ الله تعالى، ما كان يظنُّ أن تبلُغَ ما بلغتْ، يكْتبُ الله له بها رضوانه إلى يوم القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليتكلَّمُ بالكلمة من سخَطِ الله ما كان يظنُّ أن تبلغ ما بلغت، يكتبُ الله له بها سخطَه إلى يوم القيامة» [رواه الترمذي (٢٣٢٠) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يتبيَّنُ فيها يزلُّ بها إلى النَّار أبعد ممَّا بين المشرق والمغرب» [رواه البخاري (٦٤٧٨) في الرقاق؛ ومسلم (٢٩٨٨) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقاهُ الله شرَّ

ما بَيْنَ لحْيَيْهِ، وشرَّ ما بَيْنَ رجليْهِ دخل الجنَّةَ». [رواه الترمذي (٢٤١٠) في الزهد].

وقال رسولُ الله ﷺ: «من حُسْنِ إسلامِ المرْءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنيهِ» [رواه الترمذي (٢٣١٩)].

لهذه النصوص الكثيرة، والأدلة الصحيحة الصريحة التي تحذر من كثرة اللفظ، والإفراط في اللغو وفضول الكلام، أمسك السلف الصالح عن كثرة الكلام إلاَّ في الخير، والذكر، والعلم، والتعلم، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ورويت عنهم في الصمت، وقلَّة الكلام أقوال سارت في الناس سير الأمثال. ورعاها ووعاها طلاب العلم والعقلاء من الناس.

روي أن قُسَّ بن ساعدة، وأكثم بن صيفي اجتمعا فقال أحدُهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تُحْصَى، ووجدت خَصلة إن استعملها سترت العيوب كلها. قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.

وروي عن الفضل بن عياض قال: من عدَّ كلامه من عمله قلَّ كلامه إلاَّ فيما يعنيه.

وقال الإمام الشافعي لصاحبه الربيع: يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك، فإنك إذا تكلمت بالكلمة ملكتك، ولم تملكها.

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: ما من شيء أحقُّ بطول السجن من اللسان.

وقال أبو القاسم القشيري: الصمتُ سلامة، والسكوت في وقته صفة الرجال، كما أن النطق في موضعه من أشرف الخصال.

ولهذا امتدح الله عزّ وجل أولئك الذين يمسكون عن فضول الكلام، ويتصوَّنون عن الخوض في اللغو، ويكفُّون عما لا يعنيهم من الثرثرة، والتَّشدق بالكلام.

قال الله عز وجل: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

وقد جاء النهي صريحاً عن مجالسة العابثين، الذين يخوضون في الباطل، ويرتعون في الإثم.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وقال: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

وإن مما ينبغي أن يتجنَّبه المسلم، ويصون نفسه، ومجلسه عنه ويطهر لسانه منه الكذب في الحديث، فإنَّه ينافي الإيمان، ويخدش كرامة الرجال، وإنه من أبشع الشرور والآثام.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقال رسول الله ﷺ: «وإنَّ الكذِبَ يَهْدي إلى الفُجُورِ، وإن الفجور يَهْدِي إلى النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ ليكذبُ حتَّى يكتبَ عند الله كذاباً» [رواه البخاري (٦٠٩٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٠٧) في البر].

وإن من أشنع الكذب، وأبشعه ما كان على الله تعالى ورسوله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٣٢].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٦ ـ ١١٧].

وقال رسول الله ﷺ: «من كذبَ عليَّ مُتعمِّداً فلْيتبوَّأ مَقْعدَهُ من النَّارِ» [رواه البخاري (١٠٧) في العلم].

وقال: «من قال عليَّ ما لم أَقُلْ فلْيتبوَّأ مَقْعدَهُ من النَّارِ» [رواه البخاري (١٠٩) في العلم].

ومن الكذب الشنيع الذي تضيع فيه الحقوق، ويُأكل فيه الحرام، وعدل بجريمته جريمة الشرك بالله تعالى شهادة الزُّور.

قال رسول الله ﷺ: «عدلت شهادَةُ الزُّورِ إشراكاً بالله». ثم تلا: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[الحج: ٣٠] [رواه الترمذي (٢٣٠٠)؛ وأبو داود (٣٥٩٩)].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكْبَرِ الكبائر»؟ ثلاثاً. قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين». وكان مُتَّكئاً، فجلس، فقال: «ألا وقولُ الزُّورِ، وشهادةُ الزُّورِ». فما زال يكرِّرُها، حتى قُلْنا: ليْتهُ سكت. [رواه البخاري (٥٩٧٦) في الأدب؛ ومسلم (٨٧) في الإيمان].

وإذا أكدَّ الكذب باليمين الغموس، فقد زاد ضغثاً على إبَّالة، وازداد سوءاً إلى سوء.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من حلف على مال امْرِئٍ مُسلمٍ بغيْرِ حقِّهِ لقيَ الله، وهُوَ عليه غَضْبانُ» [رواه البخاري (٢٣٥٦) في المساقاة؛ ومسلم (١٣٨) في الإيمان].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من اقْتَطعَ حقَّ امرِئ مسلم بيمينِهِ فقد أوجب الله له النَّارَ، وحرَّم عليه الجنَّةَ». فقال رجل: وإن كان شيئاً يسيراً، يا رسول الله؟ فقال: «وإن كان قَضيباً من أراكٍ» [رواه مسلم (١٣٧) في الإيمان].

هذا، ويأتي في درجة الكذب إثماً، وبغضاً الغيبة، والنميمة.

والغيبة: ذكر الناس في غَيبتهم بما يكرهون من النقائص.

والنميمة: نقل الحديث بين الناس بغرض الإفساد بينهم.

قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وقال: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٢].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عُرِج بي مررْتُ بقوْمٍ لهم أظفارٌ من نُحاسٍ يَخْمِشُونَ وجُوهَهُمْ وصُدورَهم، فقلت: من هؤلاءِ، يا جبريلُ؟ قال: هؤلاءِ الذين يأكلُونَ لحومَ النَّاسِ، ويقعون في أعراضهم» [رواه أبو داود (٤٨٧٨) في الأدب].

والخلاصة، أن التزام الصدق في القول، وكف اللسان عمَّا لا يليق من الكلام واجب على المرء، وهو شعبة من شُعب الإيمان، وحلية يتحلَّى بها المؤمن بين العباد.

قال الله عز وجل على لسان سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الصِّدْقَ يَهْدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهْدي إلى الجنَّةِ، وإنَّ الرَّجُلَ ليصْدُقُ حتى يُكتبَ عِنْدَ الله صِدِّيقاً» [رواه البخاري (٦٠٩٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٠٧) في البر].

* * *

الشعبة الخامسة والثلاثون

الأمانات وما يجب فيها من أدائها إلى أهلها

الأمانات: جمع أمانة، وهي الحقوق والتكاليف التي فرضها الله تعالى على عباده، وأوجب عليهم رعايتها، وأداءها، والقيام بحقها، سواء ما كان منها متعلقاً بالله عز وجل من نحو عبادته، وذكره، وشكره، والقيام بحقوق ربوبيته، أو ما كان متعلقاً بالناس من جهة نصحهم، وأداء حقوقهم، وحفظ أموالهم، وودائعهم، وأسرارهم، وحرماتهم. ولِعظَمِ الأمانة أشفقت السماوات والأرض من حملها، واستعْفَتْ من وجوب التكليف بها.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ولتنوع الأمانات، وتعددها، وكثرة أفرادها، جمعها الله تعالى، وأوجب رعايتها، وحذر من خيانتها، والتقصير بها.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

فأداء الأمانات إلى أهلها واجبٌ من واجبات الإسلام، وفرض من فرائض الدين، وشعبة من شُعب الإيمان، وثمرة من ثمرات الولاء لله تعالى، والإيمان به.

والخيانة لهذه الأمانات تعني إضاعتها، والتفريط بها، والإخلال برعايتها، وهذا كله من المحرمات التي لا تليق بإيمان المؤمن، ولا تستقيم وإسلامه.

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدِّ الأمانَةَ إلى من ائْتمنَكَ، ولا تخُنْ من خَانَكَ» [رواه أبو داود (٣٥٣٥) في البيوع؛ والترمذي (١٢٦٤) في البيوع].

وفي قوله ﷺ: «ولا تخُنْ من خانكَ» إشارة إلى مزايا هذا الدين، وبيان لطائفه، وهو أن الإنسان ينبغي عليه أن لا يقابل الإساءة بمثلها، فيوسع دائرتها، بل عليه أن يعفو، ويصفح، ويتناسى إساءة من أساء إليه، وهذا من كرم الأخلاق، وصفات الأكرمين.

وأداء الأمانات لون من ألوان النصح للمسلمين، والتعاطف معهم، والإحسان إليهم، وتجنب غشهم، والتقصير في حقوقهم.

عن تميم الداريّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الدين النَّصيحةُ». قُلْنا: لمنْ يا رسولَ الله؟ قال: «لله، ولكتابِهِ، ولرسولِهِ، ولأئمةِ المسلمين، وعامتهم» [رواه مسلم (٥٥) في الإيمان].

فالنصيحة في الدين واجبة، وهي من أفراد الأمانة، وتكون لله تعالى، وذلك بصحة الإيمان به، والإخلاص في عبادته، وتكون لكتابه بالتصديق به، والتزام تلاوته، والعمل بأحكامه، وعدم تحريفه، وتكون لرسوله ﷺ بالتصديق برسالته، وطاعة أمره والتمسك بسنته وشريعته، وتكون لحكام المسلمين بإعانتهم على الحق وطاعتهم في غير معصية، وتقويم اعوجاجهم بالمعروف، وعدم الخروج عليهم إلا إذا ظهر ما يدل على كفرهم، وتكون لأفراد المسلمين، وجماعاتهم بإرشادهم إلى ما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاة، والنَّصْحِ لكلِّ مسلم. [رواه البخاري (٥٧) في الإيمان؛ ومسلم (٥٦) في الإيمان].

وقال رسول الله ﷺ: «من غَشَّنا، فليس مِنَّا» [رواه مسلم (١٠١) في الإيمان].

إنَّ تضييع الأمانة، والاستخفاف بها من أخلاق المنافقين، ضعفاء المروءة، فاسدي الدِّين.

قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه فهو منافق، وإن صام، وصلَّى، وزعم أنَّهُ مسلمٌ: إذا حدَّثَ كذب، وإذا وعد أخْلَفَ، وإذا ائتُمنَ خان» [رواه أحمد: ٢/ ٥٣٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذبَ، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمنَ خان، وإن صام، وصلَّى، وزعم أنَّه مسلمٌ» [رواه مسلم (٥٩) و(١٠٩) و(١١٠) في الإيمان].

وعن ابن مسعود، وابن عمر، وأنسٍ رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «لكلِّ غادرٍ لواءٌ يَوْمَ القيامة، يقال: هذه غَدْرة فُلانٍ» [رواه مسلم (١٧٣٥) في الجهاد].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «لكلِّ غادرٍ لواءٌ عند أسْتِهِ يَوْمَ القيامة، يرفُعُ له بقَدْرِ غَدْره، ألا، ولا غادِرَ أعْظَمُ غَدْراً من أمير عامَّةٍ» [رواه مسلم (١٧٣٨) في الجهاد].

إن أداء الأمانة، والقيام بحقها واجب مؤكَّد، وشعبة من أفضل شُعب الإيمان.

فكل أمانة وجبت لله تعالى، فعلى المسلم القيام بحقها، وبذل الجهد في أدائها على خير وجوهها، فيؤمن بالله تعالى حق الإيمان، ويعتقد أنه عز وجل متصف بكل كمال، ومنزَّه عن كل نقص، ويقوم بحق العبودية له من صلاة، وصيام، وطاعة، وتطبيق لشرعه، ونشر لدينه، مبتعداً عن مخالفته، متجنباً كل ما يسخطه، فإن هذا كله من حق الأمانة مع الله عز وجل.

وكذلك الأمانة مع العباد، فإنه تجب رعايتها، والقيام بحقها، وأداؤها

لأصحابها دُون إخلال أو تفريط، فإذا حمل علماً من علم الدين فسئل عنه، وجب بذله، وحرم كتمانه. وإن كان لأحد حق عنده حلّ أداؤه، أو طولب برده، لم يؤخره، وإن وَلِي أمراً من أمور المسلمين لم يضيِّعهم، ولم يغشهم، ولم يستعمل عليهم شرار الناس، وأراذل العمال، أو يحتجب عنهم، أو يشدَّ وطأته عليهم، أو يبسط يديه بأنواع الظلم لهم.

وينبغي على كل مسلم أن ينصح لأخيه المسلم، ولا يغشه، وخصوصاً إن استشاره، وأحبَّ أن يستبصر برأيه، ويسترشد بخبرته قال رسول الله ﷺ: «المستشارُ مُؤتمنٌ» [رواه أبو داود (٥١١٨)؛ والترمذي (٢٨٢٣)].

وإذا استودع مسلم مسلماً سرّاً كان عليه أن يحفظه، ولا يحلُّ له أن يخونه، ويفشي سرَّه، ولا سيما إذا كان يتضرَّر بإفشائه. وإذا استودعه مالاً كان عليه أن يحفظه حيث يحفظ ماله، وإذا طلبه ردَّه إليه حالاً غير متلكِّئ، ولا متأخر. وإذا باعه، أو اشترى منه نصحه، ولم يغشه، ولم يخف عيباً دُونه، أو يبخسه حقه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ مرَّ على صبرة طعام، فأدخل يَدَهُ فيها، فنالتْ أصابعُهُ بَلَلاً، فقال: «ما هذا يا صاحِبَ الطَّعام»؟ قال: أصابَتْهُ السَّماءُ يا رسولَ الله، فقال: «ألا جعلْتَهُ فَوْقَ الطعام، حتَّى يراهُ النَّاسُ، من غشنا فليس منَّا» [رواه أحمد: ٣/ ٤٦٦/ ٤/ ٤٥؛ والبغوي ٨/ ١٦٧ في (شرح السنة)].

من هنا، ينبغي أن يعلم الباعة ما في الغش من خطر، وما في إخفاء العيوب في السلع من حرمة.

وكذلك ينبغي أن يعلم العمال والموظفون، كم في إعنات الناس، والتأخر عن قضاء حاجاتهم ومصالحهم من حرمة وخيانة. وإن من أعظم الأمانات إحسان الزوج إلى زوجته، وطاعة الزوجة أمر زوجها بالمعروف.

قال الله تعالى في معاملة النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩].

وقال: ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

وقال: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال رسول الله ﷺ في خطبة حجَّة الوداع: «ألا واسْتَوصُوا بالنساء خيراً» [رواه الترمذي (١١٦٣) في النكاح].

وقال: «وخيارُكم خيارُكم لنسائهم» [رواه الترمذي (١١٦٢) في النكاح].

وقال ﷺ: «لو كنتُ آمراً أحداً أن يسجُدَ لأحد لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها» [رواه الترمذي (١١٥٩) في الرضاع].

وقال: «أيّما امرأةٍ ماتتْ، وزَوْجُها عنها راضٍ دخلت الجنَّةَ» [رواه الترمذي (١١٦١) في الرضاع].

وإن من خيانة الأمانة بين الزوجين أن يفشيَ كلٌّ واحد منهما أسرار صاحبه، ويذكر أمام الآخرين ما يكون بينه وبينه من الأسرار، والأمور التي ينبغي أن لا يطلع عليها الناس.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من شرِّ النَّاس عند الله منزلةً يَوْمَ القيامة، الرجلُ يُفضي إلى امرأتِهِ، وتُفضي إليه، ثم يَنْشرُ سرَّها» [رواه مسلم (١٤٣٧) في النكاح].

وقد عظَّم النبي ﷺ أمر الأمانة، وصوَّر عواقب تضييعها، والاستخفاف بها أبلغ تصوير.

عن حذيفة بن اليمانِ رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحَدَهُما، وأنا أنتظرُ الآخَرَ. حدَّثنا أن الأمانةَ نزلتْ في جَذْرِ قُلوبِ الرِّجال، ثُمَّ نزل القُرْآنُ، فَعلِمُوا من القُرآنِ، وعَلِمُوا من السُّنَّةِ، ثم حدَّثنا عن رَفْع الأمانةِ، فقال: «ينامُ الرَّجلُ النَّوْمةَ، فتُقْبضُ الأمانةُ من قلبهِ، فيظلُّ أثرُها مِثْلَ الوَكْتِ، ثم يَنامُ النَّوْمةَ، فَتُقْبضُ الأمانةُ من قَلْبِهِ، فيظلُّ أثرُها مِثْلَ أثَرِ المجْلِ: كجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ على رِجْلِكَ فَنَفِطَ، فَتَراهُ مُنْتبِراً، وليس فيه شيْءٌ». ثم أخذ حَصَاةً فدحْرَجها على رِجْلِهِ، «فيُصْبحُ النَّاسُ يتبايعُونَ، فلا يكادُ أحَدٌ يُؤدِّي الأمانة، حتى يقال: إنَّ في بني فُلانٍ رجُلاً أميناً، حتى يقال للرجل: ما أجْلَدَهُ، ما أظرفَهُ، ما أعقلَهُ، وما في

قلبه مِثْقالُ حبَّةٍ من خَرْدَلٍ من إيمانٍ» ولقد أتى عليَّ زمانٌ، وما أبالي أيّكم بايعتُ، لئن كان مسلماً ليَرُدَّنَّهُ عليَّ دينه، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنَّه عليّ ساعيه. وأما اليوم، فما كنتُ أبايعُ منكم إلاَّ فلاناً وفلاناً. [رواه البخاري (٦٤٩٧) في الرقاق؛ ومسلم (١٤٣) في الإيمان].

جذر قلوب الرجال: أصلها.

الوكت: الأثر اليسير.

المجل: تنفط في اليد ونحوها من أثر عمل وغيره.

منتبراً: مرتفعاً.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: لا تنظروا إلى صلاة أحد، ولا إلى صيامه، وانظروا إلى صدق حديثه إذا حدث، وإلى أمانته إذا ائتمن.

وهذا مثل قول النبي ﷺ: «لا إيمانَ لمن لا أمانَـةَ له» [رواه أحمد: ٣/ ١٣٥].

نسـأل الله العفو، والعافية، والسلامة من كل إثم وخيانة.

* * *

الشعبة السادسة والثلاثون

تحريم قتل النفوس والجنايات عليها

إن المحافظة على النفس البشرية، وكفَّ اليد عن أبدان الناس شعبة من أجل شعب الإيمان، وواجب شرعي، يخاطب به كل فرد، وكل مجتمع، وإن ذلك من معالم الدين الحنيف التي لا يجهلها أحد، مهما كان حظه من هذا الدين قليلاً، وإن قتل النفس بغير حقٍّ، وإيذاء البدن بغير مُبرِّرٍ شرعي جريمة كبيرة، وعمل محرم، عرفت حرمته من الدين بالضرورة، فمن استحلَّ ذلك، كان خارجاً من الملَّة، والعياذ بالله تعالى.

والنصوص التي تنهي عن القتل، والجرح، وأي نوع من أنواع الأذى كثيرة جداً في الكتاب الكريم، والسنَّة الشريفة.

قال الله عز وجل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

حسبُك هذا تنفيراً وتحذيراً من هذا الإجرام الخطير. لعنةُ الله، وغضبُه، وعذابُه في خلود في نار لا يموت فيها ولا يحيى.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لزوالُ الدُّنْيا أهْوَنُ على الله من قتْلِ مُؤمنٍ بغيرِ حَقٍّ» [رواه ابن ماجه (٢٦١٩) في الديات].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لنْ يَزالَ المؤمنُ في فُسْحةٍ من دينِهِ ما لم يُصِبْ دماً حراماً» [رواه البخاري (٦٨٦٢) في الديات].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «إن من ورْطَاتِ الأمور التي لا مخرجَ لمن أوْقَعَ نفسَهُ فيها سَفْكَ الدَّمِ الحرامِ بغيْرِ حلِّهِ» [رواه البخاري (٦٨٨٣) في الديات].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «سِبابُ المسلم فُسُوقٌ، وقتالُهُ كُفْرٌ» [رواه البخاري (٦٠٤٤) في الأدب؛ ومسلم (٦٤) في الإيمان].

وفي هذه الأدلة منتهى التحذير، والتنفير من هذه الجريمة المروعة، وهذه النصوص، وإن كانت محمولة على المستحل لهذه الموبقة، فإنها تُلوِّح بعصا غليظة في وجوه من لا يتورَّعُون عن القتل، ولو بغير استحلال له، وإن الله عز وجل سوف يقدمهم أمام قضائه العادل يوم القيامة بين يدي كل الناس.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أوَّلُ ما يُقْضى بَيْنَ النَّاس يَوْمَ القيامة في الدِّماء» [رواه البخاري (٦٨٦٤) في الديات؛ ومسلم (١٦٧٨) في القسامة].

وللمحافظة على النفس، ولزوم كف الأذى عنها شرع الإسلام القصاص، لأن بعض المجرمين قد لا يردعهم عن الجريمة إلا خوفهم على أنفسهم، فإذا تبين للمجرم، وتيقن أن سهمه الذي يوجهه إلى أخيه سيرتد إليه، ويصيب نحره، فيزهق روحه، أمسك يده عن القتل خوفاً منه على نفسه.

والقصاص في الشرع: أن يؤخذ الجاني بمثل ما جنى: النفس بالنفس، والجرح بالجرح.

قال الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

وقال تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقال: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ [الإسراء: ٣٣].

أي إن على الدولة أن تنصر أولياء المقتول ليقتصُّوا من القاتل، وعلى هؤلاء الأولياء أن لا يأخذوا إلا مثل حقهم، فلا يقتلوا إلا من ثبت عليه القصاص.

ولقد قصَّ القرآن الكريم على الناس قصة قابيل وهابيل، ولدي آدم عليه السلام، التي تشير إلى أثر الوازع الرحماني والدافع الشيطاني حول حرمة النفس، أو الاستخفاف بها. فبينما تجد أحد الأخوين يستفظع جريمة القتل ويستبشعها، ويستشعر ضرورة كفِّ اليد عنها، ولو على حساب بقائه، واستبقاء نفسه، تجد الآخر ـ بنوازعه ودوافعه الشيطانية ـ يستسهلُ هذه الجريمة، ويستسيغ اقترافها، ولو في حقِّ أخيه، من أمِّه وأبيه.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

وقال رسولُ الله ﷺ، وهو يعلِّقُ على هذه الجريمة المنكرة: «لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْماً إلاَّ كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ من دَمِها، لأنَّه أوَّلُ من سَنَّ القَتْلَ» [رواه البخاري (٦٨٦٧) في الديات؛ ومسلم (١٦٧٧) في القسامة].

وقال ﷺ: «ومن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً كان عليه وزرُها، ووزْرُ من عمل بها من بعده من غير أن يَنْقُصَ من أوزارهم شيْءٌ» [رواه مسلم (١٠١٧) في الزكاة].

ولا يجوز قتل أحد، وبسط اليد إليه بالأذى بمجرد الشُّبه والظنون في استحقاقه ذلك.

ولهذا أنكر النبي ﷺ على أسامة بن زيد رضي الله عنهما قتله الرجل بعد أن نطق بكلمة التوحيد.

عن أسامة بن زيد قال: بعثنا رسولُ الله ﷺ إلى الحُرَقَةِ من جُهيْنة، قال: فصبَّحْنا القَوْمَ، فهزمناهم. قال: ولحقتُ أنا ورجلٌ من الأنصار رجُلاً منهم، قال: فلمَّا غَشيناهُ قال: لا إلـهَ إلاَّ الله. قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ، فطعنْتُهُ برُمْحي حتَّى قتلْتُهُ، قال: فلمَّا قدِمْنا بلغ ذلكَ النبيَّ ﷺ، قال: فقال لي: «يا أسامةُ، أقتلْتَهُ بَعْدَ ما قال: لا إلـهَ إلاَّ الله»؟. قال: قلتُ: يا رسولَ الله، إنَّه إنَّما كان مُتعَوِّذاً، قال: «قتلته بعد ما قال: لا إلـهَ إلاَّ الله». قال: فما زال يكرِّرُها عليَّ، حتَّى تمنَّيْتُ أنِّي لم أكُنْ أسلمتُ قبلَ ذلكَ اليْومِ. [رواه البخاري (٦٨٧٢) في الديات].

وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ٩٤].

وقال رسولُ الله ﷺ مُحذِّراً أمته من العودة إلى الجاهلية، واستحلال الدِّماء، وقتل الأبرياء: «لا ترجعُوا بَعْدي كُفَّاراً يَضْرِبُ بعضُكم رقابَ بعْضٍ» [رواه البخاري (١٢١) في العلم؛ ومسلم (٦٥) في الإيمان].

وقال: «إنَّ أعراضكم، ودماءكُم، وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرْمَةِ يومكم هذا، في شَهْرِكم هذا، في بلدِكُم هذا»، ثم قال: «ألا، هَلْ بلغْتُ»؟ [رواه البخاري (١٧٣٩) في الحج؛ ومسلم (١٦٧٩) في القسامة].

وقال ﷺ: «اجْتنبُوا السَّبْعَ الموبقَاتِ»، وذكر منها: «قَتْلَ النَّفْسِ» [رواه البخاري (٢٧٦٦) في الوصايا؛ ومسلم (٨٩) في الإيمان].

أما القتل بالحق فأمرٌ مشروع، ليس حبّاً في القتل، وإنما لحماية الأنفس، والأديان، والأعراض، والوقاية لها من الاستخفاف بها، والتعدي عليها.

فقتل الحربي مباح، بل عبادة وقُرْبة، لأنه يستحل دماء المسلمين، ويسعى

في فتنهم في دينهم، وهتك أعراضهم، وسلب أموالهم.

قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧].

وقال تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وأما المرتد في استخفافه في الدين فشرٌّ من الكافر، فإن لم يتب، فقتله واجب حمايةً للأمة من بدعته الشنيعة، قال رسول الله ﷺ: «من بدَّلَ دينَهُ فاقْتُلوهُ» [رواه البخاري (٦٩٢٢) في استتابة المرتدين].

والثيّب الزاني يقتل رجماً لعدوانه على الأعراض، وتدنيسه لشرف المسلمين.

وفي نهاية المطاف يأتي القاتل، فإنه يقتل قصاصاً، إذا لم يتداركه عفو ولي الدم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ دمُ امْرِئ مسلمٍ يشْهَدُ أن لا إلـهَ إلاَّ الله، وأنِّي رسولُ الله إلاَّ بإحدى ثلاثٍ: الثَّيِّبُ الزَّاني، والنَّفسُ بالنَّفسِ، والتَّاركُ لدينه المفارق للجماعة» [رواه البخاري (٦٨٧٨) في الديات؛ ومسلم (١٦٧٦) في القسامة].

الثيّب: المتزوج.

وكما لا يحل قتل النفس بغير ما ذكر، فكذلك لا يحل قطع طرف،

ولا خدش جلد، ولا نتف شعر، ولا كسر عظم، ولا لطم وجه، ولا ضربٌ بيد أو بسوط بغير حق، وفي كل هذا مسؤولية في الدنيا والآخرة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «صِنْفانِ من أهْلِ النَّار لم أرهُما: قَوْمٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقر يضربُونَ بها النَّاسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عاريات، مُميلاتٌ مائلات، رُؤوسُهنَّ كأسْنمةِ البخت المائلةِ، لا يَدْخلْنَ الجنَّةَ، ولا يَجدْنَ ريحها، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة كذا، وكذا» [رواه مسلم (٢١٢٨) في اللباس].

وكذلك لا يحل حبس أحد بغير حق، لما فيه من غم النفس، وإدخال الأذى والضيق عليها، ومثل الحبس النفي، والإبعاد عن الوطن، فإنه لا يحل أيضاً بغير حق، لأنه مثل الحبس في ضيقه، وأذاه، بل أشدُّ.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله يعذِّبُ الذين يعذِّبُونَ النَّاسَ في الدُّنيا» [رواه مسلم (٢٦١٣) في البر].

وسدّاً لمنافذ الجناية، والتورط في الجريمة، حرّم الإسلام الإشارة إلى الناس بالسلاح.

قال رسول الله ﷺ: «من أشار إلى أخيه بحديدةٍ، فإن الملائكة تلعنُه حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه» [رواه مسلم (٢٦١٦) في البر].

وبالإضافة إلى قتل المسلم، وأذاه، فإن الدين حرم أيضاً قتل الذمي، وأذاه بغير حق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ألا من قتل نفساً مُعاهَدةً لها ذمَّةُ الله، وذمَّةُ رسوله، فقد أخفر ذمَّة الله، ولا ترحْ رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين خريفاً» [رواه الترمذي (١٤٠٣) في الديات].

إن العالم الذي يخوض في الدماء في مثل هذه الأيام بغير حذر ولا وجل كم يقف بعيداً عن هدي الإسلام، ورحمته بالإنسانية؟!.

* * *

الشعبة السابعة والثلاثون

تحريم الفروج وما يجب فيها من التعفف

البعد عن الزنى واللواط، واعتقاد حرمة ذلك واجب، وهو من صلب الإيمان، ومن شُعبه العظيمة، ولا يستبيح ذلك إلا فاسق خارج عن ملة المسلمين، لأن حرمة الزنى واللواط، ووجوب التعفف عنهما من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، ولا يجهلها أحد من عوام المسلمين، فضلاً عن المثقفين والمتعلمين.

ولا يجهل أحد ما يجرُّه الزنى من المضار، والأخطار على الأمة، والأسرة، والفرد، والمجتمع، وما يخلِّفه من الاختلاط في الأحساب والأنساب، والهتك للأعراض، وما يستجرُّه من الأوبئة والأمراض، وما مرض الإيدز الذي ظهر وفشا وانتشر إلا وليد هذه الفاحشة المنكرة، والجريمة الخطرة.

والمحافظة على الأعراض والفروج إحدى الضروريات التي سعى الدين للحفاظ عليها، وفرض العقوبات التي تصونها وتحميها.

قال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢].

إن الزنى - والعياذ بالله تعالى - ينافي الإيمان، ويضادّ التديُّن، لذلك قال رسول الله ﷺ: «لا يَزْني الزَّاني حين يَزْني، وهو مؤمنٌ» [رواه البخاري (٥٥٧٨) في الأشربة؛ ومسلم (٥٧) في الإيمان].

وقال ﷺ: «مَنْ زنى، أو شرب الخمر نزع الله منه الإيمانَ، كما يَخْلعُ الإنسانُ القميصَ من رأسه» [رواه الحاكم: ١/ ٢٢، وصححه، ووافقه الذهبي].

وقال: «إذا زنى العبدُ خرج منه الإيمانُ، فكان كالظُّلةِ، فإذا انقلع منها رجع إليه الإيمانُ» [رواه أبو داود (٤٦٩٠) في السُّنَّة].

قال العلماء: إذا كان الزنى ينافي الإيمان، فإن التعفُّفَ عنه يُعدُّ إيماناً.

والله سبحانه وتعالى أمر المؤمنين والمؤمنات بالتَّعفف عن الفواحش، وامتدح المتعففين عن مثل هذه المنكرات، فقال عزَّ من قائل: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ۝٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وحتى تُضمن العفَّةُ، وتُصان الأعراض، وتسلم الأمة من غوائل هذه الفواحش المدمرة أمر الدينُ بالزواج، لأنه أغضُّ للبصر، وأحْصنُ للفرج، وأقطع للتطلع إلى الأعراض.

قال رسول الله ﷺ: «يا مَعْشَرَ الشَّبابِ من استطاع منكم الباءَةَ فلْيتزوَّجْ، فإنَّه أغضُّ للبصرِ، وأحْصنُ للفرْجِ، ومن لم يَسْتطعْ فعليْهِ بالصَّوْمِ، فإنه لهُ وجَاءٌ» [رواه البخاري (٥٠٦٦) في النكاح؛ ومسلم (١٤٠٠) في النكاح].

الباءة: القدرة على الجماع بتوفر القدرة على مؤن الزواج.

وجاء: قاطع لشهوة الجماع.

وقال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ

﴿فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢ـ٣٣].

وقال رسول الله ﷺ: «الدُّنْيا مَتَاعٌ، وخَيْرُ متاع الدُّنْيا المرأةُ الصالحة» [رواه مسلم (١٤٦٧) في الرضاع].

وقال: «إذا جاءكم من تَرْضَونَ دينَهُ وخُلُقَهُ فأنْكحُوهُ، إلاَّ تَفْعلُوا تكُنْ فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ» [رواه الترمذي (١٠٨٥) في النكاح].

ومن أجل هذا رغب الدين في تيسير أمور الزواج، فكره المغالاة في المهور، وبين أن أبركها أيسرها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن المغالاة في المهور.

عن أبي العوجاء قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «لا تَغْلُوا صُدُقَ النِّساءِ، فإنَّها لو كانت مَكْرُمةً في الدُّنْيا، أو تَقْوى في الآخرة لكان أولاكم بها النبيُّ ﷺ، ما أصدق رسولُ الله ﷺ امرأةً من نسائه، ولا أُصْدِقَتِ امرأةٌ من بناته أكْثَرَ من ثِنْتي عَشْرَة أوقِيَّةً» [رواه الترمذي (١١١٤) في النكاح].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ أعظمَ النِّكاح بَرَكَةً أيْسَرُهُ مؤُنَةً» [رواه أحمد: ٦/ ٨٢].

وقال: «خَيْرُ النِّكاحِ أيْسَرُهُ» [رواه أبو داود (٢١١٧) في النكاح].

ومن أجل المحافظة على الأعراض، والحيلولة دون وقوع الفواحش أمر الدين أيضاً بعدم الاختلاط بين الرجال والنساء.

قال بعضهم:

وخلطةُ الرِّجالِ بالنِّساءِ   في شَرْعِنا من أقبحِ الخِصَالِ

وحرَّم خلوة الرجل بالمرأة من غير زوج، ولا محرم. فالاختلاط، والخلوة، وخروج النساء متزينات متبرجات من الأسباب التي تثير الرغبة، وتحرك الشهوة وتدعو إلى التطلع إلى الأعراض.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما تركتُ بعدي فِتْنةً هي أضَرُّ على الرِّجال من النِّساء» [رواه البخاري (٥٠٩٦) في النكاح؛ ومسلم (٢٧٤٠) في (الرقاق)].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ الله تعالى مُسْتخلفُكم فيها، فيَنْظرُ كيف تَعْملُونَ، فاتَّقُوا الله، واتَّقُوا النِّساءَ، فإنَّ أوَّلَ فتنة بني إسرائيلَ كانت في النساء» [رواه مسلم (٢٧٤٢)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يخلُوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا ومَعَها ذو مَحْرَمٍ» [رواه البخاري (١٨٦٢) في الحج؛ ومسلم (١٣٤١) في الحج].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم، والدُّخُولَ على النساء». فقال رجل من الأنصار: أفَرَأيْتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ الموْتُ» [رواه البخاري (٥٢٣٢) في النكاح؛ ومسلم (٢١٧٢) في السلام].

الحمو: هو أخو الزوج.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال رسول الله ﷺ: «والعين تزني، وزناها النظر» [رواه أحمد: ٢/ ٢٧٦].

وأبشع ما تكون فاحشة الزنى، إذا وقعت على المحارم، وحلائل الجيران، ونساء المجاهدين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢].

وقد سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الذَّنْبِ أعظمُ؟ قال: «أن تجعلَ لله نِدًّا، وهُوَ خلقكَ» قال: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتُلَ ولدكَ خَشْية أنْ يَطْعَمَ معكَ» قيل: ثم أيٌّ؟ قال: «أن تُزاني حليلة جاركَ» [رواه البخاري (٤٤٧٧) في التفسير؛ ومسلم (٨٦) في الإيمان].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُرْمةُ نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجلٍ يَخْلُفُ رجلاً من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وُقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنُّكم؟» [رواه مسلم (١٨٩٧) في الإمارة].

إن واجب النساء أن يتقين الله عز وجل، ويَرْبأنَ بأنفسهن عن مواطن الرِّيب والشبهات، فذلك أنقى لسمعتهن، وأطهر لأنفسهن.

وعلى الرجال أيضاً أن يتقوا الله عزَّ وجلّ، ويصونوا كرامة بناتهم، ونسائهم بالبعد عن الاختلاط بالرجال، والخلوة بهم، والخروج معهم. فكفانا عبرة ما نسمعه عن الأمم التي افترستها المصائب، والآفات، والجرائم، والأمراض نتيجة لذلك الاختلاط والتبرج، ونزع براقع الحشمة والأدب والحياء.

إنَّ أولئك الذين يُروِّجون لهذه المنكرات، ويتخذون من أعراض الناس سلعة يتجرون بها، فيدعون للاختلاط، والتبرج لأعداء أممهم، ونذر شرٍّ في حياتهم، وعلى الأمة أن تعزلهم، وتزدريهم، لأنهم دعاة عار وشنار، وإشاعة للفجور والشرور.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا ظهر الزِّنى، والرِّبا في قَرْيةٍ، فقد أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله تعالى» [صحيح الجامع الصغير (٦٧٩)].

وسُئل ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن أكثر ما يُدْخلُ النَّاس النَّار، فقال: «الفَرْجُ، والفمُ». أي الزنى، وأكل الحرام.

وقال ﷺ: «ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة، ولا يُزكِّيهم، ولا ينظرُ إليهم، ولهم عذاب أليم: شَيْخٌ زانٍ، وملكٌ كذَّابٌ، وعائلٌ مُسْتكبرٌ» [رواه مسلم (١٠٧) في الإيمان].

ومثل الزنى في النكارة، والحرمة ـ بل هو أشنع ـ اللواط، فإنه ما انتشر في أمة إلا استحقت المقت، واستوجبت العذاب. قال رسول الله ﷺ: «لعن الله من عمل عَملَ قَوْمِ لُوطٍ» [رواه أحمد: ١/ ٢٨].

وقد قال النبي ﷺ في عقوبة اللواط: «اقتلُوا الفاعلَ، والمفْعُولَ به» [رواه أبو داود (٤٤٦٢) والترمذي (١٤٥٦)].

ومذهب الشافعي رحمه الله تعالى أن حدَّ اللوطي حدُّ الزنى سواء.

والسحاق بين النساء حرام، وهو شبه الزنى.

قال رسول الله ﷺ: «سحاق النساء زناً بينهن» [ذكره الهيثمي في (مجمع الزوائد): ٦/ ٢٥٦، وقال: رجاله ثقات].

ونكاح اليد أيضاً حرام، لأن نفس الإنسان أولى النفوس أن يحافظ على حرمتها.

والخلاصة أن التعفف عن كل تلك القاذورات واجب على العبد المؤمن، ليسلم له إيمانه من النقائص والعيوب.

* * *

الشعبة الثامنة والثلاثون

قبض اليد عن الأموال المحرمة

إن كف اليد، وسائر الجوارح عن أموال الناس بغير حق واجب مُحتَّم، وهو فرض من فرائض الدين، وشُعبة عظيمة من شُعب الإيمان، لأن الإيمان يفرضه، ويستوجبه، فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم.

ومعنى هذا أن يقنع الإنسان بالكسب والرزق الحلال المشروع، ويكفَّ يده ونفسه وتطلُّعه عن كل كسب حرام ممنوع، فإن الكسب الحلال: هو الكسبُ الطيِّبُ الذي يقره الدين، ويبارك الله تعالى فيه، والكسب الحرام، هو الكسب الخبيث الذي يمحق الله بركته، ويَذْهَبَ بالراحة والسعادة منه.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

ويدخل في الكسب الطيب ما كان من عمل اليد، في زراعة، أو صناعة، أو تجارة، أو وظيفة، كما يدخل في الرزق الحلال المشروع ما كان ثمرة إرث، أو وصيَّة، أو صدقة، أو غير ذلك من أنواع الرزق والكسب الذي أحلَّه الدين، ما دام ذلك بعيداً عن ساحة الغشّ والتدليس، والنصب والاحتيال.

قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك: ١٥].

وقال الله وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٢ ـ ١٧٣].

وعن المقداد بن مَعْدِيكَربَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما أكل أَحَدٌ طعاماً قطُّ خَيْراً من أنْ يأكُلَ من عَمَلِ يدِهِ، وإنَّ نبيَّ الله داودَ صلى الله عليه وسلّم كان يأكلُ من عَملِ يدهِ» [رواه البخاري (٢٠٧٢) في أوائل البيوع].

وعن عبد الله بن الزبير بن العوام رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لأنْ يأخُذَ أحدُكم أحْبُلَهُ، ثم يـأتي الجَبلَ، فيأتيَ بحُزْمةٍ من حَطَبٍ على ظَهْرِهِ، فيبيعَها، فيكُفَّ الله بها وجْهَهُ خَيْرٌ له من أنْ يسألِ النَّاس أعْطَوْهُ، أو منَعُوهُ» [رواه البخاري (١٤٧١) في الزكاة].

وقال رسولُ الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافاً، وقنَّعهُ الله بما آتاهُ» [رواه مسلم (١٠٥٤) في الزكاة].

وأما الكسب الخبيث، فيدخل فيه كلُّ المكاسب المحرمة، ومن جملتها:

ـ الرشوة: وهي ما يبذله الراشي لنيل حق ليس له، أو تضييع حق لغيره، فالراشي والمرتشي ملعونان على لسان رسول الله ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لعنةُ الله على الرَّاشـي، والمرْتَشـي» [رواه الترمذي (١٣٣٧) في الأحكـام؛ وأبو داود (٣٥٨٠) في الأقضية].

فالمرتشي إنما يأكل السُحت، وكسبُه هذا حرام، وباطل لا يحلُّ له بحال من الأحوال.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

ـ ومن المكاسب الخبيثة أيضاً: الربا، ولا سيما ربا القرض، وهو أن يقرض

المحتاج إلى المال مالاً، ويأخذ أكثر منه نظير الأجل، سواء قلت هذه الزيادة على رأس المال، أم كثرت، وقد جاء الوعيد الشديد على الربا، لما فيه من خبث الكسب، والإضرار بالناس.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وقال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨١].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «لعن رسولُ الله ﷺ آكلَ الرِّبا، ومُوكِلَهُ» [رواه مسلم (١٥٩٧) في المساقاة].

وعن جابر رضي الله عنه قال: «لعن رسولُ الله ﷺ آكلَ الرِّبا، ومُوكلَهُ، وكاتبَهُ، وشاهِدَيْهِ، وقال: هُمْ سواءٌ» [رواه مسلم (١٥٩٨) في المساقاة].

وحرمة الربا قديمة، فقد حرمه الله عز وجل في الشرائع قبل الإسلام، وذمَّ بني إسرائيل لتعاطيهم إياه، وهو محرم عليهم.

قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٠ ـ ١٦١].

ـ ومن المكاسب الخبيثة المحرمة ما كان ثمرة تلاعب في المكاييل والموازين، وغيرها من المعايير.

قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ ـ ٦].

والويل: كلمة عذاب، أو وادٍ في جهنم، وهذا أبلغ الوعيد على مثل هذا الكسب الخبيث.

وقال عز وجل: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

والوفاء بالمعايير شريعة قديمة، وحرمة التلاعب بها من شرائع الأنبياء قبل الإسلام.

قال الله تعالى على لسان شعيب عليه الصلاة والسلام: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٤ ـ ٨٥].

ـ ومن المكاسب الخبيثة الميْسرُ، وهو القمارُ، فإن الله حرَّمه في صريح كتابه، فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

ـ ومن المكاسب المحرّمة أكل مال اليتيم، ويدخل فيه منع الزكاة، فإنها حق للفقراء، واليتيم قد يكون منهم.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠].

ـ ومنها: الغصبُ، وأخذ المال قهراً وظلماً، فإن ذلك حرام، لأنه عدوان

على مال الغير بغير حق، فهو سحت، وعواقبه وخيمة.

قال رسول الله ﷺ: «من اقْتَطعَ شِبْراً من الأرض ظُلْماً طوَّقَهُ الله إيَّاهُ يَوْمَ القيامة من سَبْعِ أرضينَ» [رواه مسلم (١٦١٠) في المساقاة].

وقال: «من حلف على يَمينِ صَبْرٍ يقتطعُ بها مالَ امْرئ مسلم لقي الله، وهو عليه غضبانُ» [رواه البخاري (٦٦٧٦) في الأيمان].

وقال: «ولا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذاتَ شَرَفٍ يرفعُ الناس إليه فيها أبصارَهُم حين يَنْتهِبُها وهو مؤمنٌ» [رواه البخاري (٥٥٧٨) في الأشربة؛ ومسلم (٥٧) في الإيمان].

ـ ومنها السرقة، وهي أخذ المال خُفية من حرز مثله، وهي حرام، علمت حرمتها من الدين بالضرورة، سواء كان المسروق قليلاً، أم كثيراً، وإذا بلغ المسروق ربع دينار فصاعداً، استحق السارق عليه قطع يده، لأن العدوان على الأموال المصونة في أماكن حفظها يشكل أكبر الخطر على حقوق الناس، وأموالهم، ولا يحول دون هذا العدوان، أو يقلل منه إلا عقوبة تشكل في نفس السارق ثمناً هو أعلى وأعزّ من المال الذي سرقه.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨].

وقد قضى رسول الله ﷺ بهذا الحد، وقطع يد السارق، ولم تأخذه في الله لومةُ لائم، ولم يقبل شفاعةً في تضييع حدٍّ أوجبه الله تعالى.

عن عائشة رضي الله عنها أن قُريشاً أهمَّهم شأنُ المرأةِ المخزُوميةِ التي سرقتْ، فقالوا: من يكلِّم فيها رسولَ الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يَجْترئ عليه إلاَّ أسامةُ حِبُّ رسول الله ﷺ، فكلَّمهُ أسامةُ، فقال رسولُ الله ﷺ: «أتَشْفعُ في حدٍّ من حُدودِ الله»؟ ثم قام، فاخْتطبَ، فقال: «أيُّها النَّاسُ، إنَّما أهلك الذين قبلكم أنَّهم كانوا إذا سرق فيهم الشَّريفُ تركُوهُ، وإذا سرق فيهم الضَّعيفُ أقامُوا عليه الحدَّ، وايْمُ الله، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقتْ لقطعْتُ يدَها». ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت، فقُطعتْ يدُها. [البخاري (٦٧٨٨) في الحدود؛ ومسلم (١٦٨٨) في الحدود].

وينبغي أن يعلم كل واحد أن قضاء القاضي لأحد بغير حقه لا يحله له، ولا يخرجه عن كونه سُحْتاً يجب تركه، وقد نبّه النبي ﷺ على مثل هذا بقوله الشريف: «إنّكم تَخْتصمُونَ إليَّ، ولعلَّ بعضكُمْ أن يكونَ ألْحنَ بحجَّتهِ من بَعْضٍ، فأَقْضي له على نَحْوِ ما أسمعُ، فمن قضيْتُ له بشيْءٍ من حقِّ أخيه، فلا يأخذْهُ، فإنَّما أقطعُ له قطعةً من النار» [رواه البخاري (٢٦٨٠)؛ ومسلم (١٧١٣)].

أخي الكريم، كل هذه المكاسب، وما على شاكلتها حرام، لا تُحِلُّ المال، ولا تُبيحه لك، فابتعد عنها، وخلص ذمتك منها، وردَّ الحقوق إلى أصحابه، قبل أن يأتي يوم تندم فيه على ما جنيت، ولات ساعة مندم.

قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٤].

قال رسول الله ﷺ: «لا يحلُّ مالُ امْرِئٍ مسلمٍ إلاَّ بطيب نَفْسٍ منه» [صحيح الجامع الصغير (٢٧٨٠)].

وقال: «كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دمُهُ، وعِرْضُهُ، ومالُهُ» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

وقال: «حرمةُ مال المسلم، كحُرْمةِ دَمِهِ» [صحيح الجامع الصغير (٣١٤٠)].

من كل ما سبق يتبيَّن ضرورة قبض اليد عن الأموال المحرّمة بغير حق، ليسلم الدين الرفيع من الأذى، وتسلم الأمة من البلاء، ويسلم العبد من السقوط في النار، والعياذ بالله تعالى.

* * *

الشعبة التاسعة والثلاثون

وجوب التورع في المطاعم والمشارب
واجتناب ما لا يحلُّ منها

إن الأصل في المطاعم والمشارب الحلُّ، فهي حلال شرعاً، لأن الله سبحانه وتعالى منَّ على عباده بما خلق لهم في هذه الأرض من المنافع، ومن جملتها المطاعم والمشارب، ولا يمنُّ سبحانه وتعالى عليهم إلا بما أباحه لهم، ومكنهم منه.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

لكن يستثنى من عموم ذلك ما دلَّ الدليل على حرمته من طعام أو شراب، فإنه ـ والحالة هذه ـ يكون حراماً، لأن المشرِّع لاحظ في هذا المحرم حالة تتطلب التحريم، فمنع منه عباده لحكمة يعلمها هو، سبحانه وتعالى.

وتنطلق قاعدة التحريم من كون المطعوم أو المشروب مُضرّاً، أو مُستخبثاً، أو مستقذراً، أو قام به أمر اعتباري، منع لأجله تناوله، كالمذبوح على غير اسم الله تعالى، أو ما ذبح، على النُّصب، ونحوها.

فكلُّ ما كان مُستطاباً نافعاً فهو حلال، وما كان مُضرّاً، مُستقذراً، أو مستخبثاً فهو حرام.

ولقد دلَّ على هذا قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ﴾ [المائدة: ٤].

وقال سبحانه وتعالى في بيان صفة النبي ﷺ، ووظيفته: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فعلى المؤمن أن يكون على بيِّنة من أمره، فلا يتناول إلا مما أحلَّه الشرع، وأباحه له، وليتورَّعْ عما يشكُّ في حلِّه، لأن من اتَّقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه.

قال رسول الله ﷺ: «دَعْ ما يَريبُكَ إلى ما لا يَريبُكَ» [رواه الترمذي (٢٥٢٠) في أبواب صفة القيامة].

أي: اترك ما تشكُّ في مشروعيته، وخذ ما لا تشكُّ فيه. أما ما حرمه الله تعالى فليجتنبه حتماً ثقة بتحريم الدين، واطمئناناً في أن الخير في اتباع الشرع، والامتثال له.

وقد وردت نصوص في القرآن والسنّة تناولت طائفة من المطاعم والمشارب المحرمة، وسبيل المؤمن التقيد بها، والوقوف عندها بكل الرضى والقبول.

قال الله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣].

وقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

ـ **فالميتة حرام**، وهي كل حيوان مات بغير ذكاة شرعية. ويدخل في الميتة ما ذكره الله تعالى بقوله الكريم: ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]. ويدخل فيها أيضاً: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾. أي ما ذكر عند ذبحه غير اسم الله تعالى. وإنما حرمت الميتة، لأن النفس تعافها، وتستقذرها، ولا تخلو من ضرر على الصحة، ويدخل في

بعضها المعنى التعبدي، كما في المذبوحة على النُّصُب، وما أهل لغير الله تعالى به.

وقد استثنى الدين من عموم حرمة الميتة: السَّمكَ والجرادَ، فميتتها حلال.

ـ **والدَّمُ المسفوحُ** حرام، لأنه نجس مستقذر تعافه النفوس السويَّةُ، وهو ضار أيضاً.

واستثني من عموم الحرمة أيضاً: الكبد، والطحال.

قال رسول الله ﷺ: «أحِلَّتْ لكم مَيْتتانِ، ودَمَانِ: فأمَّا المَيْتَتانِ: فالحوتُ والجرادُ، وأما الدَّمانِ: فالكبدُ، والطِّحالُ» [صحيح الجامع الصغير (٢١٠)].

ـ **ولحم الخنزير، فهو حرام،** لا يحل تناول شيء منه، فهو في عرف الشرع حيوان مستقذر، سماه الدين رِجْساً، ولا يخلو تناوله من الآثار المضرَّة، والطباع السيئة: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ـ **الخمر، وهو كل شراب أسكر كثيره،** من أي مادة صُنع، وبأيِّ الأسماء سُمي، فهو حرام، وإنما حرمه الله عز وجل لما فيه من الأضرار الصحية، والدينية، والاجتماعية.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩١].

ولما سمع أصحاب النبي ﷺ هذا البيان الإلـهي، وهذا الحكم الشرعي، قالوا: انتهينا، يا رب، فأراقوا الخمور، ولم يعودوا إليها أبداً، وهكذا ينبغي أن يكون موقف المسلم وحاله إذا سمع قول الشرع الحكيم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٢].

قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ مسكرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ مُسكرٍ حرامٌ» [رواه مسلم (٢٠٠٣) في الأشربة].

وقال: «ما أسكرَ كثيرُه، فقليلُهُ حرامٌ» [رواه الترمذي (١٨٦٦)].

وقال: «لعن اللهُ الخَمْرَ، وشاربَها، وساقيها، وعاصِرَها، وحاملَها، والمحمولَةَ إليه، وبائعَها، ومُشْتريَها، وآكلَ ثمنها» [رواه أبو داود (٣٦٧٤)].

وقال: «ولا يَشْربُ الخمْرَ حين يَشْربُها، وهُوَ مؤمنٌ» [رواه البخاري (٥٥٧٨)؛ ومسلم (٥٧)].

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: اجتنبُوا الخمر، فإنَّها أمُّ الخبائث.

ولقد أضاف النبي ﷺ - إلى ما ذكر الله عز وجل - بعض المحرمات الأخرى، فنهى عن كل ذي ناب من السباع، وعن كل ذي مخلب من الطير، وكل ما كان مضراً: كالحشرات، والحيوانات السامة، وما نُدب إلى قتله من الدواب.

قال رسول الله ﷺ: «خَمْسٌ من الدَّواب يُقْتلْنَ في الحلِّ والحرمِ: الغراب، والحدَأَةُ، والفأرةُ، والعقْربُ، والحيَّةُ» [رواه مسلم (١١٩٨) في الحج].

هذا، وقد أحلَّ الله عز وجل للمسلمين ذبائح أهل الكتاب، إذا ذكوا الحيوانات بالذكاة الشرعية، وذلك بذبحه، في حلقه، أو لبته، إذا كان الحيوان مقدوراً عليه، كالأنعام، أو جرحه جرحاً مزهقاً إذا كان غير مقدور عليه، كالصيد.

قال الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ [المائدة: ٥].

أما ذبائح المشركين، والملحدين، والمجوس، ومن لا دين لهم فحرام، لا يجوز للمسلم أكلها.

قال العلماء: لا ينبغي لأحد أن يأكل من الطعام الحلال فوق حاجته، مما يثقل بدنه، ويفسد صحته، فيجره إلى النوم، ويمنعه من العبادة.

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وليكن غرضه من الأكل الاشتغال بالعبادة، والتقوي عليها.

وينبغي أن يبدأ طعامه وشرابه بالتسمية، ويختمه بحمد الله تعالى، كما

ينبغي أن يأكل بيمينه، وأن يأكل مما يليه إذا أكل مع غيره.

عن عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه، ربيب رسول الله ﷺ قال: كنتُ غلاماً في حِجْرِ رسولِ الله ﷺ، وكانت يدي تطيشُ في الصَّحْفةِ، فقال لي رسولُ الله ﷺ:

«يا غُلامُ، سَمِّ الله تعالى، وكُلْ بيمينكَ، وكُلْ ممّا يليكَ» فما زالتْ تلكَ طُعْمتي بَعْدُ [رواه البخاري (٥٣٧٦) في الأطعمة؛ ومسلم (٢٠٢٢) في الأشربة].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان إذا رفع مائدتَهُ قال: «الحمدُ لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، غَيْرَ مَكْفيٍّ، ولا مُسْتغنىً عنه، ربَّنا» [رواه البخاري (٥٤٥٨) في الأطعمة].

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أكل طعاماً، فقال: الحمدُ لله الذي أطعمني هذا، ورزقنيه من غَيْرِ حَوْلٍ منِّي، ولا قُوَّةٍ، غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه» [رواه أبو داود (٤٠٢٣) في اللباس؛ والترمذي (٣٤٥٤) في الدعوات].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ، أتي بلبنٍ قد شِيبَ بماءٍ، وعن يمينه أعرابيٌّ، وعن يساره أبو بكر، فشرب، ثم أعطى الأعرابيَّ، وقال: «الأيْمَنَ، فالأيْمَنَ» [رواه البخاري (٥٦١٢) في الأشربة؛ ومسلم (٢٠٢٩) في الأشربة].

وهذا من أدب الطعام والشراب، أن يدار بهما من يمين المجلس، أو يمين الطالب.

إن التورع في المطاعم، والمشارب، واتباع الهدي النبويِّ فيهما لمن أعظم شُعب الإيمان، وآداب الدين، والمؤمن مخاطب بهذا، ومطالب به.

* * *

الشعبة الأربعون

تحريم الملابس، والزِّيّ، والأواني، وما يكره منها

الأصل في اللباس والأواني ـ ما كان منها للزينة، أو الاستعمال ـ الحلُّ، والإباحة، وذلك عملاً بعموم الأدلة التي تحمل المنَّة على العباد بما خلق الله لهم، وأنعم به عليهم.

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقال رسول الله ﷺ: «كلُوا، واشربُوا، والبسُوا، وتصدَّقُوا في غَيْرِ إسرَافٍ، ولا مَخِيلةٍ» [رواه البخاري تعليقاً في أول كتاب اللباس: ١٠/ ٢٦٤].

وقال الله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٦].

والريشُ: ما يتجمل به من الثياب.

وكان الرجال والنساء في عهد النبي ﷺ يلبسون القطن والكتان، والصوف والفراء والبرود، ولم يعهد أن أحداً منهم مُنع عن شيء من ذلك.

وقد لبس النبي ﷺ ما تيسر له من الثياب مما كان موجوداً.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ مربوعاً، ولقد رأيته في حُلَّةٍ حَمْراءَ، ما رأيتُ شيئاً قطُّ أَحْسَنَ منه [رواه البخاري (٥٨٤٨) في اللباس؛ ومسلم (٢٣٣٧) في فضائل النبي ﷺ].

والحلَّةُ: ثوب له ظِهارة، وبطانة من جنس واحد. أو هي ثوبان من جنس واحد.

وعن أبي رِمْثَةَ رفاعة التَّميميِّ رضي الله عنه، قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ، وعليه ثَوْبانِ أَخْضَرانِ [رواه الترمذي (٢٨١٣) في الأدب؛ وأبو داود (٤٠٦٥) في اللباس].

وعن جابر رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ دخل يَوْمَ فتحِ مكَّةَ، وعليه عمامةٌ سَوْداءُ [رواه مسلم (١٣٥٨) في الحج].

من هذا الذي ذكرنا يعلم أن الأصل في كل ذلك الحل والإباحة، لكن الدين استثنى من عموم ذلك الحل أشياء تدخل في باب اللباس، والآنية، لباساً واستعمالاً وتزيناً، فحكم بحرمتها، لبعض الحكم، وواجب المسلم أمام هذا الحظر، أن يمتثل، ويقول: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

لأن هذا الامتثال من أول آثار الإيمان، وأبرز مظاهر وجوده.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور: ٥١ ـ ٥٢].

ومن هذه الأشياء التي حرمها الدين، وأوجب على عباده الإيمان بحرمتها، وعدَّ ذلك من شعب الإيمان:

١ ـ اتخاذ الأواني من الذهب والفضة، تزييناً واستعمالاً، ما عدا حليّ النساء منهما، في حدود الاعتدال من غير سرف، ولا خيلاء:

فلا يجوز لأحد أن يتخذ من الذهب أو الفضة أواني للطعام أو الشراب،

أو غيرهما من وجوه الاستعمال، ولا يجوز استعمالهما في ذلك، وكل ما حرم استعماله حرم اتخاذه، كما لا يجوز تزيين البيوت والمجالس والمساجد، والحوانيت وغيرها بالذهب والفضة.

ولقد ثبت ما يدل على ذلك في صريح السنة المشرفة، وصحيحها.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من شرب في إناءٍ من ذهبٍ أو فضَّـةٍ، فإنَّما يُجَرْجِـرُ في بطنـهِ نارَ جهنم» [رواه البخاري (٥٦٣٤) في الأشربة؛ ومسلم (٢٠٦٥) في اللباس].

وعن حذيفة رضي الله عنه، قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «لا تَشْرَبُوا في آنية الذَّهبِ والفضَّةِ، ولا تأكلُوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرة» [رواه البخاري (٥٦٣٢) في الأشربة؛ ومسلم (٢٠٦٧) في اللباس].

أما استعمال الأواني المموهة بالذهب والفضة، فقد قال العلماء: إن كان التمويه قليلاً، بحيث لو عرض على النار لم يتحصَّل منه شيء حلَّ استعمالها. وإن كان كثيراً، بحيث يتحصَّل منه شيء فيما لو عرض على النار حرم.

وأما التضبيب بالذهب فحرام مطلقاً، سواء كان للزينة، أم للحاجة، وسواء كانت الضبة كبيرة، أم صغيرة.

وأما التضبيب بالفضة، فأجازوه إن كان للحاجة، ومنعوه إن كان لمجرد الزينة، ما دامت الضبة كبيرة.

عن عاصم الأحول، قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس رضي الله عنه، وكان قد انصدعَ، فسَلْسَلهُ بفضة، وقال: وهو قدح جيد عريض من نضار، قال: وقال أنس رضي الله عنه: لقد سقيتُ رسول الله ﷺ في هذا القدح أكثر من كذا، وكذا. [رواه البخاري (٥٦٣٨) في الأشربة].

نضار: خشب خالص جيد.

أما المعادن النفيسة كاللؤلؤ، والمرجان، والياقوت وغيرها؛ فمباحة،

لا شيء في اتخاذها واستعمالها، لعدم ورود الدليل على حرمتها، والأصل في الأشياء الحل، كما ذكرنا، ما لم يرد دليل التحريم، وليس ثمة دليل، وقياسها على الذهب والفضة غير صحيح.

هذا، ولعل الحكمة من تحريم استعمال الذهب والفضة في غير البيع والشراء، واتخاذهما كأدوات للاستعمال والزينة ما في ذلك من تضييق أوجه التعامل بهما كأثمان، فإن الله عز وجل جعلهما قيماً للأشياء، وأثماناً لها، وربط سهولة التعامل بهما، بالإضافة لما في ذلك من التشبه بالكافرين، وجرح قلوب الفقراء والمساكين.

ولقد استثنى العلماء من هذا التحريم أموراً:

أ ـ اتخاذ النساء الحليَّ منهما، بالقدر المعتاد.

روي أن النبي ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه، وذهباً فجعله في شماله، ثم قال: «إنَّ هذين حرامٌ على ذكور أمتي» [رواه أبو داود (٤٠٥٧) في اللباس].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حُرِّم لباسُ الحريرِ والذَّهَبِ على ذكُور أمَّتي، وأحلَّ لإناثهم» [رواه الترمذي (١٧٢٠) في اللباس].

ب ـ اتخاذ خاتم من فضة، فإن النبي ﷺ، قد اتخذه، ونقش عليه اسمه، وكان يختم به رسائله إلى الملوك والأمراء، وقد اتخذ الصحابة رضوان الله عليهم خواتم من فضة، فأقرهم رسول الله ﷺ، ولم ينكر عليهم.

عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان خاتمهُ من فضَّةٍ، وكان فصُّهُ منه. [رواه البخاري (٥٨٧٠) في اللباس].

وعن أنس أيضاً، أن رسول الله ﷺ اتَّخذ خاتماً من فضة، ونقش فيه: محمد رسول الله. [رواه البخاري (٥٨٧٢) في اللباس].

وكان ﷺ يجعلُ فصَّ خاتمه في بطن كفه. [رواه البخاري (٥٨٧٦) في اللباس].

وكان يتختَّمُ بيمينه. [رواه مسلم (٢٠٩٤) في اللباس].

وذلك أفضل من التختم بالشمال، لأن اليمين أحقُّ بالتحلية والتكرمة من الشمال.

ونهى ﷺ عن التختم في السبابة، والوسطى. [رواه مسلم (٢٠٧٨) في اللباس].

أما التختم بالذهب فذلك حرام على الرجال مطلقاً.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ رأى خاتماً من ذهب في يدِ رجل، فنزعه، فطرحه وقال: «يَعْمِدُ أحدُكم إلى جَمْرةٍ من نارٍ، فيجعلُها في يده». فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ: خُذْ خاتمكَ انتفعْ به، قال: لا آخذه أبداً، وقد طرحه رسول الله ﷺ [رواه مسلم (٢٠٩٠) في اللباس].

وقد تساهل كثير من الناس في حكم الله تعالى هذا، فاتخذوا خواتم الذهب، غير مبالين بما قد يحرق أيديهم من جمر جهنم، والعياذ بالله تعالى.

جـ- حالة الضرورة، إذ الضرورات تبيح المحظورات، ولكنها تقدر بقدرها، فلا يجوز بأكثر مما تندفع به الضرورة.

ومن هذا اتّخاذ سنٍّ من ذهب أو فضة، إذا لم يوجد ما ينوب منابهما مما سواهما.

عن عَرْفجةَ بن أسعد رضي الله عنه قال: أصيبَ أنفي يَوْمَ الكُلابِ في الجاهلية، فاتّخذتُ أنْفاً من وَرِقٍ، فأنْتَنَ عليَّ، فأمرني رسولُ الله ﷺ أن أتَّخذَ أنفاً من ذهب. [رواه أبو داود (٤٢٣٢)؛ والترمذي (١٧٧٠) في اللباس].

٢- لبس الحرير الطبيعي، واستعماله للرجال - دون النساء:

وقد ذكرنا أن النبي ﷺ قال: «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي، وأحلَّ لإناثهم».

ولعلَّ الحكمة من هذا التحريم ـ عدا التعبد ـ ما في لبس الحرير من الخيلاء والكبر، والتأنُّث، والتخنُّث، والبعد عن صفات الرجولة، فإن الرجل لم يخلق ليُنشَّأ في الحلية، ويختال بأثواب الزينة، ويظهر بمظهر النعومة والليونة المفضية إلى التشبه بالنساء، وإنما خلق للحياة، يعارك الصعاب، ويقوم بالمهمات، ويصبر في الملمات، وهذا يتطلب نوعاً من الخشونة، والبعد عن الليونة والميوعة.

ولقد استثنى الدين من هذا حالة الضرورة: كوجود مرض يحتاج الإنسان معه إلى لبس الحرير.

عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ رخَّص لعبد الرحمن ابن عوف، والزبير بن العوام رضي الله عنهما في القُمص الحرير في السفر من حكَّةٍ كانت بهما، أو وجع كان بهما. [رواه البخاري (٥٨٣٩) في اللباس؛ ومسلم (٢٠٧٦) في اللباس].

وإذا كان الثوب مخلوطاً من حرير وغيره، اعتبر الأكثر وزناً منهما، فإن كان نصفه، أو أكثر من غير الحرير حلَّ لبسه للرجال، واستعماله لهم، لأن الحكم إنما يدار على الأكثر منهما.

٣ ـ تجنُّب إطالة الثياب كبراً وفخراً، فإن إطالة الثياب للرجال من المظاهر الممقوتة شرعاً، فإن سلم المطيل من الكبر والخيلاء كان ذلك منه مكروهاً، مراعاة لظاهر النصوص.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٧ ـ ٣٨].

وقال رسولُ الله ﷺ: «بَيْنما رجُلٌ يَمْشي في حُلَّةٍ تُعجبُهُ نَفْسُهُ، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، إذ خسف الله به، فهو يتجلْجَلُ فيها إلى يوم القيامة» [رواه البخاري (٥٧٨٩)؛ ومسلم (٢٠٨٨) في اللباس].

مرجل: مسرح.

جمته: شعر رأسه، إذا تدلى إلى منكبيه.

يتجلجل: يغوص في الأرض، والجلجلة: حركة مع صوت.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِزْرَةُ المؤمن إلى أنصاف ساقيه، لا حرج عليه فيما بينه، وبين الكعْبَيْنِ، ما أسفل من ذلك، ففي النار» [رواه ابن ماجه (٣٥٧٣) في اللباس].

وقال: «ما أسفل الكعْبَيْنِ من الإزار ففي النَّار» [رواه البخاري (٥٧٨٧) في اللباس].

وكان ـ ﷺ ـ يعجبه من ألوان الثياب البياض والخضرة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «البَسُوا من ثيابكم البياضَ، فإنها من خَيْرِ ثيابكم، وكفِّنُوا فيها موتاكم» [رواه أبو داود (٣٨٧٨) اللباس؛ والترمذي (٩٩٤) في الجنائز].

وكان النبي ـ ﷺ ـ ينهى الرجال عن الثياب المصبوغة بالزعفران، والعصفر، والورس؛ لأنها كانت من لباس النساء، أو من لباس الكفار.

عن أنس رضي الله عنه، قال: نهى النبيُّ ﷺ أن يتزعْفَرَ الرجل [رواه البخاري (٥٨٤٦) في اللباس؛ ومسلم (٢١٠١) في اللباس].

يتزعفر: يصبغ ثوبه بالزعفران.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: رأى النبيُّ ﷺ عليَّ ثوبين مُعصْفَرَيْنِ، فقال: «أمُّكَ أمرَتْكَ بهذا»؟قلت: أغْسِلُهما؟قال: «بل احْرِقْهُما».

وفي روايـة، فقال: «إنَّ هذا من ثياب الكفار، فلا تلبسهما» [رواه مسلم (٢٠٧٧) في اللباس].

٤ ـ تجنُّب ما فيه الصور من الثياب:

تصوير ما فيه روح حرام، ولا ينبغي للمسلم أن يلبس من الثياب ما فيه تلك الصور، أو يتخذ منها ستوراً تعلق على الأبواب، أو النوافذ.

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ دخل عليها، وهي مُسْتَتِرَةٌ

بقِرَامٍ فيه صور وتماثيل، فتلوَّنَ وجهُهُ، ثم أهْوَى إلى القِرَام فهتكَهُ بيده، ثم قال:

«من أشدِّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يُشبِّهُونَ بخلق الله» [رواه البخاري (٥٩٥٤) في اللباس].

وقال: «إنَّ أشدَّ النَّاسِ عذاباً يوم القيامة المصورونَ» [رواه البخاري (٥٩٥٠) في اللباس؛ ومسلم (٢١٠٩) في اللباس].

وقال: «لا تدخلُ الملائكة بيتاً فيه كلبٌ ولا صورة» [رواه البخاري (٥٩٤٩) في اللباس؛ ومسلم (٢١٠٦) في اللباس].

أما إذا كانت الصورة على الأرض بحيث تُداس، وتمتهن، فلا حرمة في ذلك.

أما الوسخ في الثياب، وعدم العناية بها، فليس مما يتقرب به إلى الله تعالى.

عن جابر رضي الله عنه، قال: أتانا رسول الله ﷺ زائراً، فرأى رجلاً شعثاً قد تفرق شعره، فقال: «أما كان هذا يجد ما يسكِّنُ به شعره»؟ ورأى رجلاً عليه ثوبٌ وسخٌ، فقال: «أما كان هذا يجدُ ماءً يغسلُ به ثَوْبَهُ»؟ [رواه أبو داود (٤٠٦٢) في اللباس].

٥ ـ الوشْمُ، والوشْرُ، والنَّمْصُ، والوصل، والخضاب بالسواد: وهذه كانت معالم للزينة، حرمها الدين، ونهى عنها.

فالوشْمُ: عبارة عن تلوين مواضع من الجسم بالزرقة أو السواد، وذلك بأن تغرز إبرة، أو نحوها في الوجه، أو ظهر الكف، أو المعصم، حتى يسيل الدَّم، ثم يُحشى محل الغرز بكحل، أو نحوه، فيخضرَّ، أو يسودَّ.

والوشْرُ: تفليج وتفريق ما بين الثنايا، والرُّباعيات من الأسنان بمبرد، ونحوه طلباً للحسن، والجمال.

والنَّمْصُ: نتف الشعر من الوجه.

والوصل: ربط ووصل شعر الآدمي بشعر آدمي آخر.

وما ذكرناه محرم على الرجال والنساء، لا فرق بينهما. وقد ثبت في صحيح السنة ما يدل على حرمة ذلك كله.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لعن الله الواشمات، والمستوشمات، والمتنمصات، والمتفلجات، المغيرات خلق الله، مالي لا ألعن من لعنه رسولُ الله ﷺ، وهو في كتاب الله. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[الحشر: ٧] [رواه البخاري (٥٩٣١) في اللباس؛ ومسلم (٢١٢٢) في اللباس].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشمةَ والمسْتوشمةَ. [رواه البخاري (٥٩٣٣) في اللباس؛ ومسلم (٢١٢٤) في اللباس].

وعن جابر رضي الله عنه قال: أتي بأبي قحافة يوم الفتح، ورأسه، ولحيته كالثغامة بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: «غيِّروا هذا بشيْءٍ، واجْتنبُوا السَّوادَ» [رواه مسلم (٢١٠٢) في اللباس].

وأبو قحافة: هو والد أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أسلم يوم فتح مكة.

والثغامة: نبت له زهر أبيض، شبه بياض الشيب به.

قال العلماء: يستحسن إزالة ما نبت في وجه المرأة من لحية، وشارب، ولا يحرم إزالتهما، لأن النهي إنما هو لما في الحواجب، وما في أطراف الوجه.

وإذا احتيج لعلاج سنٍ، أو إزالة عيب فيه، فلا بأس به، لأن المحرم إنما هو المفعول لطلب الحسن والتجميل، والتغيير لخلق الله عز وجل.

والخضاب بغير السواد مباح، بل هو مستحب.

وقد نهى النبي ﷺ عن حلق اللحية، لأن حلقها هجنة، وتشبه بالنساء.

قال رسول الله ﷺ: «اعْفُوا اللِّحَى، وحُفُّوا الشَّاربَ» [رواه أحمد: ٢/ ٥٢].

وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان يقبض على لحيته، فما فضل عن كفه أمر بأخذه.

وقد نهى النبي ﷺ عن عن القَزَع، وفسره عبيد الله بن عمر رضي الله عنهما بأن يترك الشعر في ناصيته، وجوانب رأسه. [رواه البخاري (٥٩٢٠) في اللباس].

وقيل: هو حلق بعض الرأس، وترك بعضه.

٦ ـ **تشبُّه الرجال بالنساء، وتشبُّه النساء بالرجال**، في المنطق، والمشي، والزي، وغير ذلك، وقد عدَّ الإسلام ذلك من المنكرات المشينة، والأخلاق الذميمة التي لا تليق بالأمة، بل هي مسخ لحقيقتها، وانحطاط عما تقتضيه حياتها من العزة والكرامة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسولُ الله ﷺ المخنَّثينَ من الرجال، والمترجِّلاتِ من النساء» [رواه البخاري (٥٨٨٦) في اللباس].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لعن الله الرَّجُلةَ من النساء» [رواه أبو داود (٤٠٩٩) في اللباس].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «لعن رسولُ الله ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المرأة، والمرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرجل» [رواه أحمد: ٢/ ٣٢٥؛ وأبو داود (٤٠٩٨) في اللباس].

إن ما ذكرناه في هذه الشعبة مما يتعلق بالأزياء، والألبسة، والأواني، وغيرها، إنما هي أحكام شرعية، جاء بها الدين، لا من أجل التضييق على العباد، وحرمانهم من متع الحياة، وإنما من أجل عزتهم، وتربيتهم على جلائل الأمور، والبعد بهم عن كل ما يلوِّث السمعة، ويسيء إلى الكرامة، والله تعالى فيما يشرع عليم حكيم.

* * *

الشعبة الحادية والأربعون

تحريم الملاعب والملاهي المخالفة للشريعة

إن كل ما صادم شرع الله تعالى وخالفه حرام، لا يشكُّ في هذا مسلم سليم الإسلام، وهو معلوم من دين الله عزَّ وجلّ ضرورة، ثم إن الدين لم يحرِّم شيئاً إلا لما فيه من المفسدة، سواء كان لعباً، أم غيره، علم ذلك من علمه، وجهله من جهله.

وقد عرَّف العلماء اللهو، وبيَّنوا أقسامه، ونصُّوا على الحلال والحرام منه، فعلى المسلم أن يتقيد بما شرعه الدين وأباحه، وأن يعرض عما نهى عنه، كائناً فيه ما كان من هوى النفس وشهواتها، فإن الله عز وجل لام بعض الصحابة الذين انصرفوا عن خطبة النبي ﷺ لمّا سمعوا الطبول تضرب، مؤذنة بقدوم بعض التجارات التي فيها بعض الأموال. فقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١]

وقال رسول الله ﷺ: « كلُّ شيءٍ يلهو به الرجل باطل، إلاَّ رمْيَهُ بقوْسهِ وتأديبَهُ فرسَهُ، وملاعبتَه لامرأته» [رواه الترمذي (١٦٢٧) في فضائل الجهاد].

ومعنى هذا أن كل ما يلهو به الإنسان مما لا يفيده في العاجل، ولا في الآجل فائدة يَعْتدُّ بها الدين، فهو باطل.

وبناءً على ما ذكرنا فقد عرَّف العلماء اللهو بأنه: كل ما يشغل الإنسان عن المزعجات، والأفكار، والمؤرِّقات المختلفة، دون أن تكون له حقيقة ثابتة؛ كاللعب، وأحاديث الفكاهة، والأسمار، والغناء، ونحو ذلك.

وهذا اللهو إما أن ينقضي دون أن يترك وراءه أثراً من نفع أوضرر، إلا أنه

يشغل الفكر عن الجد في الأمور، والمهمات من الشؤون.

وإما أن يترك علاوة على ذلك أثراً ضاراً في النفس، كأن يتعود على الدَّعة، والانصراف عن القيام بواجبات الحياة، وعزائم الأمور.

وإما أن يترك أثراً مفيداً: كأن يُعوِّد على بعض أعمال الخير، ويسهِّل على النفس اقتحام بعض الشدائد.

أما الصنف الأول، وهو الذي لا يترك أثراً في الحياة نافعاً أو ضاراً، فهو مكروه: كالاسترسال في المجالس التي يشيع فيها المزاح والفكاهات التي لا فائدة منها، بحيث ينقضي الوقت فيها دون فائدة.

وأما الصنف الثاني، وهو ما يخلف آثاراً ضارة في النفس والمجتمع، فهو حرام، ولا يجوز تعاطيه، وذلك: كأن يزيد الإنسان في الاسترسال في إضاعة الوقت في المزاح، والفكاهات، والتندر بالأقاصيص والحكايات، بحيث يُفوّت على المرء واجباته من عبادة مفروضة، أو سعي من أجل معيشة، أو يوجد فيه طبيعة سيِّئة كالكذب، والتهاون في علاقاته مع الناس. ومثل هذا في الحرمة مجالس الغناء المقرونة بالمعازف المحرمة، أو المقرونة بالنساء والجواري.

وأما الصنف الثالث: وهو ما أعقب فائدة للنفس والمجتمع، فهو مباح، وقد يرتقي إلى درجة الاستحباب حسب أهمية الفائدة الناتجة عنه، ومثال هذا: السباق، والرمي، والألعاب المفيدة للحرب، ولغيرها ضمن ضوابطها وشروطها الشرعية.

ولمزيد من الإيضاح نذكر بعض الأمثلة:

أولاً: الألعاب الهادئة الشائعة بين الناس، كالشطرنج، والنرد، والورق، ونحوها، وهذه الألعاب تقوم على أساس القاعدة التالية، وهي كل ما كان من هذه الألعاب قائماً على التفكير، والتدبير، والنظر في العواقب، فهو جائز، ثم هو يدور بين الإباحة والكراهة، حسب مدى انصراف اللاعب إليها، وانشغاله بها.

وقد ذكر الشافعية من هذه الألعاب: الشطرنج، فإنهم أجازوه، لأنه لا يخلو من فائدة للذهن، شريطة أن لا يعكف عليه زيادة عما تقتضيه هذه الفائدة، وإلا كان مكروهاً، فإن زاد عكوفه عليه حتى فوَّت بسببه بعض الواجبات كان حراماً.

أما ما كان من الألعاب قائماً على مجرد المصادفة: كالنرد، والورق، ونحوهما؛ فإنه محرم، لما في هذه الألعاب من تعويد النفس على الركـون إلى معنى المصادفـة في تقلبات الأحوال والأمـور، مما يجعل العقل يتخيـل أن المصادفة هي العامل الأول في الكون وحركته، فهذا من اللهو الذي يترك أثراً ضاراً في النفس.

قال رسول الله ﷺ: «من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير، ودمه» [رواه مسلم (٢٢٦٠) في كتاب الشعر] وإذا ثبت أن اللعب بالنرد حرام، فكل لعب شاركه في معناه كان مثله في الحرمة.

ثانياً: اللهو بالحيوانات: كتحريش الديكة على بعضها، ودفع المواشي إلى التناطح، كالذي يعرف بمصارعة الثيران، فإنه محرم، لما يترك وراءه من الآثار الضارة على حياة البهائم والإنسان.

ثالثاً: الرقص، فإنه حرام على الرجال، لما فيه من التخنث والتكسر، وهو شرٌ من التصفيق الذي جعله الرسول ﷺ للنساء، فلا ينبغي للرجال أن يصفقوا، ولا أن يرقصوا.

رابعاً: المصارعة: وهي أصناف كثيرة، فكل ما لم يخلف وراءه أثراً ضاراً في الجسم، وكان من شأنه أن يعود الإنسان على القوَّة، فهو مباح، وربما كان مستحباً، وكل ما كان من شأنه أن يعقب أثراً ضاراً، كجرح، أو كسر عظم، فهو حرام: كالمصارعة الحرة، والملاكمة، ونحوهما.

خامساً: لعِبُ البنـات باللُّعب التي يسـمّونها بالبنات، فإنها تباح لهن، ولا يمتنعن منها، فإن عائشة رضي الله عنها كانت تلعب بهذه اللعب. وهي عند رسول الله ﷺ.

وأما الصبيان، فكل لعب لا يخشى عليهم منه ضرر في العاجل، والآجل، ويظنُّ أن فيه لهم انشراح صدر، وتفريح قلب، فإنهم لا يمنعون منه، ولكن يحال بينهم وبين إدمانه، ولا يمكنون منه على قوارع الطرق، ولا يطلق للصبي أن يخالطه إلا أقرانه، ولا يترك واللعب مع المهملين الذين لا أدب لهم. ولا قوَّام عليهم.

هذا، ومما ينبغي أن يعلم أن شيئاً من أصناف اللعب واللهو لا يجوز أن يكون على مال، سواء كان من طرف واحد، أو من طرفين، وكل مال يدخل في مثل هذا اللهو يجعله من الميسر الذي يحرم تعاطيه، إلا ما استثنى الدين من المناضلة، والمسابقة ضمن الشروط المعروفة.

ونقول في الختام: إن الأصل في مهمة الإنسان الجد، والأخذ بعزائم الأمور، لأن الله عز وجل ما خلق هذا الوجود للعبث واللعب، والإنسان من أعظم ما خلق الله تعالى، فلا يباح له أن يأخذ من اللهو إلا بالقدر الذي ينفعه، ولا يضرُّه، وتقيد الإنسان بمنهج الله في الحياة من لب إيمانه، ومن أعظم شعبه، وأقدس شرائعه.

* * *

الشعبة الثانية والأربعون

الاقتصاد في النفقة

الاقتصاد في النفقة فضيلة، ومنقبة حميدة، وهو يتفرع عن الإيمان، ويستقي من معينه، لأنه استجابة لأمر الشرع، وامتثال له، والتزام به، وما دام هذا الاقتصاد طاعة لله عزَّ وجلَّ، وامتثالاً لأمره، فهو إذاً عبادة، والعبادة إيمان والتزام.

والاقتصاد في النفقة: هو الاعتدال، والتوسط فيها، وهو فضيلة بين رذيلتي الشحِّ والإسراف، والبخل والتبذير، وهكذا الفضائل تكون دائماً وسطاً محموداً بين نقيصتين مذمومتين.

وديننا الحنيف ـ والحمد لله ـ وشرعنا الشريف بمثل هذه الفضيلة: القصد والاعتدال في كل شيء. قال الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فالاعتدال في كل أمر، والاقتصاد فيه أفضل وأجمل من الشطط والبغي، حتى في الحب والبغض.

روي عن سيدنا علي رضي الله عنه أنه قال: أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يومًا ما، وأبغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما» [صحيح الجامع الصغير (١٧٨)].

وقد بيَّن الله عزَّ وجلّ كراهيته للإسراف في المأكل والمشرب، ليدل على كراهيته للإسراف في كل شيء.

قال تعالى عز وجل: ﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف: ٣١].

وقال ﷺ: «كلوا، واشربوا، والبسوا، وتصدّقوا في غير إسراف، ولا مَخِيلةٍ» [رواه البخاري تعليقاً في أول كتاب اللباس: ١٠/ ٢٦٤].

فإذا كان الإسراف في الأكل والشرب ممنوعاً وجب أن يكون الإسراف في كل وجوه الإنفاق ممنوعاً، لأن ذلك إنما يكون بصرف المال في أكثر مما يحتاج إليه، وفي هذا تضييع له، وقد كره الدين إضاعة المال.

قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى كره لكم: قيل، وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» [رواه البخاري (٦٤٧٣) في الرقاق؛ ومسلم (١٧١٥) في الأقضية].

ومن تضييع المال وضعه حيث يضرُّ ولا ينفع، فكثرة الأكل والشرب تضرُّ بالصحة، وتضعف البدن، وإنفاق المال في المحارم والمآثم يضر بالدين والدنيا، ووضع المال بين أيدي السفهاء والمغفلين، والمسرفين والمبذرين، إهدار له، وكل هذا حرام، وهو ـ مع أشد الأسف ـ واقع في المسلمين، فكم يسرفون في المآكل والمشارب، وكم ينفقون الأموال في الثياب والأثاث، والترف والبذخ، وتضييع تلك الأموال بغير كبير نفع ولا فائدة، ولو وضعوها في أعمال مثمرة نامية لعادت على الأمة بالخير الوفير، والمصالح الكثيرة.

وليست نقيصة البخل والشحِّ بأقل شناعة وبشاعة من نقيصة السرف والتبذير، لأنها حجز للمال عن مواطن الخير، ومنع له من قضاء الحاجات، وأداء الحقوق، وكتمان لفضل الله تعالى على عباده، ولهذا ذمَّ الله تعالى البخل والشح، كما ذم الإسراف والتبذير، فقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظُّلم، فإنَّ الظُّلم ظُلمات يوم القيامة، واتقوا الشُّحَّ، فإن الشُّحَّ أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» [رواه مسلم (٢٥٧٨) في البر].

وأبشع البخل ماكان على النفس، والأهل، والرحم، والجوار، والأصدقاء.

قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يُضيِّع مَن يقوت» [رواه أبو داود (١٦٩٢) في الزكاة].

وقال: «ما آمن بي من بات شبعان، وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم» [رواه الطبراني (٧٥١)؛ صحيح الجامع الصغير (٥٥٠٥)].

فإذا كان السرف والتبذير، والبخل والشّح، مكروهاً وممقوتاً، كان القصد والاعتدال في الإنفاق ممدوحاً ومحبوباً، وقد جاء المدح على هذا الخلق، والثناء على أهله.

قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقد جاء الأمر بالتوسط والاعتدال في الإنفاق صريحاً، وذلك بالنهي عن السرف، والتقتير.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقال عز وجل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٦-٢٧].

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «ما عال من اقتصد» [ذكره في كشف الخفاء (٢٢٢٠) وقال: رواه أحمد].

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إني لأبغض أهل بَيْتٍ ينفقون رزق أيام في يوم واحد».

وقد قيل: حُسنُ التدبير نصف الكسب، وسوء التدبير داعية البؤس. وقد استفاضت أقوال العلماء والحكماء في مدح الاعتدال في الإنفاق، وذم الإسراف والبخل.

روي عن سعيد بن جُبير رحمه الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].
قال: في غير إسراف ولا تقتير.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: ما أنفق رجل على أهله في غير إسراف، ولا تقتير، فهو في سبيل الله عزَّ وجلّ.

وروي عن الأشعث أنه قال: سمعت الحسن يقول في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩]. قال: نهى عن السرف والبخل.

وقيل: الهدْيُ الصالحُ، والسَّمْتُ الصالح، والاقتصاد جُزءٌ من خمسةٍ وعشرين جزءاً من النبوة.

وقيل: الرِّفقُ في المعيشة خير من بعض التجارة.

وقيل: إذا أراد الله تعالى بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرِّفق في المعاش.

والرفق: الاقتصاد والاعتدال في الإنفاق.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن من فقهك رِفْقَكَ في معيشتك.

وقال ميمون بن مهران رحمه الله تعالى: التودُّدُ إلى الناس نصف العقل، وحسنُ المسألة نصف الفقه، والرفق في المعيشة يلقي عنك نصف المؤنة.

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: حُسن التدبير مع الكفاف أكفُّ من الكثير مع الإسراف.

ولشدة حرص الدين على الاعتدال، ورغبته في التوسط في كلِّ شأن أمر بالقصد، وترك المبالغة حتى في العبادة.

عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ دخل عليها، وعندها امرأة، قال: «من هذه؟». قالت: هذه فلانة تذكر من صلاتها، قال: «مَه، عليكم بما تطيقون،

فوالله لا يملُّ الله حتى تملُّوا» [رواه البخاري (١١٥١) في التهجد؛ ومسلم (٧٨٥) في صلاة المسافرين].

وقال رسول الله ﷺ: «هلك المتنطِّعون». قالها ثلاثاً. [رواه مسلم (٢٦٧٠) في العلم].

والمتنطّعون: المتشدِّقون.

وقال: «القَصْدَ، القصد تبلغوا» [رواه البخاري (٦٤٦٣) في الرقاق].

وعن أنس رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ المسجد، فإذا حبلٌ ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا؟». قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فَتَرتْ تعلقت به، فقال النبي ﷺ: «حلُّوه، ليُصلِّ أحدكم نشاطه، فإذا فَتَرَ، فليرقد» [رواه البخاري (١١٥٠) في التهجد؛ ومسلم (٧٣٤) في صلاة المسافرين].

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء ثلاثة رَهْط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً، ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء، فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا، وكذا، أما والله، إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [رواه البخاري (٥٠٦٣) في النكاح؛ ومسلم (١٤٠١) في النكاح].

* * *

الشعبة الثالثة والأربعون

ترك الغلّ والحسد ونحوهما

الغلُّ: هو الحقد، وإضمار السوء، وإرادة الشرِّ للغير.

والحسد: كراهية النعمة يراها لأخيه، والاغتمام بها، وتمني زوالها.

والغلُّ والحسد داءان قبيحان، وخلقان رديئان، وتخليص القلب والنفس منهما من الإيمان، ومن شعبه العظيمة، وما ينبغي لمؤمن أن ينطوي قلبه على شيء منهما، لما فيه من الإثم، ولما يصحبهما من الشر. وقد أخبر الحق تبارك وتعالى أنهما من أخلاق اليهود ومن على شاكلتهم من أهل الكتاب. قال تعالى فيهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

وقال: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: ١٠٩].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١١٨ ـ ١٢٠].

لذلك أمر الله عز وجل النبي ﷺ أن يستعيذ بالله من شرِّ الحاسدين، وأمر النبي ﷺ أمرٌ لأمته.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾.

وأخبر سبحانه وتعالى أن السلامة من الغل والحقد من صفات المؤمنين الذين قال عنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وأخبر سبحانه وتعالى أنَّه أنعم على أهل الجنة بالسلامة والطهارة من هذا الداء العضال، والخلق الذميم، الذي يؤرِّق صاحبه، ويشوّه كماله، فقال: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

هذا وقد نهى النبيّ ﷺ عن هذه الصفات الذميمة من الغل، والحقد، والبغض، والحسد، فقال ﷺ: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحلُّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليالٍ، يلتقيان، فيعرض هذا، ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام» [رواه البخاري ٧٥٢٧ في التوحيد].

وفي رواية: «لاتحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه مسلم ٢٥٥٩ في البر].

وقد بيَّن النبي ﷺ ما للحسد، وأضرابه من الضرر والخطر على صاحبه، فقال: «إياكم والحسدَ، فإنَّ الحسدَ يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب، أو قال: العشب» [رواه أبو داود (٤٩٠٣) في الأدب].

وقال: «دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: الحسدُ، والبغضاءُ، هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشَّعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده، لا تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أفلا أنبئكم بما يثبِّت ذاكم لكم؟ أفشُوا السلام بينكم» [رواه الترمذي ٢٥١٠].

وقال ﷺ: «تفتحُ أبواب الجنَّة يومَ الإثنين، ويوم الخميس، فيغفر لكلِّ عبدٍ لا يشركُ بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقال: أنظِروا هذين

حتَّى يصطلحا، أنْظِروا هذين حتَّى يصطلحا» [رواه مسلم (٢٥٦٥) في البر].

إنَّ الحاسد إنسان غبيٌ جهول، سيِّئ الخلق، عديم الأدب مع الله تعالى، لأنه ـ بلسان حاله ـ يتَّهم ربَّه عز وجل في حكمته، ويسخط على قَسْمِه في عباده، وكأنه لا يدين بقول ربه عز وجل: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٢].

والحقود صاحب الغلِّ ليس بأحسن حالاً من الحسود، لكراهيته للناس، وحقده عليهم، وعدم خوفه من الله تعالى في أذيتهم وكراهيتهم.

إن الحسد أول ذنب عُصي به رب العالمين، فإنه هو الذي حمل إبليس على رفض أمر الله عز وجل بالسجود لآدم، وعلل رفضه هذا بقول: ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

والحاسد جارٍ على سنّة إبليس، ماضٍ على خُلقه، قد وطَّن نفسه أن يصيبه ما أصاب إبليس من المقت والعقاب.

إن الحسد هو الذي حمل أولاد يعقوب عليه الصلاة والسلام أن يكيدوا لأخيهم يوسف، ويتآمروا على قتله، فكانت العاقبة له. قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠]. ونفذوا فيه جريمتهم ـ حسداً ـ ولم يمنعهم من ذلك إخوته لهم، وصغر سنه بينهم.

والحسد أيضاً سهَّل على ابن آدم الأول أن يقتل أخاه ظلماً بغير حق.

قال الله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

أيها المؤمن، أيها المسلم، إيَّاك والحسد، إياك والغل، إياك والقطيعة وكراهية الناس، فإن الله عز وجل يلوم على ذلك ويؤاخذ به، ويمقت عليه.

والحاسد معذّب في نفسه، ممقوت بين قومه، مذموم في الدنيا والآخرة.

قال الأحنف بن قيس: لا راحةَ لحسود، ولا وفاءَ لبخيل، ولا صديقَ لملول، ولا مروءة لكذوب، ولا رأيَ لخائن، ولا سؤددَ لسيِّئ الخُلق.

وقال بعض الحكماء: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد.

وقال بعضهم:

لله درُّ الحسد ما أعدله ... بدأ بصاحبه فقتله

* * *

الشعبة الرابعة والأربعون

تحريم أعراض الناس وما يجب من ترك الوقيعة فيها

أعراض الناس: عبارة عما يتمتعون به من شرف، ومكانة، وسمعة طيبة، ومدح بين الناس، وهذه أمور يجب حفظها على الناس، واحترامها لهم، ولا يجوز خدشها، ولا الإساءة إليها، لأن ذلك يؤلمهم، ويسيء إليهم، والمسلم أخو المسلم، ينبغي أن يحبَّ له ما يحبُّ لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، فكما لا يحب أحد لنفسه أن تنتقص حرمته، أو يساء إلى شرفه، أو يحطَّ من كرامته، فكذلك يجب عليه أن لا يحب ذلك لأخيه، لأن ذكر النقائص، وتشييعها بين الناس، ونشر العيوب من باب تشييع الفواحش بين الناس، وتحبيبها إليهم، وترغيبهم فيها، والله عز وجل يقول: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

فحفظ أعراض الناس واجب، وهو من الإيمان، وشعبه العظيمة، والوقوع في أعراضهم حرام، وهو من المعاصي والمنكرات.

والله عز وجل يقول: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

لذلك كان قذف المحصنين من المؤمنين، والمحصنات من المؤمنات، ورميهم بالفواحش من الوقوع في أعراضهم، ومن المنكرات التي ينبغي أن يعاقب فاعلها بعقوبة تردعه عن اقترافها، أو التفكير فيها، سواء كان هذا القاذف رجلاً أم امرأة، وسواء كان المقذوف أيضاً رجلاً أم امرأة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا

﴿تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

فقد أوجب الله سبحانه وتعالى على هؤلاء القاذفين ـ ما لم يؤتوا بأربعة شهداء ـ ثمانين جلدة على مَرْأىً من الناس ومسمع، كما أوجب ردَّ شهاداتهم، مع دمغهم بالفسق، وهذه صفة تشينهم، وتحطُّ من أقدارهم، كما شانوا الناس، وحطوا من أقدارهم.

إن الخوض في أعراض الناس، ونشر قالة السوء عنهم جريمة، وليس لفاعلها مخرج من الإثم، والمؤاخذة عند الله تعالى، ورد اعتبارهم إليهم، إلا أن يتوبوا إلى الله عز وجل توبة نصوحاً.

ويدخل في قذف أعراض الناس وانتهاك حُرماتهم قذف الزوجة، وانتهاك حرمتها، فإنه جناية موجبة للحدِّ، ولا مخرج للزوج من هذه العقوبة إلا بالملاعنة، وهي أيمان شديدة، وشهادات بالله مغلظة، تؤكد صدقه، وتقوم مقام البينة في تبرئته من الفرية على زوجته، وتدفع عنه حدَّ القذف.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝٦ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٦ ـ ٧].

وعندئذٍ تثبت على الزوجة جريمة الزنى، وتستحق إقامة الحد عليها، ولكن الله عز وجل جعل لها أيضاً مخرجاً لنفي التهمة، والنجاة من الحد، وذلك بأن تلاعن هي أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝٨ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٨ ـ ٩].

ويترتب على الملاعنة بين الزوجين وجوب الفرقة المؤبدة بينهما، لأنه ليس من المعقول بقاء الحياة الزوجية بينهما بعد هذه التهم، والتلطيخ بالعار.

وكما يجب الكفُّ عن قذف الناس واتهامهم في أعراضهم، يجب أيضاً

الكفُّ عن غيبتهم، وشتيمتهم، وتعييبهم، وانتقاص أقدارهم، والتجسس عليهم، لأن هذا كله حرام، لما فيه من الإساءة إلى الناس، وخدش أعراضهم، ولما فيه من طعن الأخوة بينهم في صميمها.

قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ بحَسْبِ امرئٍ من الشَّرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دمه، وماله، وعرضه» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البرّ].

وقال رسول الله ﷺ: «أتدرون ما الغيبة؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ماأقول؟. قال: «إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ماتقول فقد بهتَّهُ» [رواه مسلم (٢٥٨٩) في البر].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس، يخمِشُونَ وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء، يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم» [رواه أبو داود (٤٨٧٨) في الأدب].

أي يغتابونهم، ويتجسسوا عليهم، لينشروا عيوبهم، ويحطّوا من أقدارهم.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٢].

وقال رسول الله ﷺ: «يامعشر من أسلم بلسانه، ولم يُفْضِ الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبعْ عورة أخيه المسلم تتبَّع الله عورته، ومن يتَّبع الله عورته يفضحْه، ولو في جوف رَحْلِهِ» [صحيح الترمذي (١٦٥٥)].

وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه مسلم (٢٥٦٣) في البر].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللَّعانون شفعاءَ، ولا شهداءَ يوم القيامة» [رواه مسلم (٢٥٩٨) في البر].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحشِ، ولا البذيء» [رواه الترمذي (١٩٧٨) في البر].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أيُّ الإسلام أفْضَلُ؟ قال: «من سلم المسلمون من لسانه، ويده» [رواه البخاري (١١) في الإيمان؛ ومسلم (٤٢) في الإيمان].

وقال ﷺ: «إن أربى الرِّبا استطالةُ المرء في عرض أخيه المسلم» [رواه أبو داود (٤٨٧٦) في الأدب].

وقال عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

قيل الهمز: التعييب باللسان. واللمز: التعييب بالعين واليد.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «إذا أردت أن تذكر عيوب الناس، فاذكر عيوب نفسك».

وقال ذو النون رحمه الله تعالى: «من نظر في عيوب الناس عمي عن عيوب نفسه».

وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى: «مَن اشتغلَ بنفسه شُغِلَ عن عيوبِ الناسِ».

هذا وينبغي على العبد أن يعلم أن عليه رقباء من ملائكة الله تعالى، يسجلون

عليه أقواله، وسيشهدون عليه إن كان أساء إلى أحد بقول أو فعل.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار: ١٠ـ١٢].

وقال: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [سورة قَ: ١٨].

إن على المرء أن يبتعد عن مواطن الشبه، ومواضع الريب، ليسلم بنفسه من قالة السوء.

وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: «إني لأكره أن أُرى في مكان يُساء بي الظن فيه».

* * *

الشعبة الخامسة والأربعون

إخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء

الإخلاص: معناه: تخليص الشيء من الشوائب التي تغايره، وتَعْلَقُ به، وليست من جنسه، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

فخلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من دم، أو فرث. وعليه فالإخلاص في الدين، إنما يعني تصفية العمل، وتخليصه من إرادة غير الله تعالى، حتى يتجرَّد له وحده سبحانه وتعالى، ليس فيه شائبة من أهواء النفس وحظوظها، ومراقبة الناس، ومراعاة جانبهم، وهو ضدُّ الرياء، والشرك.

ولقد قال أهل العلم والتقوى في بيان الإخلاص أقوالاً كثيرة، تكاد تكون متقاربة في المعنى والمراد.

فقيل: الإخلاص: إفراد الحقِّ سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد. وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله تعالى دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخَلق.

وقال بعضهم: الإخلاص: التوقِّي عن ملاحظة الخَلق.

وقال الفضيل بن عياض: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقيل الإخلاص: أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

ومعلوم أن الإخلاص محلّه القلب، ويُعبَّر عنه بالقصد، والنيّة، والإرادة.

فإن كان للعبد في عمله نية وإرادة وقصد، وكانت نيته وإرادته وقصده ابتغاء

وجه الله تعالى، كان عمله خالصاً لله تعالى، وترتَّب عليه القَبول، وحصل به الأجر والثواب. وإن كانت نيته وإرادته وقصده لغير الله تعالى، كان عمله باطلاً، لا ثمرة له في الدنيا، ولا في الآخرة.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى: أحبُّ لكلٍّ مَنْ عمل عملاً من صلاة، أو صيـام، أو صدقة، أو نوع من البرِّ أن تكون النيةُ متقدمة في ذلك قبل العمل.

فحظُّ العامل إذاً من عمله على قدر نيته، فإن كانت صالحة فعمله صالح، وله أجره، وإن كانت فاسدة، فعمله فاسد، وعليه وزره. والأدلة على هذا من كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله ﷺ كثيرة.

والمسلم مأمور بالإخلاص، في كل عمل، ومكلف بتطهير مقاصده من السوء وإرادة غير الله تعالى، والإخلاص فرض، وشرط لقبول العمل، وهو شعبة من شُـعب الإيمان العظيمـة؛ لأن المخاطب والمطالب بـه إنما هو المؤمن بالله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البيّنة: ٥].

وقال عز وجل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٥-١٦].

وقال: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

وقال رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها، حتى ما تجعل في فِي امرأتك» [رواه البخاري (١٢٩٥) في الجنائز؛ ومسلم (١٦٢٨) في الوصية].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حميَّةً، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [رواه البخاري (٢٨١٠) في الجهاد؛ ومسلم (١٩٠٤) في الإمارة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرَّجلِ جماعة تزيد على صلاته في سوقه وبيته بضعاً وعشرين درجة، وذلك أن أحدهم إذا توضأ، فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجد، لا يريد إلاَّ الصلاة، لا يَنْهزُهُ - أي يخرجه - إلا الصلاة، لم يَخْطُ خُطْوةً إلاَّ رُفع له بها درجة، وحُطَّ عنه بها خطيئةً، حتَّى يدْخُلَ المسجِدَ، فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه، والملائكة يصلُّون على أحدكم ما دام في مجلسه الذي صلَّى فيه، يقولون: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له، اللهم تُبْ عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه» [رواه مسلم (٦٤٩) في الصلاة].

ويجمع هذا الباب كله قول النبي ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرِئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يُصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» [رواه البخاري في أول صحيحه؛ ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة].

• • •

هذا بعض ما جاء في الإخلاص، ووجوب التخلي به، وما جاء في التحذير من الرياء أوفى وأكثر.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ - ٧].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّركِ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه» [رواه مسلم (٢٩٨٥) في الزهد].

ويأتي في هذا الباب من قول الرسول ﷺ ما ترتعد لهوله الفرائص، وتشيب منه الرؤوس.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه. رجل اسْتُشْهدَ، فأُتِيَ به، فعرَّفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى اسْتُشْهدتُ. قال: كذبت، ولكنَّك قاتلت لأن يقال: جريءٌ، وقد قيل، ثم أُمِرَ به، فسحب على وجهه حتى أُلقي في النار.

ورجلٌ تعلَّم العلم وعلَّمهُ، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلّمت العلم وعلمتهُ، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن، ليقال: قارىء، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه، حتى ألقي في النار.

ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال، فأتي به، فعرَّفه نعمه، فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحبُّ أن ينفقَ فيها إلا أنفقْتُ فيها لك. قال: كذبت، ولكنك فعلت، ليقال: هو جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار» [رواه مسلم(١٩٠٥) في الإمارة].

* * *

الشعبة السادسة والأربعون

السرور بالحسنة والاغتمام بالسيئة

الحسنة: هي العمل الصالح الذي شرعه الدين، ودعا إليه. ورغب فيه، مثل: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وقراءة القرآن، والذكر، والدعاء، والوفاء، وصدق الحديث، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعطف على اليتيم، والإحسان إلى الفقير والمسكين، ونصرة المظلوم، ودفع الظالم، وغير ذلك من الخصال الحميدة، والأعمال المبرورة، التي أمر بها الإسلام، ورغب فيها الدين. وهي كثيرة، لا يجهلها المسلم، مهما كان حظه قليلاً من العلم.

وأما السيِّئة: فهي كل عمل منكر حرَّمه الدين، ونهى عنه، وتوعد عليه، وخوَّف منه، مثل: القتل، والسرقة، والربا، وشرب الخمر، والزنى، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والكذب، والغيبة، والنميمة، والرشوة، والغش، والكبر، والحسد، وأبشعها وأشنعها ما ذكرها النبي ﷺ، وسماها الموبقات، أي المهلكات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات» قالوا: يارسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسِّحرُ، وقتل النَّفْسِ التي حرَّم الله إلَّا بالحق، وأكلُ الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتَّولي يومَ الزَّحْفِ، وقذفُ المحصنات المؤمنات الغافلات» [رواه البخاري(٢٧٦٦) في الوصايا؛ ومسلم(٨٩) في الإيمان].

فالسرور عند فعل الحسنة، والرضى عند عملها، والاغتمام والحزن عند عمل السيئة من الإيمان، ومن شُعبه العظيمة، لأن الإيمان يدعو إلى هذا، ويرغِّب

فيه، لأنه مظهر من مظاهر الإقبال على الخير، والحب له، والرغبة فيه، كما أن الاغتمام عند فعل السيئة مظهر من مظاهر النفرة منها، والكراهية لها، وهذا لا يكون إلا من قلب سكن الإيمان في أعماق، واستقر في حناياه.

ومن حق المؤمن وواجبه أن يعمل الحسنات، ويدأب على الخيرات والمبرّات، ويسرَّ بفعلها، ويستبشر بتمامها، ومن واجبه أيضاً أن يبتعد عن السيئات والمنكرات، وينفر منها، ويستاء لها، فإذا غلبه الهوى، فوقع بشيء منها ندم، وتألم، وتاب واستغفر.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا، وإذا أساؤوا استغفروا» [رواه أحمد: ٦/ ١٢٩].

وقال رسول الله ﷺ: «من سرَّتهُ حسنته، وساءته سيِّئته فهو مؤمن» [صحيح الجامع الصغير (٦٢٩٤)].

قال العلماء: ومعنى هذا، أن من عمل حسنة فُسرَّ أن وفقه الله تعالى لها، ويسَّرها له، حتى حصلت في ميزانه، فجلس فرحاً مسروراً بما يرجوه من رحمة الله تعالى، وفضله. أو عمل سيئة، فساءه أن خلاَّه الله تعالى ونفسه، حتى عمل بما سوَّل له الشيطان، وجلس كما يجلس المصاب مهموماً كئيباً حياء من الله تعالى، وخوفاً من مؤاخذته، فذلك دليل على صدق إيمانه، وخلوص اعتقاده، فإن الثقة بالوعد والوعيد لا تكون إلا من قوة التصديق بالله تعالى ورسوله ﷺ.

فأما من سرته حسنته من حيث يثنى عليه، وتذكر عنه، فقد جاء عن النبي ﷺ: أن رجلاً قال له: يا رسول الله، إني أعمل العمل أسُر به، فإذا اطُّلع عليه سرَّني. فقال: «لك أجران، أجرُ السرِّ، وأجر العلانية» [رواه الترمذي(٢٣٨٤) في الزهد، وقال: حسن غريب].

ومعنـاه: أنه إذا عمل خيراً سـرَّه أن يذكر به، فيكون محموداً في الناس، لا مذموماً، ولا حمدَ أبلغ من أن يقال: إنه قوَّام بحمد ربه عز وجل، وليس هذا من باب المراءاة في شيء، إنَّما المراءاة أن يعمل الخير، لا يريد به وجه الله تعالى، ولا يبتغي به مرضاته، ولا ثوابه، وإنما يريد أن يقول الناس: هذا رجل خير ومعروف، فهذا وأمثاله هو الذي قال الله عز وجل في أعمالهم: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

فأعمال الناس، وتصرفاتهم إنما تحكمها دائماً مقاصدهم ونياتهم، فمن قصد بعمله وجه الله تعالى سلم له عمله، وكان له أجره، ومن قصد به غير ربه بطل سعيه، وخاب فأله.

قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دُنيا يُصيبها، أو إمرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه» [رواه البخاري في أول صحيحه؛ ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة].

فهذا ميـزان دقيق، ومعيـار حسَّـاسٌ، والله عز وجل خبير، ومطلع على الأسرار والنوايا، وعالم بما في القلوب والنفوس.

قال عز وجل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة قٓ: ١٦ ـ ١٨].

فإذا كان كذلك، فلا مناص للعبد ـ إن أراد أن يسلم له عمله الصالح ـ إلا أن يخلص لله العمل، ولا يقصد به إلا رضاه، ومن حقه بعد ذلك أن يفرح، ويسعد أن وفقه الله تعالى للعمل الصالح، والإخلاص به.

وشـتان بين من يفرح بحسـناته شكراً لله تعالى، ويحزن لسيئاته خوفاً منه وبين أولئك الأغبيـاء المفتونين، الذين يفرحـون بعمل المعاصي، ويسعدون إذا قطعوا الأوقـات بالفجور، ويضحكـون بملء أشداقهم إذا قضوا سهرة محرمة،

أو قطفوا لذَّة فاجرة، وتراهم لا يخجلون أن يظهروا سعادتهم بمعصية الله تعالى، فيتحدثون أمام الأصحاب والخلاّن بما اقترفوه من المخازي والآثام، وإذا ما ساقتهم الأقدار إلى مكان برٍّ وخير ركبهم الغم، وحلَّ بهم الألم، فتراهم تدور أعينهم من الغيظ كالذي يغشى عليه من الموت، ثم لا يلبثون أن يتسللوا لواذاً، بحيث لا يراهم رقيب، ولا تقع عليهم عين قريب أو بعيد، إن هؤلاء هم أوقح الناس، وأقبحهم حالاً ومآلاً، ولعلهم أجدر الناس بقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٦].

* * *

الشعبة السابعة والأربعون

معالجة كل ذنب بالتوبة منه

الذنوب: هي المعاصي والمخالفات، وما حرمه الله عز وجل على عباده، وما نهاهم عنه، وتوعدهم عليه.

والمعاصي: سهام إذا انتشرت أصابت سعادة الإنسان، وأمن المجتمع، وأغضبت الرب تبارك وتعالى، وعرَّضت حياة الأمة للخراب والدمار.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

ولهذا كانت التوبة من الذنوب: صغيرها، وكبيرها، واجبة.

والتوبة: هي الرجعة. ومعنى تاب إلى الله: رجع إليه.

وحدُّ التوبة: القطع للمعصية في الحال، إن كانت دائمة، والندم على ما سلف منها، والعزم على ترك العود إليها تعبداً لله تعالى، وتقرباً بذلك إليه، وإن كان للذنب تعلق بأحد من الناس، فلا بدَّ من استرضائه، أو ردُّ ماله إليه.

والتوبة من الذنوب تقرباً لله تعالى، من الإيمان، ومن شُعبه العظيمة، لأن التوبة إنما تنبع من إيمان العبد بربه، وخوفه منه.

ومن رحمه الله عزَّ وجلّ بعباده، وإحسانه إليهم أنْ فتح لهم أبواب التوبة من الذنوب، ودعاهم إلى ليِّ أعناقها، والتخلص منها، وعدم الاسترسال فيها، ووعدهم بالعفو عنها، وقبول التوبة منها، وكلامه سبحانه وتعالى في هذا الباب طافح بالبِشر، وحافل بالترغيب بالإقبال على الله تعالى بحُسن المتاب.

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وقال: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

وقد نهى الله وتعالى عباده عن اليأس من رحمته وعفوه، والقنوط من فضله وإحسانه، وأطمعهم بجزيل جوده وكرمه، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقد بشر الله عباده أن التوبة النَّصوح، المشفوعة بالعمل الصالح هي السبيل الفلاح والنجاح، والسلامة من العقاب والعذاب، فقال عزَّ من قائل: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

وقال: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

هذا، ومع غنى الله عنَّا، وحاجتنا وافتقارنا إليه، يفرح سبحانه وتعالى بتوبتنا إليه، ويرضى عنَّا بأوبتنا إلى أعتاب جنابه الكريم، ورحمته التي وسعت كل شيء.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أشدُّ فرحاً بتوبةِ عبْدِه حين يتوب إليه من أحدِكم كان على راحلته بأرضِ فلاةٍ، فانْفلتتْ منه،

وعليها طعامُهُ وشرابُهُ، فأيسَ منها، فأتى شـجرةً، فاضطجعَ في ظلها، وقد أيـسَ من راحلته، فبينما هـو كذلك، إذ هو بها قـائمة عنده، فأخذ بخِطامها، ثم قال من شـدة الفرح: اللَّهم أنْتَ عبدي، وأنا ربـك، أخطأ من شدة الفرح» [رواه مسلم (٢٧٤٧) في التوبة].

ومما ينبغي أن يُعلم أن التوبة إنما تقبل ما دامت الدواعي إلى الذنوب قائمة بالعبد، فإذا بطلت تلك الدواعي بسقوط القوى، وبطلان الشهوات، والاستسلام للممات، فقد انقطع وقت التوبة، وأوصدت دونها الأبواب.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٧ـ١٨].

عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغرُ» [رواه الترمذي (٣٥٣١) في الدعوات].

والمراد بالغرغرة: حالة الاحتضار.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يبسـط يده بالليل ليتوب مُسـيءُ النهارِ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها» [رواه مسلم (٢٧٦٠) في التوبة].

إن العاقل من يسرع إلى التوبة، ويخلِّصُ نفسه من المسؤولية، قبل فوات الأوان، لينام على فراشه، وليس عليه تبعة لأحد، فإن أحدنا لا يدري متى تكون النهايـة، ولا يعرف متى ينتهي الأجل، فكم من قوي مات فجأة، وكم من غني أُخذ على حين غرَّة.

إنَّ السعيد من جعل من رسول الله ﷺ قدوة له، ومثالاً يحتذيه، فقد كان عليه الصلاة والسلام ـ على براءة جانبه من التبعات، وسلامة موقفه من المعاصي ـ يُكثر من التوبة إلى الله عز وجل، والاستغفار من الذّنوب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّةً» [رواه البخاري (٦٣٠٧) في الدعوات].

وعن الأغرِّ بن يسار المزني رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها النَّاسُ، توبوا إلى الله، فإني أتوبُ إليهِ في اليومِ مئةَ مرةٍ» [رواه مسلم (٢٧٠٢) في الذكر].

وروي عن أبي بكر الواسطي رحمه الله تعالى أنه قال: «التأني في كل شيء حسنٌ إلا في ثلاث خصال: عند وقت الصلاة، وعند دفن الميت، والتوبة عند المعصية».

وقال بعض الحكماء: «حِرفَةُ العارف ستة أشياء: إذا ذكر الله افتخر، وإذا ذكر نفسه احتقر، وإذا نظر في آيات الله اعتبر، وإذا همَّ بمعصية أو شهوة انزجر، وإذا ذكر عفو الله استبشر، وإذا ذكر ذنوبه استغفر».

وقال بعضهم: «إنما تعرف توبة الرجل في أربعة أشياء:

أحدها: أن يمسك لسانه عن الفضول، والغيبة، والكذب.

والثاني: أن لا يرى لأحد في قلبه حسداً، ولا عداوة.

والثالث: أن يُفارق أصحاب السوء.

والرابع: أن يكون مُستعداً للموت، نادماً مستغفراً لما سلف من ذنوبه، مجتهداً على طاعة ربه».

وقال بعض التابعين: «إن المذنبَ يذنب، فلا يزال نادماً مستغفراً، حتى يدخل الجنة».

اللهم تب علينا، واغفر لنا، وأدخلنا الجنة برحمتك، يا أرحم الراحمين.

* * *

الشعبة الثامنة والأربعون

القرابين

القرابين: جمع قُرْبان، والقُرْبان: ما يتقرَّب به العبد إلى الله تعالى من أعمال البرِّ.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ﴾ [المائدة: ٢٧].

والمراد بالقرابين في بحثنا هنا ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من اللحوم والذبائح. والتقرب إلى الله عز وجل بالذبائح قُرْبة وطاعة، وهي من مظاهر الإيمان، وشعبه العظيمة. وهذه القرابين التي هي عبادة وطاعة أنواع، نذكر منها ثلاثة:

ـ الهدي إلى بيت الله الحرام.

ـ الأضحية.

ـ العقيقة.

أما **الهدي** فقد جاء ذكره، والترغيب به في الكتاب والسنَّة.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ [المائدة: ٩٧].

والقلائد: هي من الهدي، وهي ما يوضع في أعناقها ما يميزها، ويدل على أنها هَدْي لبيت الله تعالى، وإنَّما أفردت بالذكر لمزيد الاعتناء بها.

وقد ذكر الله عزَّ وجلّ أن في هذا الهدي مصالح للناس، وما تقوم به حياتهم، وذلك أنها طعمة لفقراء الحرم ومساكينه، وللناس في تلك الأماكن الطيبة، وفي هذا ترغيب بها، وحثٌّ عليها.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢].

أي لا تتعرَّضوا للهدي والقلائد بصدٍّ ولا ردٍّ، ولا أذًى، ودعوه ليصل إلى محلّه من أرض الله الحرام.

وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

وبهيمة الأنعام: هي الدواب من الإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وهي ما يجوز التقرب بها من الدواب.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٦-٣٧].

والبدن: جمع بدَنَة، وهي الإبل، سميت بذلك لضخامتها.

وشعائر الله: أعلام دينه، ومناسك حجه.

صواف: قائمة على ثلاث، ومعقولة الرابعة، والأفضل أن تنحر واقفة هكذا.

وجبت جنوبها: سقطت على الأرض بعد النحر.

القانع: الفقير المتعفف الذي لا يتعرض للناس بالسؤال.

المعتر: الذي يتعرض للناس بالسؤال.

واستحسان الهدي، واختياره من أحسن الأنعام من السنَّة.

قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

قال العلماء: تعظيم شعائر الله: استجادة الهدي، واستحسانه، واستسمانه.

وقد أهدى رسول الله ﷺ عام حجة الوداع إلى بيت الله الحرام مئة بدنة، نحر منها بيده الشريفة ثلاثاً وستين، وأعطى علياً رضي الله عنه، فنحر ما بقي. [رواه مسلم (١٢١٨) في الحج].

والهدي إلى بيت الله الحرام سُنّة، ويكون بالإبل، والبقر، والغنم، والمعز، وتُجزئ البدنة، والبقرة عن سبعة نفر إذا أحبوا أن يشتركوا في تقديمها.

ويجوز للمهدي أن يأكل من هديه، ويأكل منه الفقراء وغيرهم، فإنَّ النبي ﷺ أمر من كلِّ بدنة ببَضْعةٍ، فجعلت في قِدْرٍ، فطبخت، فأكل من لحمها، وشرب من مرقها. [رواه مسلم (١٢١٨) في الحج].

وقال ﷺ: «أفضل الحجِّ: العجُّ والثجُّ» [رواه الترمذي (٨٢٧) في الحج].

العجُّ: رفع الصوت بالتلبية.

الثجُّ: سيلان دماء الهَدْي والأضاحي.

وأما **الأضحية**، فهي أيضاً سنة مؤكدة، وقال بعض العلماء: بوجوبها على أهل الغنى واليسار. وقد دلَّ على مشروعيتها الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ [الكوثر: ٢].

قال بعض العلماء: المراد بالصلاة: صلاة العيد، وبالنحر: الأضحية.

وقد ثبت أن النبي ﷺ ضحَّى بكَبْشَيْنِ أمْلَحَيْن، أقرنيْن، ذبحهُما بيدِهِ، وسمَّى، وكبَّرَ، ووضعَ رِجْلَهُ على صفاحهما. [رواه البخاري (٥٥٥٨) في الأضاحي؛ ومسلم (١٩٦٦) في الأضاحي].

والأملح من الغنم: هو الأبيض، أو ما كان البياض فيه هو الغالب.

ويُسنّ للمضحّي أن لم يذبح بيده، أن يشهد أضحيته، عملاً بقول النبي ﷺ لابنته فاطمة، رضي الله عنها: «قومي إلى أضحيتك، فاشهديها، فإنه يغفر لك بأوّلِ قطرةٍ تقطرُ من دمها كلَّ ذنب عملتيه» [رواه البيهقي (في السنن الكبرى): ٥/ ٢٣٨].

وهذا دليل واضح على أن الأضحية عبادة، وأنها من الإيمان.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: ضحى رسول الله ﷺ بكَبشٍ، وقال عند ذبحه «باسمِ اللهِ، اللَّهم تقبلْ من مُحمَّدٍ، وآلِ مُحمَّدٍ، ومن أمة مُحمَّدٍ» [رواه مسلم (١٩٦٧) في الأضاحي].

ويدخل وقت الأضحية بعد صلاة عيد الأضحى، ويستمر إلى آخر أيام التشريق الثلاثة بعد يوم النحر.

عن البراء بن عازب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أوَّلَ ما نَبْدأُ به في يومنا هذا أن نصلِّيَ، ثم نرجعُ فننحرُ، مَن فعلَهُ فقد أصاب سنَّتَنا، ومن ذبح قَبْلُ، فإنَّما هو لحمٌ قدَّمه لأهله، ليس من النُّسكِ في شيْءٍ» [رواه البخاري (٥٥٤٥) في الأضاحي؛ ومسلم (١٩٦١) في الأضحية].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن ذبح قبل الصلاة، فإنما ذبح لنفسه، ومن ذبح بعد الصلاة فقد تمَّ نُسُكُهُ، وأصابَ سُنَّةَ المسلمينَ» [رواه البخاري (٥٥٤٦) في الأضاحي].

ويجب أن تكون الأضحية سليمة من العيوب التي تخلُّ باللحم.

قال رسول الله ﷺ: «أرْبَعٌ لا تُجْزِىءُ في الأضاحي: العَوْراءُ البيِّن عَوَرُها، والمريضةُ البيِّن مرضُها، والعرجاءُ البيِّنُ عَرَجُها، والعَجْفاءُ التي لا تُنْقي» [رواه أبو داود (٢٨٠٢)؛ والترمذي (١٤٩٧)].

العجفاء: الهزيلة.

لا تنقي: لا مخَّ لها من شدة الهزال.

وعن علي رضي الله عنه، قال: «أمَرَنا رسولُ الله ﷺ أن نَستشْرِفَ العيْنَ، والأذنَ، وأن لا نضحِّي بمُقابَلَةٍ، ولا مُدابَرَةٍ، ولا شَرْقاءَ» [رواه الترمذي (١٤٩٨)].

مقابلة: قطع مقدَّم أذنها.

مُدابرة: قطع مؤخر أذنها.

شرقاء: شُقَّت أذنها.

خرقاء: مثقوبة الأُذن ثقباً مستديراً.

قال العلماء: ويقاس على هذه العيوب كل ما كان مثلها في الهزال وإنقاص اللحم.

ويشترط لصحة الأضحية أيضاً أن تبلغ سنّاً معينة. فشرط الإبل أن يتم خمس سنين، وشرط البقر والمعز أن يتم سنتين، وشرط الغنم أن يتم سنة من العمر. وجوَّزوا في الغنم خاصة: الجَذَعُ إذا كان سميناً، وهو ما لم يتم السَّنَة بعد، وقد سقطت أسنانه الأمامية.

قال رسول الله ﷺ: «نعم، أو نعمت الأضْحيةُ الجَذَعُ من الضأن» [رواه الترمذي (١٤٩٩)].

وإنما يطالب بالأضحية ربُّ الإسرة، وتجزئ الواحدة عنه، وعن أهل بيته، وتجزئ البدنة والبقرة عن أهل سبعة بيوت، ويجوز للمضحّي أن يأكل من أضحيته، ويهدي لأصحابه، ويتصدّق على الفقراء، ويُسَنُّ أن يكون حظُّ الفقراء منها أوفر الحظوظ.

وأما **العقيقة**، فهي ما يُذبح من النَّعَم للمولود، وهي سنَّة مؤكدة، وعبادة يؤجَر فاعلها.

قال رسول الله ﷺ: «مع الغلام عقيقتُه، فأهريقوا عنه دماً، وأميطوا عنه الأذى» [رواه البخاري (٥٤٧١) في العقيقة].

وقال: «كُلُّ غلامٍ مُرْتهنٌ بعقيقتِهِ تُذْبحُ عنه يوم سابعة، ويحلقُ رأسُه، ويُسمَّى» [رواه البيهقي في (السنن الكبرى): ٩/ ٢٩٩].

وقد عقَّ النبي ﷺ عن الحسن، والحسين، وحلق شعورهما، وتصدَّقت

فاطمة رضي الله عنها بزنته فضة [رواه البيهقي في (السنن الكبرى): ٩/ ٣٠٤].

ولو ذُبح عن الغلام شاتين كان أفضل.

والعقيقة في شروطها كالأضحية، إلا أنها يتصدَّق بها مطبوخة، بخلاف الأضحية.

هذا، وللهدي، والأضحية، والعقيقة أحكام كثيرة تُطلَب من كتب الفقه، والله الموفق.

* * *

الشعبة التاسعة والأربعون

طاعة أولي الأمر

أولو الأمر: هم الإمام الأعظم، أو الخليفة، ومن في حكمه من ملك، ورئيس، وأمير، ثم كل أولياء الأمور ممن أُسند إليهم شيء من مصالح المسلمين، من وزير، ومدير، وقائد، وموظف، وغيرهم.

ووجود أولي الأمر هؤلاء في الأمة ضرورة لا بُدَّ منها، ولا محيص عنها، لأنّ أمر الأمة لا يمكن أن يستقيم إلا بوجود الأمراء، والولاة، والقائمين على مصالح الناس، ورعاية شؤونهم، وقديماً قيل:

لا يصلحُ النَّاسُ فوضى لا سَرَاة لهم ... ولا سَرَاة إذا جُهَّالُهم سَادُوا

والدين افترض في الأئمة، وولاة الأمور، ومن يُنيبونهم لإدارة مصالح المسلمين: الفضلَ، والعَدْلَ، والرَّحمةَ، والعلمَ، والفَهْمَ، وافترض فيهم نصح الأمة، والحرص عليها، والغيرة على مصالحها.

ومن ثَمَّ حذرهم من مغبة التفريط والتقصير، وحمَّلهم المسؤولية كاملة.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّكم رَاعٍ، وكلُّكم مَسْـؤولٌ عن رعيَّتـهِ: الإمام راعٍ، ومَسْـؤولٌ عن رعيَّتهِ. . . الحديث» [رواه البخاري (٨٩٣) في الجمعة؛ ومسلم (١٨٢٩) في الإمارة].

وعن أبي يعلى معقل بن يسار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عَبْدٍ يسترعيه الله رعيَّةً يَمُوتُ يوْم يموتُ، وهو غاشٌ لرعيته، إلاَّ حرَّمَ الله عليه الجنَّةَ» [رواه البخاري (٧١٥١) في الأحكام؛ ومسلم (١٤٢)، رقم (٢١) في الإمارة].

وفي رواية: «ما من أمير يلي أمور المسلمين، ثم لا يَجْهَدُ لهم، وينصحُ لهم، إلاَّ لم يَدْخُلْ معهم الجنَّةَ» [رواه مسلم (٢٢) في الإمارة].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهمَّ من ولي من أمْرِ أمَّتي شيئاً فَشَقَّ عليهم، فاشْقُق عليه، ومن ولي من أمْرِ أمَّتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به» [رواه مسلم (١٨٢٨) في الإمارة].

وعن أبي مريم الأزدي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ولاَّه الله شيئاً من أمور المسلمين، فاحْتجبَ دونَ حاجتهم، وخلَّتهم، وفقرهم احْتجبَ الله دُونَ حاجتِهِ، وخلَّتِهِ، وفقرِهِ يوم القيامة» [رواه أبو داود (٩٤٨) في الخراج؛ والترمذي (١٣٣٢) في الأحكام].

فمنصب الولاية إذاً منصب خطير، والمسؤولية فيه عظيمة، لكنه أيضاً منصب جليل القدر، لما فيه من إقامة الحقِّ، وتسيير أمور الخلق، ورعاية الصالح العام، والخاص.

وقد بيَّن النبي ﷺ فضل ولاة الأمور إذا أحسنوا، ومكانتهم عند الله تعالى إذا نصحوا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «سبعةٌ يُظلهم الله في ظلِّه يوْمَ لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه».

وذكر في طليعتهم: «إمام عادل» [رواه البخاري (٦٦٠) في الأذان؛ ومسلم (١٠٣١) في الزكاة].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقْسِطين عند الله على منابر من نورٍ: الذين يعدلُونَ في حكمهم، وأهليهم، وما وَلُوا» [رواه مسلم (١٨٢٧) في الإمارة].

وعن عياض بن حِمارٍ رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهْلُ الجنة ثلاثةٌ: ذو سُلْطانٍ مُقْسطٍ مُوفَّقٍ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقُ القلبِ لكلِّ

قربى ومُسلم، وعفيفٌ مُتعففٌ ذو عيال» [رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة].

ومن حظوة الولاة عند الله تعالى، وحسن طالعهم في الحياة، أن يهيِّئ الله لهم أعوان صدق، وبطانة خير، تكون لهم عوناً على الخير.

عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله من نبيّ، ولا استخلف من خليفة إلاَّ كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه، وبطانة تأمره بالشرِّ، وتحضُّهُ عليه، والمعصوم من عصم الله» [رواه البخاري (٦٦١١) في القدر].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بالأمير خيراً جعل له وزيرَ صدقٍ، إن نسي ذكَّرهُ، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسيَ لم يذكِّره، وإن ذكر لم يُعنْهُ» [رواه أبو داود (٢٩٣٢) في الإمارة].

ولكون منصب الولاية منصباً خطيراً، ومسؤولياته كثيرة، لا يقوى على القيام به إلا القادرون الأكفاء، كان النبي ﷺ يحذر غير الأكفاء من تولي الأمور العامة، وينهى الضعفاء عن تولي المناصب الخطيرة، ويبيِّن أن مثل هذه الولايات فيها المزالق، وفيها المخاطر.

عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ألا تستعملني؟ فضرب بيده على مَنْكبي، ثم قال: «يا أبا ذر! إنَّك ضعيفٌ، وإنَّها أمانة، وإنَّها يومَ القيامة خزيٌ وندامة، إلا من أخذها بحقِّها، وأدَّى الذي عليه فيها» [رواه مسلم (١٨٢٥) في الإمارة].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرّ إني أراك ضعيفاً، وإني أحبُّ لك ما أحبُّ لنفسي، لا تأمَّرَنَّ على اثنينِ، ولا تولَّيَنَّ مال يتيمٍ» [رواه مسلم (١٨٢٦) في الإمارة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة» [رواه البخاري (٧١٤٨) في الأحكام].

وعن عبد الرحمن بن سُمْرةَ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسألِ الإمارةَ، فإنَّكَ إن أعطيتها عن غير مسألة أُعِنْتَ عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكُلْتَ إليها، وإذا حلفت على يمينٍ، فرأيت غيرَها خيراً منها، فأتِ الذي هو خيْرٌ، وكفِّرْ عن يمينكَ» [رواه البخاري (٧١٤٦) في الإمارة؛ ومسلم (١٦٥٢) في الأيمان].

فأمور الناس ـ في الواقع ـ لا تسير بيُسر، ولا تستقيم على الخير، إلا في ظلال ولاة عدول صالحين، رحماء، غيورين على مصالح البلاد والعباد، وكذلك لا تسير هذه المصالح سيرتها الحسنة إلا في ظلال طاعة الأمة لولاة أمورها، ونصحها لهم، وتعاونها معهم، وعدم عصيانهم، والخروج عليهم، ولذلك جاءت أوامر الدين بوجوب طاعتهم، كيفما كانت أشكالهم، ومنازلهم، ما أقاموا سلطان العدل، وساسوا الناس بشرائع الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم السَّمْعُ والطَّاعةُ فيما أحبَّ وكرهَ، إلاَّ أن يُؤمرَ بمعصيةٍ، فإذا أُمِرَ بمعصيةٍ فلا سمع ولا طاعةَ» [رواه البخاري (٧١٤٤) في الأحكام؛ ومسلم (١٨٣٩) في الإمارة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عليك السمع والطاعة في عُسْركَ ويسركَ، ومنْشطكَ ومكْرَهكَ، وأثرةٍ عليكَ» [رواه مسلم (١٨٣٦) في الإمارة].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعُوا وأطيعوا، وإن استُعملَ عليكم عبدٌ حبشيٌ كأن رأسه زبيبةٌ» [رواه البخاري (٧١٤٢) في الأحكام].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأميرَ فقد أطاعني، ومن يعْصِ الأمير فقد عصاني» [رواه البخاري (٧١٣٧) في الأحكام؛ ومسلم (١٨٣٥) في الإمارة].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أهان السُّلطانَ أهانه الله» [رواه الترمذي (٢٢٢٥) في الفتن].

إن هذه الطاعة لولاة الأمور واجبة، ولو لم تتفق مع مصلحة الفرد ورغباته المحبوبة، فإن الأمور يجب أن تسير وفق المصالح العامة للأمة، والتعاون بين الناس واجب، والخروج على ولاة الأمور، والإساءة إليهم، وإثارة الشغب ضدَّهم أمور خطيرة، تعرض الأمة للأذى والفتن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «من كره من أميره شيئاً فلْيصْبِرْ، فإنه من خرج من السُّلطان شِبراً مات ميتة جاهلية» [رواه البخاري (٧٠٥٣) في الفتن؛ ومسلم (١٨٤٩) في الإمارة].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعةٍ لقي الله يوم القيامة ولا حجةَ له، ومن مات، وليس في عُنُقه بيعةٌ مات ميتةً جاهلية» [رواه مسلم (١٨٥١) في الإمارة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسُوسهم الأنبياء، كلَّما هلك نبيٌّ خلفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبي بعدي، وسيكون بعدي خُلفاءُ فيكثرونَ». قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «أوفوا ببيعة الأولِ فالأُوَل، ثم أعطوهم حقَّهم، واسألوا الله الذي لكم، فإنَّ الله سائلهم عما استرعاهم» [رواه البخاري (٣٤٥٥) في الأنبياء؛ ومسلم (١٨٤٢) في الإمارة].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنَّا من يُصلحُ خباءَهُ، ومنَّا من يَنْتضلُ، ومنَّا من هو في شجرة، إذنادى منادي رسول الله ﷺ: «الصَّلاة جامعةً» فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: «إنَّه لم يكُنْ نبيٌّ قبْلي إلا كان حقَّاً عليه أن يدلَّ أمَّتَهُ على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شرَّ ما يعلمُه لهم، وإنَّ أمتكم هذه جُعِلَ عافيتُها في أولها، وسيصيب آخرها بلاءٌ وأمور تكرهونها، وتجيءُ فتنٌ يُرَقِّقُ بعضها بعْضاً، وتجيءُ الفتنةُ، فيقول المؤمنُ: هذه مُهْلكتي، ثم تنكشفُ، وتجيءُ الفتنةُ، فيقول المؤمن:

هذه، هذه.. فمن أحبَّ أن يُزَحْزحَ عن النَّارِ واليوم الآخر، وليأتِ إلى النَّاس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه، ومن بايع إماماً، فأعطاه صفْقَةَ يده، وثمرة قلبه، فليطعهُ إن استطاع، فإنْ جاء آخرُ ينازعه، فاضربوا عُنُقَ الآخر» [رواه مسلم (١٨٤٤) في الإمارة].

هذا هو موقف الدين من طاعة ولاة الأمور؛ نصحٌ وطاعة، والتزام بمصلحة الأمة، وتضحية في سبيل عزتها وأمنها، وسلامة كيانها.

* * *

الشعبة الخمسون

التمسُّك بما عليه الجماعة

لقد منَّ الله عزَّ وجل على هذه الأمة الإسلامية في عصرها الأول بوحدة الصفِّ، وجمع الكلمة، والْتئام الشمل، حتى كانوا كالجسد الواحد تعاوناً، ومحبَّة وإيثاراً، وتماسكاً.

قال رسول الله: «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص، يشدُّ بعضُه بعضاً، ثم شبَّك بين أصابعه» [رواه البخاري (٦٠٢٦) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٥) في البر].

وقال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه» [رواه البخاري (٢٤٤٢) في المظالم؛ ومسلم(٢٥٨٠) في البر].

وقال: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر، والحمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٦)].

لقد أنقذ الله عز وجل هذه الأمة ـ بعد أن وحَّدهم ـ من الفرقة، والضياع، والشقاق بحمايتهم بهذا القرآن وتلك السنّة، حيث اجتمعوا عليهما، واستمسكوا بهما، فكانت لهم أمتهم الواحدة، ودولتهم القوية، وكلمتهم المسموعة، ورايتهم المرفوعة، وكانوا خير الأمم بما أكرمهم الله به من الهداية، وبما تمسكوا به من الإيمان، والعمل الصالح، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

قال الله تعالى فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وكانوا يحق كما وصفهم الله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

لقد كانت هذه الوحدة، وهي ترفل بأثواب الهداية نعمة على هذه الأمة، ذكرهم الله بها، وأمرهم بالحفاظ عليها، والتمسك بها، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ـ١٠٣].

وقد أبان سبحانه وتعالى أنه هو ـ لا غيره ـ الذي منَّ عليهم بهذه الوحدة، وجمع قلوبهم على هذه الألفة، فقال: لنبيه ﷺ: ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٦٣].

لقد أوجب الله عزَّ وجلّ على هذه الأمة في كل أعصارها وأمصارها أن يظلُّوا متحدين متفقين مجتمعين، لأن عزهم باجتماعهم، وقوتهم باتفاقهم. ونهاهم عن الفرقة والخلاف، لأن ذلك يضعفهم، ويذهب بوحدتهم وهيبتهم. فقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقال: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وأوجب سبحانه وتعالى على الأمة، إذا ما كاد أن يظهر خلاف بينهم أن يحثُّوا الخطا إلى كتاب الله تعالى، وسنّة رسوله ﷺ ليرأبوا الصدع، ويزيلوا الخلاف، وتستقر أقدامهم وأعلامهم على أرض الوحدة والوئام.

قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قام فينا رسول الله ﷺ، فقال: «عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الإثنين أبعد، من أراد بحْبُوحةَ الجنة فليلزم الجماعة» [صحيح الترمذي (١٧٥٨)].

وقال ﷺ: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت رايةٍ عُميَّةٍ يغضب لعَصَبَةٍ، أو يدعو إلى عَصَبَةٍ، أو ينصُرُ عَصَبةً، فقتل، فقِتْلَةٌ جاهليةٌ، ومن خرج على أمتي يضرب برَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهدَهُ، فليس مني، ولست منه» [رواه مسلم (١٨٤٨) في الإمارة].

وقال ﷺ: «من فارق الجماعة شِبراً، فمات، فميتةٌ جاهلية» [رواه البخاري (٧٠٥٤) في الفتن؛ ومسلم (١٨٤٩) في الإمارة].

وقال: «ستكون بعدي هَنَاتٌ، وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يُفرِّقَ أمر هذه الأمة، وهي جميعٌ، فاضربوه بالسيف كائناً من كان» [رواه مسلم (١٨٥٢) في الإمارة].

هَنَات: فتن.

وقال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تقاطعوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً» [رواه البخاري (٦٠٦٤) في الأدب].

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يارسول الله ﷺ، كأنها

موعظة مودِّعٍ، فأوصنا، فقال: «أوصيكم بتقوى الله، والسَّمْع والطاعة، وإنْ تأمرَ عليكم عبدٌ حبشيٌّ، وإنَّه من يعـشْ منكم فسـيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي، وسنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّـوا عليها بالنَّواجذِ، وإيَّـاكم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإن كلَّ بدْعةٍ ضلالة» [رواه أبو داود (٤٦٠٧) في السنة؛ والترمذي (٢٦٧٨) في العلم].

وقال ﷺ: «دعوني ماتركتم، إنَّما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم» [رواه البخاري (٧٢٨٨) في الاعتصام؛ ومسلم (١٣٣٧) في الفضائل].

من هذا كله ندرك مدى حرص الإسلام على وحدة الأمة، وعزتها وقوتها، وندرك مدى تخوفه من فرقة المسلمين، واختلافهم وتنابذهم، لذلك كان من واجب كل غيور على هذه الأمة أن يسعى لجمع كلمتها، وتوحيد صفها، ورأب كل صدع بينها، فإن الأمة الإسلامية لم ينكسر عودها، وينهدم سورها، إلا يوم تمكن الأعداء من تفريقها، وبعث بذور الخلاف بينها.

لقد غدت أمتنا اليوم مهزوزة الكيان، ضعيفة البنيان، مقطعة الأوصال، طمع بها الأعداء، وتطاول عليها الألداء، وأهانها الأوباش، واستخف بها الفجرة والمجرمون، وانتهك حرمتها الأعداء والطامعون، وكل هذا نتيجة طبيعية للفرقة والخلاف، والفرقة والخلاف نتيجة حتمية لمعصية الله تعالى، وترك التمسك بشرعه، والعمل بدينه، وإلا فما كان الله ليظلم المسلمين، ويسلِّط عليهم أعداءهم بغير ذَنْبٍ، ولا تقصير منهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

واليوم، وبعد اليوم، لا سبيل للخروج من الهوان والأحزان إلا بالرجوع إلى الدين، والأخذ بأسباب القوة، والوحدة، وجمع الكلمة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فالله الله أيُّها المسلمون، ارأفوا بأنفسكم، واتَّقُوا الله في بلادكم، فإن الله عز وجل سائلكم، ولن يعذركم إن تعللتم للبقاء على ما أنتم عليه.

قال ربكم عز وجل: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥].

هذا، ويجب أن نلاحظ أن الاختلاف بين العلماء في الفروع الفقهية الاجتهادية ليس من قبيل الاختلاف المذموم، الذي يشكل خطراً على الأمة، لأن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مثل هذه الفروع، ولم يعب بعضهم بعضاً، ولا ترتب على ذلك داء ولا بلاء، بل ربما أدى ذلك إلى توسعة على العباد، ورحمة بهم.

* * *

الشعبة الحادية والخمسون

الحكم بين الناس بالعدل

العدل: إيصال الناس إلى حقوقهم، وسياستهم بالسوية، ومعاملتهم على قدم سواء من غير تفريق بينهم، وقد وصَّى الله تعالى عباده جميعاً بإقامة العدل في أنفسهم، وأهليهم، وغيرهم من الناس، وأمرهم بالانتهاء إليه في كل شأن من شؤونهم: في القضاء، والبيع، والشراء، وغير ذلك من المعاملات، الصلاة.

والعدل من فرائض الدين، وشعب الإيمان.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨].

وقال: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴾ [الرحمن: ٩].

وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

ولما كان العدل شريعة لازمة، وأمراً مفروضاً، وجه الله عز وجل نبيه ﷺ إليه، وأمره به، فقال له: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال له أيضاً: ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢].

ومن قبل الإسلام أوجب الله تعالى إقامة العدل بين الناس، وجعله شريعة وفريضة في الشرائع السابقة، فقال تبارك وتعالى لنبيه داود عليه الصلاة والسلام:

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة صٓ: ٢٦].

والمقسطون في هذه الدنيا، والعادلون في هذه الحياة هم أحسن حظّاً، وأسعدهم عند الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

فهل فوق محبة الله تعالى للعبد حظوة، وكرامة؟!

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم، وأهليهم، وما وَلُوا» [رواه مسلم (١٨٢٧) في الإمارة].

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أهل الجنَّة ثلاثةٌ: ذو سلطان موفَّقٍ، ورجلٌ رحيمٌ رقيقٌ القلب لكلِّ ذي قربى ومسلم، وعفيفٌ مُتعفِّفٌ ذو عيال» [رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سبعةٌ يُظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه: إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأَ في عبادة الله تعالى، ورجلٌ قلبهُ معلَّقٌ في المساجد، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه، ورجلٌ دعتهُ امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال: إني أخاف الله، ورجلٌ تصدَّق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً، ففاضت عيناه» [رواه البخاري (٦٦٠)في الأذان؛ ومسلم (١٠٣١) في الزكاة].

فذكر عليه الصلاة والسلام في طليعة هؤلاء الأصناف السبعة: الإمام العادل:

والإمام كل من ولي شيئاً من أمور الناس، أو قادهم في مجال من المجالات، ويأتي على رأسهم، وفي مقدمتهم خليفة المسلمين، وحاكمهم.

ولأهمية العدل، وقيمته، وأثره، أوجبه تعالى حتى مع العدو، والخصم، فقال عز وجل: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

يجرمنَّكم: يحملنَّكم.

شنآن قوم: بغضكم لهم.

والتفريط في أمر العدل، والتهاون في شأنه جريمة منكرة، حاضرها مظلم، وعواقبها وخيمة في الدنيا والآخرة، لأن ترك العدل يعني الجَور، والظلم، وهضم الحقوق.

قال الله تعالى في التهويل من شأن الظلم، وبيان عاقبة الظالمين: ﴿ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

وقال: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال: ﴿ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا الظُّلمَ، فإنَّ الظُّلمَ ظُلماتٌ يوم القيامة» [رواه مسلم (٢٥٧٨) في البر].

وقال: «إيّاك ودعوةَ المظلومِ، فإنَّهُ ليس بينها وبينَ الله حجابٌ» [رواه البخاري (١٤٥٨) في الزكاة؛ ومسلم (١٩) في الإيمان].

وقال: «إنَّ الله ليُملي للظَّالمِ، فإذا أخذه لم يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] [رواه البخاري (٤٦٨٦) في التفسير؛ ومسلم (٢٥٨٣) في البر].

وقال بعضهم:

لا يأمن الدَّهرَ ذو بغيٍ ولو ملكاً ... جنودُهُ ضاق عنها السَّهْلُ والجبلُ

وقال الآخر:

لا تظلمنَّ إذا ما كنتَ مقتدراً ... فالظلمُ آخرُهُ يأتيكَ بالنَّدمِ
نامتْ عيونُكَ والمظلومُ مُنْتَبِهٌ ... يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

ولما كان الحكام والقضاة من أكثر الناس مساساً بإقامة العدل، وبسط سلطانه جاء تحذيرهم خاصة من الجنوح عنه، والميل إلى الظلم، لأي سبب من الأسباب، أو دافع من الدوافع.

عن معقل بن سنان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «ما من أحدٍ يكون على شيء من أمور هذه الأمة، فلا يعدل فيهم إلاَّ كبَّه الله تعالى في النار» [رواه الحاكم: ٤/ ٩٠ـ٩١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من جعل قاضياً، فقد ذُبح بغير سكينٍ» [رواه أحمد: ٢/ ٢٣٠].

وقال رسول الله ﷺ: «القضاةُ ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنَّة فرجلٌ عرف الحقَّ وقضى به، ورجل عرف الحقَّ فجار في الحكم، فهو في النار، ورجلٌ قضى للناس على جهل، فهو في النار» [رواه الحاكم: ٤/ ٩٠].

إن النبي ﷺ أرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاضياً إلى اليمن، فقال: يا رسول الله، ترسلني، وأنا حدث السن، ولا علم لي بالقضاء، فقال: «إنَّ الله سيهدي قلبك ويثبت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخصمان، فلا تقضينَّ حتى تسمع من الآخر كما سمعت من الأول، فإنه أحرى أن يتبين لك القضاء».

قال علي رضي الله عنه: «فما زلت قاضياً، وما شككت في قضاء بعد» [رواه أبو داود (٣٥٨٢) في الأقضية].

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من ابتلي بالقضاء بين الناس، فليعدل بينهم في لحظه، وإشارته، ومقعده، ولايرفعنَّ صوته على أحد الخصمين، ما لا يرفعه على الآخر» [رواه الدارقطني: ٤/ ٢٠٥].

وقال ﷺ: «لايَقْضينَّ أحدكم بين اثنين وهو غضبان» [رواه البخاري (٧١٥٨) في الأحكام].

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لمهران بن ميمون لمّا استعمله قاضياً على الجزيرة: «لا تقضينَّ بين الناس على سآمة، ولا غضب، ولا حاجة إلى مطعم».

وعن مزاحم بن زفر رحمه الله تعالى: قال. قال لنا عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى: «خمسٌ إذا أخطأ القاضي منهنَّ خصلة كانت فيه وصْمةٌ: أن يكون فهماً، عفيفاً، صليباً، عالماً، سؤولاً عن العلم».

إنَّ هذه مواقف من صلب الدين، وكلها ترمي إلى إقامة العدل، وبسط سلطان الحقِّ، وسياسة الناس بالمعروف والمساواة، ليستقر الحال، ويرتاح البال، ويرضى الجميع، وتعم البهجة، وينتشر السرور.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

* * *

الشعبة الثانية والخمسون

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

المعروف: كل خير، والمنكر: كل شر.

وقيل: المعروف ما كان موافقاً لمقتضى العقل والنقل.

والمنكر: ما كان مخالفاً لهما، فهما إذاً ضدان، الأول فضيلة، والثاني رذيلة، ودين الله عز وجل أتى بالدواء لكل داء، ودعا إلى الاستقامة، وحارب الانحراف، وشجع الفضيلة، وكافح الرذيلة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢].

وقال: ﴿ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴾ [الحج: ٧٧].

وقال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

فالإسلام إذاً دين المعروف، لا المنكر، والمسلمون هم أهل المعروف

لا المنكر، وقد وصفهم الله عز وجل بذلك، على العكس مما دمغ به المنافقين، ومن على شاكلتهم من أهل البغي، والكفر، والفساد.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١].

قال: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقد وصف الله عز وجل مجتمع المسلمين بفضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤١].

وأبان سبحانه وتعالى في محكم كتابه أن المسلمين إنما اكتسبوا الخيريَّة، وسموا فوق الناس في المكانة والفضل بما اتصفوا به من الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

هاهم المسلمون، وهذا هو مجتمعهم، وأما غيرهم، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

فالأمر بالمعروف يعني الدعوة إلى الفضائل، والتخلي عنها، كما يعني الدعوة إلى اتباع دين الله عز وجل، والتمسك به، وترك كل ما يخالفه.

ولما كان لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مثل هذا الأثر البارز أوجبه الله تعالى على الأمة، وكلفهم القيام به، ليحرسوا بذلك بيضة الفضيلة،

ويصونـوا لواء الإسـلام، ويقيموا سلطان الحق، والعدل، والخير في كل مكان، ويدرؤوا عن ساحة الأمة كل نقيصة، ويطهروا المجتمع من كل شرٍّ، ويبعدوا عن رحاب الحياة كل فساد، فيظفروا بكل نجاح وفلاح.

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» [رواه مسلم (٤٩) في الإيمان].

وقـال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «أفضل الأعمال الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمن أمر بالمعروف فقد شدَّ ظهر المؤمن، ومن نهى عن المنكر فقد أرغم أنف المنافق».

إن من الخطر العظيم على الأمة وأفرادها وأسرها ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والسماح للشر بأن يأخذ راحته في حياتنا، وينتقل بيننا من غير رقيب، ولا حسيب، ينظر إليه الناس، ولا يبالون به، ويفسد فيهم، ولا يجرؤون على صدِّه، أو الاعتراض عليه، ولا يقدرون على ردِّه. والشـرُّ كلما استقرَّ باض وفرخ، وكلما حلَّ في مكان امتدَّ فيه وانتشـر، حتى يأكل الأمة بأضراره، ويقوِّض المجتمع بآثامه.

عن عبد الله بن مسـعود رضي الله عنه، قال: قـال رسـول الله ﷺ: «إنَّ أوَّلَ ما دخل النَّقْصُ على بني إسرائيلَ أنَّه كان الرجلُ يَلْقى الرجلَ، فيقول: ياهذا اتَّقِ اللهَ، ودعْ ما تصنعُ، فإنَّهُ لايحلُّ لك، ثم يلْقاهُ من الغَدِ، وهو على حاله، فلا يمنعُه ذلكَ أن يكونَ أكيلَهُ، وشريبَهُ، وقعيدَهُ، فلما فعلوا ذلك ضرب اللهُ قلوبَ بعضهم ببعضٍ، ثم قال: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ

خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ ـ ٨١].

ثم قال: «كلا والله، لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطُرُنَّهُ على الحقِّ أطْراً، ولتقصُرنَّهُ على الحقِّ قصْراً، أو ليضربنَّ الله قلُوب بعضكم على بعضٍ، ثم ليلْعَنَكُمْ كما لعنهم» [رواه أبو داود (٤٣٣٦) في الملاحم؛ والترمذي (٣٠٥٠) في التفسير].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، لتأمُرنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، أو ليوشكَنَّ الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونه، فلا يستجاب لكم» [رواه الترمذي (٢١٧٠) في الفتن].

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ياأيُّها الناسُ إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» [رواه أبو داود (٤٣٣٨) في الملاحم].

وعن طارق بن شهاب البُجَليِّ رضي الله عنه، أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ: أيُّ الجهاد أفضل؟ قال: «كلمة حق عند سلطان جائر» [رواه النسائي: ٧/ ١٦١].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «مَثَلُ القائم على حدود اللهِ، والواقع فيها، كمثل قوم اسْتهمُوا على سفينةٍ، فصار بعضُهم أعلاها، وبعضُهم أسفَلَها، وكان الذين في أسفَلِها إذا استقوا من الماء مرُّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خرْقاً، ولم نؤذِ من فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَوْا، ونَجَوْا جميعاً» [رواه البخاري (٢٤٩٣) في الشركة].

إن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر هو واجب الأمة بكل طوائفها، وأفرادها، كلٌّ في حدود سلطانه، وإمكانه، وينبغي أن يكون في الأمة جماعة متخصصة لأداء هذا الواجب، يراقبون حركة الأمة، وواقع حياتها، يأمرون

بالخير، ويسعون في حمل الناس عليه، وينهون عن المنكر، ويزجرون الناس عنه.

وينبغي لمن يأمر بالمعروف أن يكون حكيماً، يستعمل اللين في مكانه، والشدَّة في مكانها، والإسرار في مكانه، والجهر في مكانه، ويتخلق بما يأمر به، ويترك ما ينهى عنه، ليكون قدوة مسموع الكلمة.

قال الإمام السمرقندي رحمه الله تعالى: إن الذي يأمر بالمعروف يحتاج إلى خمسة أشياء:

أولها: العلم، لأن الجاهل لا يحسن الأمر بالمعروف.

والثاني: أن يقصد به وجه الله تعالى، وإعزاز دينه.

والثالث: الشفقة على من يأمره باللين والتودد، ولا يكون فظاً غليظاً.

والرابع: أن يكون صبوراً حليماً.

والخامس: أن يكون عاملاً بما يأمر به.

* * *

الشعبة الثالثة والخمسون

التعاون على البِّر والتقوى

التعاون ضرورة في حياة البشر، لا مفرَّ منها، ولا محيص عنها، وليس في وسع أحد أن يعيش فريداً وحيداً، يقضي مصالحه بنفسه، من غير أن يستعين بأحد، ولذا قيل: الإنسان مدني بوضعه، اجتماعي بطبعه، فالتعاون بين الناس واقع مشهود، وأمر مسلم به.

قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣].

قال العلماء: إن معنى قوله تعالى: ﴿ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ أي لتتعاملوا على ما فيه صلاحكم، وكفايتكم.

لكن التعاون كما يكون بين الناس على الخير، يمكن أن يكون على الشرِّ، فمن الميسور على الناس أن يتعاون أفراد عصابة على السرقة أو القتل، أو الغصب، لذلك نص الدين على وجوب التعاون على الخير، وحرم التعاون على الإثم والعدوان.

قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [المائدة: ٢].

وظاهرة التعاون تشمل كل ميدان من ميادين الأعمال والعلاقات والصلاتِ، حتى إن كثيراً من العبادات يؤديها المسلمون بمظهر جماعي، ويسري فيها روح التعاون على أدائها، وحسن القيام بها.

قال العلماء: الطاعات أكثرها مبنية على الاشتراك، لأن الإيمان فرض على

الجماعة، والصلاة لم تؤقت إلا ليتعاون الناس على إقامتها، والصيام ما جعل وقته للجميع واحداً، والحج كذلك، إلا لتخيِّمَ عليه المظلة الجماعية، ويكتسي بروح الوحدة العامة، التي يتعاون الناس على حسن القيام بها، والأداء لها.

فما من برٍّ يعرض، وخير يبدر، فيحتاج فيه إلى التعاون والاشتراك، إلا وذلك مندوب إليه، ومأمور به، ولو رحنا نتتبع التفاصيل لوجدنا التعاون بين الناس يسري في جل شؤنهم.

ففي مجال الأسرة نجد التعاون بين أفرادها ضرورياً، فالرجل يعين زوجته في رزقها، وحمايتها، وتأمين حاجاتها، وهي تعينه في بيته، وتربية أولاده، والأولاد يعاونون الآباء والأمهات فيما يحتاجون إليه.

والتاجر يعاون الناس في معاشهم، والموظف يعينهم في مصالحهم، وهكذا نجد التعاون لحمة الحياة وسداها، والمهم في ذلك أن يكون تعاوناً بناءً، قائماً على الخير، منصرفاً إليه.

قال رسول الله ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مَثَلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» [رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب؛ ومسلم(٢٥٨٦) في البر].

وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً» ثم شبَّك بين أصابعه [رواه البخاري(٦٠٢٦) في الأدب؛ ومسلم(٢٥٨٥) في البر].

وكان رسول الله ﷺ يدل النَّاسَ على ألوان كثيرة من الأعمال يحتاج المسلمون أن يشدَّ فيها بعضهم أزر بعض، ويكون الأجر والثواب بينهما، كل على قدر جهده، وما قدم من عون لغيره.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جهَّزَ غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلف غازياً في أهله بخيرٍ فقد غزا» [رواه البخاري (٢٨٤٣) في الجهاد؛ ومسلم (١٨٩٥) في الإمارة].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً إلى بني لحْيانَ من هُذَيْلْ، فقال: «لينبعثْ من كُلِّ رجلين أحدُهما، والأجرُ بينهما» [رواه مسلم (١٨٩٦) في الإمارة].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «الخازن المسلم الأمين الذي يُنفِّذُ ما أُمر به، فيعطيه كاملاً، موفَّراً، طيِّبةً به نفسه، فيدْفعه إلى الذي أمر له به أحدُ المتصدِّقين» [رواه البخاري(١٤٣٨) في الزكاة؛ ومسلم (١٠٢٣) في الزكاة].

وما جعل الرسول ﷺ الخازن شريك المالك في الأجر إلا لأنه يعاونه، ويقوم معه، وينوب عنه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من نفَّس عن مؤمنٍ كُرْبة من كرب الدنيا نفَّس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسَّرَ على مُعسرٍ يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والأخرة، واللهُ في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه» [رواه مسلم (٢٦٩٩) في الدعوات].

ونصيحة الناس وتعليمهم وإرشادهم؛ نوع من التعاون معهم، والمساعدة لهم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾.

فالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر نوع عظيم من التعاون على البر، والتآزر على الخير.

وقال رسول الله ﷺ: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «للهِ، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم» [رواه مسلم (٥٥) في الإيمان].

فالتناصح بين المسلمين واجب، لأنه قوام الحياة وعمادها، وهو أكبر عامل من عوامل التعاون بين المسلمين، وهو مفروض عليهم، وهم مأمورون به، ولا خير فيهم إن لم يزاولوه عملاً واعتقاداً.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤].

وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايعتُ رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنُّصح لكلِّ مسلم» [رواه البخاري (٥٧) في الإيمان؛ ومسلم (٥٦) في الإيمان].

وهذه النصيحة مظهر من مظاهر الحب والأخوة بين المسلمين، وذلك واجب عليهم.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» [رواه البخاري (١٣) في الإيمان؛ ومسلم (٤٥) في الإيمان].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه طالبُ حاجةٍ أقبل على جلسائه، فقال: «اشفعوا تُؤجروا، ويقضي اللهُ على لسانِ نبيه ما شاء» [رواه البخاري (١٤٣٢) في الزكاة؛ ومسلم(٢٦٢٧) في الأدب].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُرْ أخاكَ ظالماً، أو مظلُوماً». فقال رجل: يارسول الله، أنصُرهُ إذا كان مظلوماً، أرأيت إن كان ظالماً، كيف أنصره؟ قال: «تحْجُزُهُ، أو تمنعهُ من الظُلم، فإن ذلك نَصْرُهُ» [رواه البخاري (٢٤٤٤) في المظالم].

فالتعاون إذاً بين المسلمين بكل ضروبه وأشكاله شعار لهم، وشعبة من شعب دينهم، مادام على الخير، وفي سبيل البرِّ والمعروف، ومثله ترك التعاون على السوء والفجور، وما يؤدي إلى غضب الله عز وجل، فإنه واجب أيضاً، ومعلم من معالم الإسلام.

* * *

الشعبة الرابعة والخمسون

الحيـاء

الحياء من الإيمان، وشعبة من شعبه، كما قال سيد الورى، سيدنا محمد ﷺ: «والحياءُ شُعْبةٌ من الإيمانِ».

والحيـاء، كما عرّفه العلماء: «خُلقٌ يبعثُ على تـركِ القبيحِ، ويمنعُ من التقصيرِ في حقِّ ذي الحقِّ».

وقال أبو القاسم الجُنيْدُ، رحمه الله تعالى: «الحياء: رؤية الآلاء ـ أي النعم ـ ورؤية التقصير، فيتولد بينهما حالة تسمى: حياءً»،

فالحياء، إذاً خيرٌ كله، لأنه يمنع من القبيح، ويزجر عن التقصير، وهذا لا ينشـأ إلا من خيـر، ولا يدعـو إلا إلى خيـر، والخيـر إيمان، ومـن ثمـرات الإيمان.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ مرَّ على رجُلٍ من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء ـ أي في تركه ـ فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُ، فإنَّ الحياء من الإيمان» [رواه البخاري (٢٤) في الإيمان؛ ومسلم (٣٦) في الإيمان].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ: «الحياء خير كله» أو قال: «الحياء كله خير» [رواه البخاري (٦١١٧) في الأدب؛ ومسلم(٣٧) في الإيمان].

والحق أن الحياء لا يتولد إلا من طبع مُرهف، تؤذيه النقيصة، وينفر من القبيح، ولذا كان أكثر الناس بعداً عن التقصير، وخوفاً من القبيح، ولزوماً للأدب أشدهم حياء.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه» [رواه البخاري (٦١٠٢) في الأدب؛ ومسلم (٢٣٢٠) في الفضائل].

وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «أربعٌ من سنن المرسلين: التعطُّرُ، والنكاحُ، والسِّواكُ، والحياءُ» [رواه أحمد: ٥/ ٤٢١].

وقد بين النبي ﷺ الحياء الحقيقي، والآثار المترتبة عليه.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «استحيوا من الله حقَّ الحياء». قالوا: نستحيي، والحمد لله، قال: «ليس كذلك، ولكن من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظِ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومَن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمَن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» [رواه الترمذي (٢٠٠٠) في البر والصلة].

وقال رسول الله ﷺ: «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاءُ من الجفاء، والجفاء في النار» [رواه الترمذي (٢٠٠٩) في البرّ والصلة].

والبذاء: الفحش.

والجفاء: الغلظة.

وقال أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى: الحياء على وجهين: حياء فيما بينك وبين الناس. وحياء فيما بينك، وبين الله تعالى.

أما الحياء الذي بينك وبين الناس: فأن تغضَّ بصرك عما لا يحلُّ لك. وأما الحياء الذي بينك وبين الله تعالى: فأن تعرف نعمه، فتستحيي أن تعصيه.

لهذا قيل: ما كان الفحش في شيء إلا شانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه، وذلك لأن الحياء خوف الذم، والتوقي من الاستكبار، وقالة السوء، والمستحيي يترك ما من شأنه أن يستوجب ذمّاً.

وقال الإمام الحليمي رحمه الله تعالى: الحياء: اسم جامع يدخل فيه

الاستحياء من الله تعالى، لأن ذمَّه فوق كل ذمٍّ، ومدحه فوق كل مدح، والمذموم في الحقيقة من ذمَّه ربه، والمحمود من حمده ربه. والحياء من الله تعالى طريق إلى إقامة كلِّ طاعة، واجتناب كل معصية، ولذلك صح قول النبي ﷺ: «الحياء من الإيمان».

والإيمان يحمل ـ بلا شك ـ على التوقي من العيوب، ومفارقة الذنوب، والبعد عن مواطن التهم.

قال منصور بن عمار رحمه الله تعالى: «من أبصر عيب نفسه، اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي برزق الله، لم يحزن على ما في يد غيره، ومن احتفر بئراً لأخيه وقع فيها، ومن دخل مدخل السوء اتُّهم، ومن خشي الله فاز، ومن عرف أجله قصر أمله».

ولذا قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا أدركَ النَّاسُ من كلام النبوَّةِ الأولى: إذا لم تسْتحِ فاصنعْ ما شئت» [رواه البخاري (٦١٢٠) في الأدب].

وهذا الحديث عدَّه العلماء من الأحاديث التي عليها مدار الإسلام.

ومعناه: أن مما وصل إلى الناس، وظفروا به، وحفظوه من كلام الأنبياء السابقين: «إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئت». وهذا وعيد وتهديد لمن ترك الحياء. أو إخبار أن من لم يستح صنع ما شاء، فالحياء يمنعه ـ لو كان ـ من أن يرتكب أمراً يخل بالمروءة، والشرف عادة.

قال العلماء: ويدخل في جملة الحياء ستر العورة، فالشريعة أمرت بستر العورة، والناس بحكم طباعهم يعدون كشف العورة سفاهة وخلاعة.

قال رسول الله ﷺ: «استر عورتك إلا من زوجك، أو ما ملكت يمينك». قيل أرأيت، إذا كان أحدنا خالياً بنفسه؟ قال: «اللهُ أحق أن يُستحْيى منه» [رواه الترمذي (٢٧٦٩) في الأدب].

وإذا كان الحياء من الشيم الرفيعة، والخصال الحميدة، والملكات الرفيعة،

وأنه يجدر بكل الناس أن يتخلقوا به، ويلتزموا نهجه، فإن الحياء بالنساء أحق، وبهن ألزم، لأن شأن النساء مبني على التصوُّن، والحيطة، والبعد عن مواطن الريب، وأماكن الشبه، والحياء زينة المرأة، يُشكّل جُلَّ جمالها وكمالها، وما خلقت امرأة برقع الحياء عن وجهها إلا هانت، وأساءت إلى نفسها، فالحياء رأس مالها، وتاج كمالها.

* * *

الشعبة الخامسة والخمسون

برُّ الوالدين

برُّ الوالدين: طاعتهما، والإحسان إليهما، وكفُّ الأذى عنهما، وهو قربة من القرب، وشعبة من شعب الإيمان، وطاعة عظيمة لله تعالى.

وبر الوالدين من باب جزاء الإحسان بالإحسان، فليس هناك إحسان يطوِّق عنق الولد ـ بعد إحسان الله تعالى ـ يفوق إحسانهما، أو فضلٌ يسمو فوق فضلهما، ولو لم يكن برُّهما واجباً بالشرع، لأوجبه العقل والمروءة، وحسن الأدب، فكيف وقد أكد الربُّ عز وجل في كل شرائعه وكتبه برَّهما، وفرض حبهما، والإحسان إليهما.

قال الله تعالى عز وجل: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال عزَّ من قائل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وقال: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان: ١٤].

وقال: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

هذه النصوص من كتاب الله تعالى بروعتها وشمولها تؤكد وجوب برّهما، وتشير إلى منتهى فضلهما، ولهذا يصعب على الولد أن يوفي لهما كلّ مالهما عليه من الفضل، أو يؤدي شكر ما بذلوه من الإحسان والمعروف.

قال رسول الله ﷺ: «لن يَجزيَ ولد والداً إلا أن يجده مَمْلوكاً، فَيشْتريَهُ، فيُعتقَهُ» [رواه مسلم (١٥١٠) في العتق].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت النبيَّ ﷺ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «برُّ الوالدين». قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله» [رواه البخاري (٢٧٨٢) في الجهاد؛ ومسلم (٨٥) في الإيمان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يارسول الله، من أحقُّ النَّاس بحسنِ صحابتي؟ قال: «أمُّكَ». قال: ثمَّ من؟ قال: «أمُّكَ». قال ثمَّ من؟ قال: «أبوكَ» [رواه البخاري (٥٩٧١) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٤٨) في البر].

وقال رسول الله ﷺ: «رضى الله في رضى الوالدين، وسخطُ اللهِ في سخط الوالدين» [رواه الترمذي (١٨٩٩) في البر].

ولقد فضَّل الدين برَّ الوالدين على النوافل وفروض الكفاية وقدَّمه عليهما.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: أقبل رجل إلى النبي ﷺ. فقال: أبايعك على الهجرة، والجهاد ابتغي الأجر من الله تعالى، فقال: «هل لكَ من والديْكَ أحدٌ حيّ؟». قال: نعم، بل كلاهما، قال: «فتبتغي الأجرَ من اللهِ تعالى؟ قال: نعم. قال: «فارجعْ إلى والديْكَ، فأحسِنْ صُحْبتَهُما» [رواه مسلم (٢٥٤٩) في البر].

وفي رواية: «ففيهما فجاهد» [رواه البخاري (٣٠٠٤) في الجهاد].

وعن أبي أسيْدَ الساعدي رضي الله عنه، قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله، هل بقي من برِّ أبويَّ شيءٌ أبرُّهما به بعد موتهما؟ قال: «نعم: الصَّلاةُ عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذُ عهدهما من بعدهما، وصلةُ الرَّحمِ التي لا تُوصَلُ إلا بهما، وإكرام صديقهما» [رواه أبو داود (٥١٤٢) في الأدب].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أبرِّ البرِّ أن يصل الرَّجلُ أهل وُدِّ أبيه، بعد أن يولي» [رواه مسلم (٢٥٥٢) في البر].

قال الإمام أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى: يقال: للوالدين على الولد عشرة حقوق:

أحدها: إذا احتاجا إلى الطعام أطعمهما.

والثاني: إذا احتاجا إلى الكسوة كساهما.

والثالث: إذا احتاجا، أو أحدهما إلى خدمته خدمهما.

والرابع: إذا دعاه أحدهما أجابه.

والخامس: إذا أمراه أطاعهما، ما لم يأمراه بمعصية.

والسادس: أن يتكلم معهما باللين.

والسابع: أن لا يدعوهما باسمهما.

والثامن: أن يمشي خلفهما.

والتاسع: أن يرضى لهما ما يرضى لنفسه، ويكره لهما ما يكره لنفسه.

والعاشر: أن يدعو لهما كلما دعا لنفسه.

وقال: يقال: ثلاث آيات نزلت مقرونة بثلاثٍ، لا يقبل الله تعالى واحدة منهن بدون قرينتها:

أولاها: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. فمَن صلَّى، ولم يزكِّ لم تقبل منه الصلاة.

والثانية: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة: ٩٢]. فمَنْ أطاع الله، ولم يطع الرسول لم يقبل منه.

والثالثة: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ ﴾ [لقمان: ١٤]. فَمَنْ شكر الله، ولم يشكر لوالديه لم يقبل منه.

ثم إن الدين أوجب برَّ الوالدين، ولو كانا مشركين.

عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنهما قالت: قدمتْ عليَّ أمي، وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيْتُ رسول الله ﷺ، فقلت: قدمتْ عليَّ أمي، وهي راغبة، أفأصلُ أمي؟ قال: «نعم، صلي أمَّكِ» [رواه البخاري (٢٦٢٠) في الهبة؛ ومسلم (١٠٠٣) في الزكاة].

إنَّ برَّ الوالدين وطاعتهما واجب مالم يأمرا بشرك، أو معصية، فإن أمرا بشيء من ذلك فلا طاعة لهما، لأن طاعة الله عز وجل أولى، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق عز وجل، إنما الطاعة بالمعروف.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ ﴾ [لقمان: ١٥].

وبعد هذا يجب أن نعلم أن عقوق الوالدين، والإساءة إليهما، وإلحاق الأذى بهما من الكبائر التي تستوجب غضب الرب عز وجل.

عن أبي بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟» ثلاثاً. قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئاً فجلس، فقال: «ألا وقول الزور، وشهادة الزور». فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت. [رواه البخاري (٢٦٥٤) في الشهادات؛ ومسلم (٨٧) في الإيمان].

وقال رسول الله ﷺ: «الوالدُ أوْسَطُ أبواب الجنة، فإن شئتَ فاحفظْ، وإن شئت فضيِّعْ» [رواه الترمذي (١٩٠٠) في البر].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله حرَّم عليكم عقوق الأمهات...» [رواه مسلم: ٣/ ١٣٤١، (٥٩٣) رقم (١٢) في الأقضية].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «رغم أنْفُ، ثم رغم أنفُ، ثم رغم أنْفُ من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما، أو كليهما، فلم يدخل الجنة»[رواه مسلم (٢٥٥١) في البر].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وأن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ من أكبـرِ الكبائرِ أنْ يَلْعنَ الرَّجُلُ والديْه». قيل: يا رسـول الله، كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسبُّ أبا الرجل، فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمَّهُ فيسبُّ أمَّه »[رواه البخاري (٥٩٧٣) في الأدب؛ ومسلم (٩٠) في الإيمان].

ومثل الآباء والأمهات في وجوب البر الأجداد والجدَّات مهما علوا.

* * *

الشعبة السادسة والخمسون

صلة الأرحام

الأرحام: جمع رحم، وهم الأقارب، سموا رحماً، لأنهم يرجعون إلى رحم واحدة، والرحم: هي مكان الولد من بطن الأم.

وصلة الأرحام، تعني برَّهم، والإحسان إليهم، والعطف عليهم، والسؤال عنهم، والزيارة لهم، وكف الآذى عنهم.

والرحم نوعان:

رحم محرَّمة: كالأب، والأم، والأخ، والأخت، والعم، والعمة، والخال، والخالة، وكل من لا يجوز التناكح بينهم.

ورحم غير محرَّمة: كأولاد الأعمام، والعمات، والأخوال، والخالات، وكل من يجوز التناكح بينهم من الأقارب.

وللجميع حقوق، وكلما كانت الأرحام أشدَّ قرباً كان حقهم أكبر، وبرُّهم ألزم.

وقد جاء الحث على صلة الأرحام، والأمر برعايتهم في القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وهو أمر تقتضيه القرابة، وتعود إليه المروءة.

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. أي اتقوا الأرحام، فصلوها، ولا تقطعوها.

وقال الله عز وجل: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفهُ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمَهُ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقُلْ خيراً أو ليصمتْ» [رواه البخاري (٦١٣٨) في الأدب].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: أنا الرحمن، وهي الرَّحمُ، شققتُ لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها قطعته» [رواه الحاكم: ٤/ ١٥٧].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن يبسط له في رزقه، ويُنْسأَ له في أثره، فليصل رحمَهُ» [رواه البخاري (٥٩٨٦) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٥٧) في البر].

أخبر ﷺ أن صلة الرحم سبب في سعة الرزق، وحصول البركة في العمر، وليس ذلك على الله تعالى بمستبعد، فإن الواصل يتقرب إلى الله تعالى بالطاعة والإحسان إلى الرحم، وهذا إنما ينبعث من دافع الإيمان إلى الإحسان، والله عزَّ وجلّ يحب المحسنين، ومن أحبّه الله عزَّ وجلّ، فسوف يكرمه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إنَّ لي قرابةً أصلهم، ويقطعونني، وأحسنُ إليهم، ويسيؤون إليَّ، وأحلم عليهم، ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قُلتَ، فكأنَّما تُسفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك» [رواه مسلم (٢٥٥٨) في البر].

ومعنى تسفّهم المَلَّ: تطعمهم الرماد الحار، وهذا تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحارُّ من الألم، وفي هذا ترغيب بصله الرحم، وبيان لعظم ذنب من يقطعها، ويسيء إليها.

فإذا كانت صلة الرحم واجبة، وشعبة من شُعب الإيمان، فإن قطيعة الرحم حرام، ومعصية كبيرة من الآثام.

قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥].

وقال: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢ ـ ٢٣].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطعٌ». يعني قاطع رحم [رواه البخاري (٥٩٨٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٥٦) في البر].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من ذنب أجْدَرُ من أن يعجِّلَ اللهُ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا، مع ما يدَّخرُ له في الآخرة من البغي، وقطيعة الرحم» [رواه الترمذي (٢٥١١)].

إن واجب المسلم أن يسعى في برِّ رحمه، واسترضائهم، وصلتهم، وإن هم قطعوه، وأساؤوا إليه، ليخرج هو من إثم القطيعة، ويظفر بأجر برِّهم وصلتهم، فإن صلتهم، والصبر عليهم من مكارم الأخلاق، فقمَّة الخلق: أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك.

قال رسول الله ﷺ: «ليس الواصلُ بالمكافئ، ولكنَّ الواصلَ الذي إذا قُطعتْ رحمُهُ وصلها» [رواه البخاري (٥٩٩١) في الأدب].

وقال ﷺ: «الصدقة على المسكين صدقةٌ، وعلى ذي الرِّحم اثنتانِ: صدقةٌ وصلةٌ» [رواه الترمذي (٦٥٨) في الزكاة].

وقال ﷺ: «أفضل الصَّدقةِ على ذي الرَّحِمِ الكاشحِ» [رواه أحمد: ٣/ ٤٠٢].

والكاشح: هو المبغض، وفي الصدقة عليه تأليفٌ لقلبه، وإخراجٌ للضغينة من صدره.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «بلُّوا أرحامكم، ولو بالسَّلامِ» [رواه البزار (١٨٧٧)].

* * *

الشعبة السابعة والخمسون

حُسن الخُلُق

حُسنُ الخُلُق من الإيمان، ومن شعبه الحميدة، ومعالمه الكريمة. وشعائره العظيمة، وإن أحسن الناس تديناً أكرمهم خلقاً.

قال رسول الله ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم» [رواه الترمذي (٢٦١٥) في الإيمان].

ودائرة الأخلاق واسعة جداً، وأمثلتها كثيرة، وحسن الخلق له مساس في أنواع كثيرة من السلوك والتصرفات في الأقوال والأفعال. حتى في كثير من الأمور القلبية. ومن قرأ القرآن، ونظر في السنَّة أدرك الكثير منها. والمهمُّ أن يعرف الإنسان فضل الأخلاق في الدين، ومنزلتها بين شرائع الإسلام، وأحكامه، ليتحلَّى بها بصدق وقناعة.

فصدق الحديث، وأداءُ الأمانة، والوفاءُ بالعهد، وطلاقةُ الوجه، ورحابةُ الصدر، ولينُ الجانب، وتواضعُ النفس، كلُّ هذا من جلائل الأخلاق، وكريم الشيم، التي حثَّ الدين عليها، ورغب فيها.

قال الله عزَّ وجلّ لنبيه الكريم ﷺ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعرف: ١٩٩]. قال المفسّرون: يعني: صل من قطعك، وأعْطِ من حرمكَ، واعْفُ عمن ظلمكَ.

وقد كان ﷺ طَلْقَ الوجه، يُظهِرُ البِشر لكل من يلقاهُ، ولا يعرض بوجهه عمَّن جفاه، ولا يقابل أحداً بما يكره. وكان يقول: «لو دُعيتُ إلى كُراعٍ، أو ذارع لأجَبْتُ، ولو أهْدِيَ إليَّ ذِراعٌ، أو كُراعٌ لقبلتُ» [رواه البخاري (٢٥٦٨) في الهبة].

ولهذا الخلق الكريم أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وصدق ﷺ حين قال: «إنما بعثْتُ لأتمِّمَ مكارِمَ الأخلاق» [رواه البيهقي: ١٠/ ١٩٢].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ: «البِرّ حُسْنُ الخلُقِ، والإثم ما حالك في نفسكَ، وكرِهْتَ أن يطَّلعَ عليه النَّاسُ» [رواه مسلم (٢٥٥٣) في البر].

وقال ﷺ: «ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ العبد المؤمنِ يومَ القيامة من حُسْنِ الخلقِ، وإنَّ اللهَ يُبْغضُ الفاحِشَ البذيَّ» [رواه الترمذي (٢٠٠٣) في البر].

وقال ﷺ: «إنَّ المؤمنَ ليدْرِكُ بُحسْنِ خلُقِهِ دَرَجةَ الصَّائمِ القائم» [رواه أبو داود (٤٧٩٨) في الأدب].

وقال ﷺ: «رحم اللهُ عبداً سَمْحاً إذا باع، وإذا اشْترَى، وإذا اقْتَضى» [رواه البخاري (٢٠٧٦) في البيوع].

وقال ﷺ: «لا تكونُوا إمَّعةً، تقولون: إنْ أحْسَنَ الناسُ أحْسنَّا، وإن أساؤوا أسأنا، ولكن وطِّنُوا أنفسكم إن أحسن الناسُ أن تُحْسنُوا، وإن أساؤوا فلا تظلِمُوا» [رواه الترمذي (٢٠٠٧) في البر].

والإمَّعة: هو الذي لا رأي له، يتبع كل أحد على رأيه.

وقال ﷺ: «ليس الشديدُ بالصُّرَعة، إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نَفْسَهُ عند الغضب» [رواه البخاري (٦١١٤) في الأدب].

وهذا مثل قول الله عز وجل: ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال ﷺ: «إنَّ من أحبِّكم إليَّ، وأقربكم مني مَجْلساً يوْمَ القيامة أحاسنُكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة الثَّرثارونَ، والمتشدِّقُونَ، والمتفَيْهقُونَ». قالوا: يا رسولَ اللهِ، قد علمنا: الثَّرثارونَ

والمتشدِّقُونَ، فما المتفيهقُونَ؟ قال: «المتكبرونَ» [رواه الترمذي (٢٠١٩) في البر].

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بمن يحرُمُ على النار، أو بمن نحرُمُ عليه النَّار؟: تحرم على كلِّ قريب، هين، لين، سهل» [رواه الترمذي (٢٤٩٠) في صفة يوم القيامة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ النَّاس الجنة، قال: «تقوى اللهِ، وحُسْنُ الخلُقِ». وسئل عن أكثر ما يدخل النَّاسَ النَّارَ؟ فقال: «الفمُ، والفَرْجُ» [رواه الترمذي (٢٠٠٥) في البر].

هذه هي الأخلاق الحميدة، وهذه منـزلتها في الدين، وأثرها في الحيـاة الدنيا وفي الآخرة، فأخلق بالمسلم أن يعرفها، ويحرص عليها، ويتخذ منها درعاً واقياً لسلوكه، وحصناً منيعاً لتصرفاته، فإنها من عزائم الأمور، وفرائض الدين، وليس لأحد أن يتحلل منها، أو يزهد فيها، لأنها من أوامر الله التي تجب رعايتها، والعمل بها.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان: ١٨].

وقال: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

وقال: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٥].

وقال: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

والآيات في أبواب الفضائل والأخلاق الكريمة كثيرة، وهي عماد الدين، وحصن المجتمع، ودرع الأمة، ومظهر جمالها وكمالها، ورجاحة عقلها، وتنامي حضارتها، وبرهان وعيها، ولهذا قيل:

إنَّما الأممُ الأخلاقُ ما بقيتْ ... فإن هُمُو ذهبتْ أخلاقُهم ذهَبُوا

وقد رويت عن النبي ﷺ ـ بالإضافة لما ذكرنا ـ أحاديث كثيرة في مدح بعض الأخلاق للحث عليها، والترغيب فيها.

فقال ﷺ **في الرفق**:

«إنَّ اللهَ رفيقٌ يُحبُّ الرِّفْقَ في الأمْرِ كُلِّهِ» [رواه البخاري (٦٠٢٤) في الأدب؛ ومسلم (٢١٦٥) في البر].

وقال ﷺ: «إنَّ الرفقَ لا يكونُ في شيءْ إلا زانه، ولا يُنزَعُ من شيءٍ إلا شانه» [رواه مسلم (٢٥٩٤) في البر].

وقال ﷺ: «إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفق، ويُعطي على الرفقِ ما لا يعطي على العنفِ، وما لا يُعطي على ما سواه» [رواه مسلم (٢٥٩٣) في البر].

وقال ﷺ: «من يُحرَمِ الرفقَ يُحْرَمِ الخيرَ كلَّهُ» [رواه مسلم (٢٥٩٢) في البر].

وقال ﷺ لأشجَّ عبد القيس، وهو يَمتدحُ حلمه، وأناته: «إن فيك خَصلتَينِ يُحبُّهما اللهُ: الحلمُ، والأناة» [رواه مسلم (١١٧) في الإيمان].

وقال ﷺ في طيب القول: «الكلمةُ الطيبة صدقةٌ» [رواه مسلم (١٠٠٩) في الزكاة].

وقال ﷺ: «لا تحقِّرنَّ من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاكَ بوجهٍ طلق» [رواه مسلم (٢٦٢٦) في البر].

وقال ﷺ: «ما نقصتْ صدقةٌ من مال، وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزّاً، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه الله» [رواه مسلم (٢٥٨٨) في البر].

وقال ﷺ: «إنَّ الله أوحَى إليَّ أن تواضعُوا، حتَّى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ» [رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة].

إن الدين الحنيف كما حثَّ على الأخلاق الفاضلة، وأوجبها على الناس، فإنه قد نهى عن أخلاق السُّوء، وحرَّمها على العباد.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ [النحل: ٩١].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٧].

وقال: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ١٠٥].

وقال رسول الله ﷺ «آيةُ المنافق ثلاث: إذا حدَّثَ كذب. وإذا وعد أخلَفَ، وإذا ائتمن خان» [رواه البخاري (٣٣) في الإيمان؛ ومسلم (٥٩) في الإيمان].

والأدلة وراء هذا كثيرة جداً.

والمسلم لا يجهل ماحسَّنَهُ الدين من كريم الأخلاق، وما ذمَّه سقيمها، والمهم أن يأخذ ما طاب منها، ويدع ما خبث تقرباً لله عز وجل، وامتثالاً لأمره، والله عزَّ وجلّ لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* * *

الشعبة الثامنة والخمسون

الإحسان إلى المماليك

المقصود بالمماليك: الأرقّاءُ، والرقيقُ مملوك لسيده. والرِّق ـ كما عرَّفه العلماء ـ: عَجْزٌ حُكميّ سببُه في الأصل الكفر.

والإسلام أباح استرقاق الأسير الكافر إذا وقع في الأسر عقوبة له على كفره، ومعاملة لقومه بالمثل، فقد كانوا يستبيحون استرقاق المسلمين إذا وقعوا في أيديهم، أما إذا أسلم الكافر قبل وقوعه في الأسر، فلا سبيل عليه لأحد، ولا يجوز استرقاقه حينئذٍ، لأنه بالإسلام عصم نفسه وماله وأهله، وصار له ما للمسليمن، وعليه ما عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

وقال: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾[التوبة: ١١].

والاسترقاق عمل سياسيّ، جعل الإسلام أمره إلى الخليفة، يحكم فيه بما شاء، بناء على مصلحة الأمة.

قال الله تعالى في شأن الأسرى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤].

فخيَّر القرآن الخليفة بين المنِّ عليهم، وبين مفاداتهم بأسرانا، أو بأموالهم، وأضيف إلى هذا الخيار الاسترقاقُ بناء على المصلحة، وقد ثبت ذلك بالسنَّة النبوية.

ومعلوم أن الإسلام لم يخترع الرقَّ، ولم يبتدعه، ولكنه كان موجوداً قبله، وكانت موارده كثيرة، فجفَّفها الإسلام، إلا ما كان ثمرة حرب مشروعة، فاستبقاها سياسة، ورسمه على قيد المصلحة.

وليس الأمر مهماً اليوم، حيث لم يعد في الناس رقّ، وإنما المهم أن نفهم رحمة الإسلام بالأرقاء والضعفاء والمساكين، فإن الإسلام كتب الإحسان إليهم، والرحمة بهم. وأوجب العطف عليهم، كما أوجب الإحسان في كل شيء والرحمة لكل العباد.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦].

فجعل سبحانه وتعالى هؤلاء المماليك من جملة من أوصى بالإحسان إليهم، وقرن ذلك بعبادته، وأنت تعلم مدى هذه الوصية، وقيمتها إذا كانت قرآناً يتلى، لا تأتي عليه الأيام، ولا ينسخه الدَّهرُ.

فربُّ العالمين تبارك وتعالى هو الذي يوصي بهم، ويوجب الإحسان إليهم، أضف إليه ما جاء عن النبيّ ﷺ في وجوب رعايتهم، والعطف عليهم، والذبِّ عنهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: كانت عامَّةُ وصيّة رسول الله ﷺ حين حضر الموتُ: «الصلاة، وما ملكتْ أيمانُكم» حتَّى جعل يغرغرُ بها في صدره، وما يفيض بها لسانُه: [رواه أحمد: ٣/ ١١٧].

وعن علي رضي الله عنه قال: كان آخرُ كلام رسول الله ﷺ: «الصَّلاة، الصَّلاةَ، اتَّقوا الله فيما ملكت أيمانُكم» [رواه أبو داود (٥١٥٦) في الأدب].

قال الإمام الحليمي رحمه الله تعالى: أوصى اللهُ تعالى، ثم الرسول ﷺ بالمماليك، كالإيصاء بالوالدين، والجيران، وكالإيصاء بالصلاة، فدلَّ ذلك

على وجوب الإحسان إليهم. وترك التحامل بالجور عليهم.

قال: وأول ذلك: أن لا يقول أحدٌ للذكر منهم: عبدي. بل يقول، فَتايَ. ولا يقول للأنثى: أمَتي. بل يقول: فتاتي. وبذلك جاء الخبر نصاً عن النبي ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يقولنَّ أحدُكم: عبدي، وأمَتي، فكلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماءُ اللهِ، ولكن ليقلْ: غلامي، وجاريتي، وفتاي، وفتاتي» [رواه مسلم (٢٢٤٩) في الألفاظ].

ثم إن الإسلام أمر برعايتهم، وإطعامهم، وكسوتهم، وترك تجويعهم، والإساءة إليهم:

قال رسول الله ﷺ: «هُمْ إخوانُكم، جعلهم اللهُ تحت أيديكم، فمن كان أخوهُ تحتَ يده فيُطعِمهُ مما يأكلُ، وليُلْبسهُ مما يلبَسُ، ولا تكلِّفُوهم ما يغلبُهم، فإن كلَّفتُموهُم، فأعينوهم عليه» [رواه البخاري (٢٥٤٥) في العتق؛ ومسلم (١٦٦١) في الأيمان].

وإنه ليكفي ـ رعاية وعناية ـ أن سمَّاهم إخوة، ودعا إلى عدم التفريق بينهم وبين أسيادهم في المأكل والملبس، ونهى عن تكليفهم ما لا يطيقون من الأعمال، اللهم إلا أن يعانوا عليه، وحرم ضربهم، والإساءة إليهم.

وقال ﷺ: «للمملوك طعامه، وكسوته» [رواه مسلم (١٦٦٢) في الأيمان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا أتى أحدكم خادمُه بطعامه، فإن لم يجلسْهُ معه، فليناوله لقمة، أو لُقمتينِ، أو أكلَةً، أو أكلتينِ، فإنَّه وَليَ علاجَهُ» [رواه البخاري (٢٥٥٧) في العتق].

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: كنتُ أضربُ غلاماً لي بالسَّوطِ، فسمعتُ صوتاً من خلفي: «اعلَمْ، أبا مَسعُودٍ» فلم أفهم الصَّوْتَ من الغضب، فلما دنا مني، إذا هو رسولُ الله ﷺ، فإذا هو يقول: «اعلمْ أبا مسعُودٍ أنَّ اللهَ أقْدَرُ عليك منك على هذا الغلام». فقلتُ: لا أضربُ ممْلُوكاً بعده أبداً.

وفي رواية: فسقط السَّوطِ من يدي من هَيبتهِ.

وفي رواية: فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، هو حُرٌّ لوجه اللهِ تعالى، فقال: «أما لو لم تفعلْ للفَحتْكَ النَّارُ، أو لَمسَّتكَ النَّارُ» [رواه مسلم (١٦٥٩) في الأيمان].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «من ضرب غلاماً له حدّاً لم يأته، فإنَّ كفارته أن يُعتقَهُ» [رواه مسلم (١٦٥٧) في الأيمان].

ثم إن الدين جعل إعتاق العبيد، وتخليصهم من الرق قربة وعبادة، يؤجر عليها فاعلها عند الله تعالى.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «مَنْ أعتقَ رقبةً مُسلمة اعتق اللهُ بكلِّ عُضوٍ منه عُضْواً منه من النَّار، حتى فَرْجَهُ بفَرجهِ» [رواه البخاري (٦٧١٥) في الكفارات؛ ومسلم (١٥٠٩) في العتق].

وأوجب سبحانه وتعالى على الأسياد إجابة رقيقهم إذا طالبوهم بالكتابة، وكان ذلك في صالح هؤلاء الأرقاء. كما أوجب أن يُعينوهم بشيء من أموالهم.

قال الله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: ٣٣].

وجعل الدين جزءاً من أموال الزكاة في سبيل إعانة هؤلاء الأرقاء لتخليص أنفسهم من نقيصة الرق.

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠].

وأيضاً، فقد جعل الإسلام عتق الرقاب كفارة لبعض الجنايات، والمخالفات، كالقتل الخطأ، والظهار، والحنث في اليمين.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ﴾ [النساء: ٩٢].

وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ [المجادلة: ٣].

وقال: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ﴾ [المائدة: ٨٩].

هذا موقف الدين من الرقيق، وهذه رغبته فيهم، فهل يعامل العالم الأحرار احتراماً، وإكراماً، وعدلاً ومساواة، وإنصافاً كما عامل الدين الرقيق، وإذا كان هذا موقف الدين من الرقيق، فكيف يكون موقفه من غيرهم.

إن الإسلام دين الرحمة، والعدل والإحسان، وصدق الله تعالى إذ يقول:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

* * *

الشعبة التاسعة والخمسون

حقُّ السادة على المماليك

لقد قلنا في الشعبة التي قبل هذه: إن الدين أوصى السادة بالمماليك خيراً، وجعل ذلك من مظاهر الإيمان، ومن شعبه العظيمة، وهنا أيضاً نقول: إن الدين أوصى المماليك برعاية حقوق السادة، والإحسان إليهم، فإن المسلمين إخوة، متعاونون، المالك، والمملوك، والسيد، والخادم، وما لأحد من الناس حق، إلا وعليه واجب يقابله، وعلى كل واحد أن يحسن القيام بما كلف به، لينال ما وجب له، والله عز وجل سيسأل كل راع عما استرعاه، ويكافئ كل محسن بما أدَّاه، بغضِّ النظر عن مكانته، والحال التي هو عليها، والله تبارك وتعالى يحبّ من عبده إذا عمل عملاً أن يتقنه، وإذا كلف بواجب أن يجيده، ولا يقصر فيه، وهذا من مظاهر الطاعة لله عز وجل، والإيمان به، وكرامة العبد عند الله تعالى بتقواه، وصلاح عمله.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظُرُ إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

لذلك كان على هؤلاء الأرقَّاء والخدم أن يبذلوا طاقتهم في نصحهم، وإتقان أعمالهم، ويؤدوا ما عليهم نحو أسيادهم، طيبة بذلك قلوبهم، وأيُّما إهمال أو إخلال، فإنهم مسؤولون عنه، ومؤاخذون به في الدنيا والآخرة، لأن هذا الإهمال والإخلال، لا يخلو أن يكون نوعاً من الغش والإساءة، والرسول ﷺ يقول: «من غشَّنا فليس منَّا» [رواه مسلم (١٠١) في الإيمان].

والله عزَّ وجلّ لحكمة جعل الناس متفاوتين في هذه الحياة المؤقتة الزائلة الفانيـة، فجعل فيهم الغنيَّ والفقير، والقـويَّ والضعيف، والسيِّد والمسـود، والحاكم والمحكوم، ليتعاونـوا، ويقضي بعضهم حاجـة بعض، وبتفـاوتهم، وتعاونهم يسير دولاب الحياة، ويتحقق الرخاء للجميع.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال: ﴿ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

وليس لهذا التنوُّع والتفاضل في الدنيا أيُّ امتياز عند الله تعالى، فرُبَّ مملوك هو عند الله تعالى خير من مالكه، وربَّ فقير أفضل عند الله تعالى من غني، والعكس صحيح أيضاً.

إن مبدأ التفاضل عند الله عز وجل ينطلق من زاوية غير هذه الزاوية، ومن رحبة غير هذه الرحبة. إن التفاضل عند الله تعالى قائم على التقوى، والعمل الصالح.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إنَّه ليأتي الرَّجلُ العظيمُ السَّمينُ يَوْمَ القيامةِ لا يَزِنُ عند اللهِ جَناحَ بعُوضةٍ» [رواه البخاري (٤٧٢٩) في التفسير؛ ومسلم (٢٧٨٥) في صفة القيامة].

وهذا مثل قول الله تعالى: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا﴾ [الكهف: ١٠٥].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: مرَّ رجُلٌ على رسول الله ﷺ، فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حَرِيٌّ إن خطبَ أن يُنكحَ، وإن شَفَعَ أن يُشفَّعَ، وإن قال يُستَمَع. قال: ثم سكت، ثم مرَّ رجل من فقراء المسلمين، فقال:

«ما تقولون في هذا؟» قالوا: حَريٌّ إن خطب أن لا يُنكحَ، وإن شَفعَ أن لا يُشفَّعَ، وإن قال أن لا يُستَمعَ. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من مِلءِ الأرض مِثلَ هذا» [رواه البخاري (٥٠٩١) في النكاح].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رُبَّ أشعثَ أغبرَ مَدفُوعٍ بالأبواب، لو أقسمَ على اللهِ لأبرَّهُ» [رواه مسلم (٢٦٢٢) في البر].

وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبرُكم بأهل الجنَّةِ؟ كُلُّ ضعيفٍ مُتضَعَّفٍ، لو أقسم على اللهِ لأبرَّه. ألا أخبرُكم بأهلِ النَّار؟ كُلُّ عُتُلٍّ جوَّاظٍ مُسْتكبرٍ» [رواه البخاري (٤٩١٨) في التفسير؛ ومسلم (٢٨٥٣) في صفة الجنة].

العُتُلّ: الغليظ الجافي.

الجواظ: الجموع، المنوع. وقيل: الضخم، المختال في مشيه. وقيل: القصير البطين.

لذلك كان للملوك الذي يطيع ربه عز وجل، ويحسن لسيده مكانة عند الله تعالى، ربما فاقت مكانة سيده.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عن، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المملوك الذي يحُسِنُ عبادةَ ربِّهِ، ويُؤدِّي إلى سيده الذي عليه من الحقِّ، والنَّصيحةِ، والطَّاعةِ، له أجرَانِ» [رواه البخاري (٢٥٥١) في العتق].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا نصح لسيده، وأحسن عبادةَ اللهِ، فلهُ أجرُهُ مرتين» [رواه البخاري (٢٥٤٦) في العتق؛ ومسلم (١٦٦٤) في الأيمان].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول لله ﷺ: «ثلاثة لهم أجْرَانِ: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيِّهِ، وآمن بمحمَّدٍ، والعبدُ المملوكُ إذا أدَّى حقَّ اللهِ، وحقَّ مواليه، ورجلٌ كانت له أمَةٌ فأدَّبها، فأحسنَ تأديبها، وعلَّمها،

فأحسن تعليمها، ثم اعتقها، فتزوَّجها، فله أجْرانِ» [رواه البخاري(٩٧) في العلم؛ ومسلم (١٥٤) في الإيمان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «للعبدِ المملُوكِ المصْلحِ أجران» والذي نفس أبي هريرة بيده، لولا الجهادُ في سبيل الله والحجُّ، وبرَّ أمي لأحبَبْتُ أن أموت، وأنا مملوك. [رواه البخاري (٢٥٤٨) في العتق؛ ومسلم (١٦٦٥) في الأيمان].

فإذا كان لهذا العبد الصالح مثل هذا الفضل، والأجر عند الله عز وجل، فليس له أن يزهد فيه، ويفسده على نفسه، وذلك بإباقه، وعصيانه، وإساءته لمن كلف بالعمل عنده، والتبعية له.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّما عبد أَبِق، فقد برئتْ منه الذمةُ» [رواه مسلم (٦٩) في الإيمان].

ومعنى أبق: هرب من خدمة سيده.

ومعنى برئت منه الذمة: أي ذمة الإسلام. وهذا دليل عصيانه.

وقال ﷺ: «إذا أبق العبدُ لم تقبل له صلاةٌ» [رواه مسلم (٧٠) في الإيمان].

وهذه المسؤولية على العصيان والإهمال والإخلال ليست خاصة بالمموك وحده يؤاخذ بها، ويعاقب عليها، بل هذا حكم كل مُخلّ ومقصر، وعاص، مهما كان شأنه.

قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ، وكلكم مسؤولٌ عن رعيته، فالإمامُ راع، وهو مسؤول عن رعيته، والرجلُ راعٍ في أهلِهِ، وهو مسؤولٌ عن رعيته، والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها، ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيده، ومسؤول عن رعيتهِ، ألا فكلُّكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري (٢٥٥٤) في العتق؛ ومسلم (١٨٢٩) في الإمارة].

وبهذا المبدأ العظيم يكون الإسلام قد وضع كل فرد أمام مسؤولياته، ورتب المؤاخذة على تقصيره، وإهماله، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨].

وقال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩-٤١].

* * *

الشعبة الستون

حقوق الأولاد والأهلين

الأولاد نعمة من الله عزَّ وجلّ، وهبة منه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ﴾ [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

وكذلك الزوجة منّةٌ منه وفضل، بها يتهيّأ الأُنس، ويتوفر السكون.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾ [النحل: ٧٢].

والأهلُ والأولاد هم في الحقيقة متعة الحياة الدنيا وزينتها، كما قال الله عزّ وجلّ: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

ثم إن المتعة والبهجة إنما تأخذ أوجها في الأزواج والأولاد حينما يكونون بررة صالحين، فهم عندئذٍ قرّة عين الإنسان، وإننا مكلّفون أن نسأل الله عزَّ وجلّ أن يهبنا مثل هؤلاء الأزواج والذريّة، قال الله تبارك وتعالى في صفات عباد الرحمن:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

فإذا كان الأهل والأولاد هبة من الله تعالى ونعمة، فإن واجب العبد أن يقدِّر هذه النعمة، ويرعاها حقَّ رعايتها، وفق ما يرضي الله تعالى، كما عليه أن يشكره عليها، وأن يصونها، لأنها أمانة عنده، ويقوم بالمحافظة عليها، حتى تؤدي دورها على النحو الذي يؤدي الغاية منها، ويرضي الله عزَّ وجلّ.

والإنسان مسؤول عن التقصير في شكر هذه النعمة، أو التفريط في رعايتها.

قال رسول الله ﷺ في جملة ما قال: «والرَّجل راعٍ في أهلِهِ، وهوَ مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري (٢٥٥٤) في العتق؛ ومسلم (١٨٢٩) في الإمارة].

ثم إن من صور هذه الرعاية، ومن حقوق هؤلاء الأهل والأولاد أن يجنبهم الحرام، ويحافظ عليهم من الوقوع في المعاصي المفضية إلى النار.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وليست النعمة الزوج والولد خاصة بالرجل، بل هي أيضاً نعمة على المرأة، وهبة إليها، لذلك كانت الزوجة مكلَّفة بشكر هذه النعمة، والمحافظة عليها، وبذل الوسع في رعايتها، وقد ذكر النبي ﷺ مسؤوليتها في هذا، فقال: «والمرأةُ راعيةٌ في بيتِ زَوجها، ومسؤولةٌ عن رعيَّتها» [رواه البخاري (٢٥٥٤) في العتق؛ ومسلم (١٨٢٩) في الإمارة].

هذا، وقد رتّب الدين على الرَّجل كثيراً من الواجبات نحو أولاده، وأرشده إليها، لتكون هذه الذريَّةُ صالحة مباركة، زاكية نامية، تؤدي حقَّ الشكر لله تعالى، والبرِّ للوالدين، ومن أول هذه الواجبات:

١ ـ اختيار الزوجة الصالحة التقيّة العاقلة، لأنها الحضن القادر على الرعاية، والحصن الواقي من الآفات. قال رسول الله ﷺ وهو يرشد إلى مثل هذه الزوجة التقيّة النقيّة: «تُنْكحُ المرأةُ لأربعٍ: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفَرْ

بذاتِ الدِّين تَرِبتْ يداكَ» [رواه البخاري (٥٠٩٠) في النكاح؛ ومسلم (١٤٦٦) في النكاح].

٢ ـ إذا دخل على زوجته أول مرة يستحب أن يضع يده على ناصيتها، ويسأل الله عز وجل خير هذه المرأة، وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ بالله من شرّها، وشرّ ما جُبِلَت عليه.

قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أحدكم بأهله، فليأخذ بناصيتها، ثم ليقل: «اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ خيْرَها، وخير ما جبلتها عليه، وأعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما جبلتها عليه» [رواه أبو داود (٢١٦٠) في النكاح].

٣ ـ وإذا خلا الزوج بزوجته استحبَّ له أن يسمّي الله، ويسأله أن يجنبه الشيطان.

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أنَّ أحدَكُم إذا أراد أن يأتيَ أهله قال: بسمِ اللهِ، اللَّهم جنِّبْنا الشَّيطانَ، وجنِّبِ الشَّيطانَ ما رزقتنا، فإنَّهُ إن يُقدَّرْ بينهما ولد في ذلك لم يضره شَيطانٌ أبداً» [رواه البخاري (٥١٦٥)؛ ومسلم (١٤٣٤) في النكاح].

فبهذا الذكر عند الصلة بالأهل يضمن الإنسان سلامة نسله من وساوس الشيطان، ويصونهم من مغرياته، والشيطان وسيلة الفساد الأولى، والوقاية من شره إنما تكون بالاستعاذة بالله منه، والله قادر على دفع شره.

٤ ـ وإذا ولد له ولد استحب أن يُبادر إلى الأذان في أذنه اليمنى، ليكون توحيد الله عز وجل أول ما يقرع سمعه عند قدومه إلى الدنيا، أملاً وتفاؤلاً أن يعيشَ عليه.

عن أبي رافع رضي الله عنه قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ أذَّن في أُذنِ الحسن ابن علي رضي الله عنهما حين ولدته فاطمة، رضي الله عنها» [رواه الترمذي (١٥١٤) في الأضاحي].

٥ ـ ويُستحب أن يحنِّك ولده بشيءٍ من التمر، لتصل حلاوته إلى جوفه، فيستبشر بحلاوة حياته، وإذا حمله إلى بعض الصالحين ليحنِّكه كان حسناً.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «وُلِدَ لي غلام، فأتيتُ به النبيَّ ﷺ، فسمَّاهُ عبدَ اللهِ، وحنكه بتمرٍ» [رواه مسلم (٢١٤٥) في الأدب].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالصبيان، فيبرِّكُ عليهم، ويحنِّكُهم» [رواه مسلم (٢١٤٧) في الأدب].

٦ ـ وإذا بلغ المولود يومه السابع استحب أن يحلق شعره، ويتصدق بزنته ذهباً، أو فضة، ويسميه بأحب الأسماء، ويعقَّ عنه، ويختنه إن احتمل ذلك.

عن علي رضي الله عنه قال: عق رسول الله ﷺ عن الحسن بشاةٍ، وقال: «يا فاطمةُ، احلقي رأسه، وتصدَّقي بزنة شعرِهِ فضَّةً» [رواه الترمذي (١٥١٩) في الأضاحي].

وقال ﷺ: «إنَّكم تُدعونَ يومَ القيامة بأسمائكم، وأسماء آبائكم، فأحسنُوا أسماءكم» [رواه أبو داود(٤٩٤٨) في الأدب].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحبَّ أسمائكم إلى الله عبدُ اللهِ، وعبد الرحمن» [رواه مسلم (٢١٣٢) في الأدب].

٧ ـ ثم إن واجب الأب أن يرعى صحة ولده، فيسعى في نظافته، وتغذيته، وعلى الأم أن ترضعه، ولا تعجل في فطامه.

قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرءِ إثماً أن يضيِّعَ من يقُوتُ» [رواه أبو داود (١٦٩٢) في الزكاة].

٨ ـ وإذا ما عقل الولد كان على الوالد تأديبه، وتعليمه ما ينفعه من أمور دينه ودنياه، وأن يبعده عن قُرناء السُّوء، وأهل الشر والفساد، وعليه أن يراقب سلوكه وتصرفاته، ويسعى في تقويمه، فإنه مسؤول عن كل ذلك، فإنه أمانة عنده. فإذا ما انحرف كان بتقصيره في رعايته.

قال رسـول الله ﷺ: كُلُّ مَولـودٍ يُولدُ على الفطرة، فـأبواه يهوّدانـه، أو ينصّرانه، أو يُمجِّسانه» [رواه البخاري: (١٣٨٥) في الجنائز؛ ومسلم (٢٦٥٨) في القدر].

وقد ضرب الله عز وجل لنا مثلاً في كتابه العزيز على حسن رعاية الولد. وعرض الأفكار الرشيدة عليه، وتعليمه عقائد الدين ومبادئ العبادة، وقواعد السلوك، وذلك بذكر موعظة لقمان لابنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٢-١٣].

ثم قال له: ﴿ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ [لقمان: ١٦-١٩].

هذه التربية الرشيدة للأهل والولد، إنما يقطف ثمارها الوالد نفسه، وهي ذخره في الدنيا والآخرة.

* * *

الشعبة الحادية والستون

مقاربة أهل الدين، ومودّتهم وإفشاء السلام بينهم، والمصافحة لهم

مقاربة أهل الدين، ومخالطتهم، ومجالستهم، ومودتهم، ومصافحتهم، والسلام عليهم، والركون إليهم، وبذل الحب لهم، كل هذا من الدين، ومن شُعب الإيمان، ومن ثمراته المباركة، لأنه يعود على الإنسان، وعلى الناس بالخير، فمصاحبة الأخيار خير، كما أن مصاحبة الأشرار شرٌّ، والطيور على أشكالها تقع.

وقد حثّ القرآن الكريم النبي ﷺ على ملازمة الأخيار، وعدم البعد عنهم، فقال الله عزّ وجلّ لنبيه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال له أيضاً: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

وأمره عزَّ وجلّ إذا جاءه الصالحون من أصحابه أن يرحب بهم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنما مَثَلُ

الجليسِ الصَّالح، وجليسِ السُّوءِ: كحاملِ المسْكِ، ونافخِ الكيرِ. فحاملُ المسْكِ إمَّا أنْ يُحذيَكَ، وإمَّا أن تبتاعَ منه، وإمَّا أن تَجِدَ منه ريحاً طيبةً. ونافخُ الكير إمَّا أن يَحرِقَ ثيابكَ، وإمَّا أن تَجِدَ منه ريحاً مُنتنةً» [رواه البخاري (٥٥٣٤) في الذبائح؛ ومسلم (٢٦٢٨) في البر].

يحذيك: يعطيك.

وهذا تشبيه رائع، وتصوير واضح، لأثر الصحبة في الحياة، فصحبة الرجل الصالح التقي الورع لا تخلو من فائدة، ولا يعدم مجالسه خيراً يناله منه، وأقلُّ ما في صحبته أنه إذا لم ينفعك بشيء، فإنه لا يضرُّك.

وأما مجالسة الفاسق، والفاجر، فلا تخلو من مضرَّةٍ، ولا يسلم جليسه من إثم، وإن سلم، فليس في صحبته خير يرتجي، ولا فائدة تذكر، ولهذا قيل: لا تُمكِّنْ زائغَ القلْبِ من أذنَيْكَ، فإنَّكَ لا تدْري ماذا يعلقُ بك منه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الرَّجلُ على دينِ خليلِهِ، فَلينظُرْ أحدُكم من يُخالِلُ» [رواه الترمذي (٢٣٧٩) في الزهد؛ وأبو داود (٤٨٣٣) في الأدب].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تُصاحِبْ إلاَّ مُؤمناً، ولا يأكُلْ طعامَكَ إلاَّ تقيٌّ» [رواه الترمذي (٢٣٩٧) في الزهد].

وقال الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقد ذكر القرآن أثر الصحبة السيئة، وأبان خيبة أولئك الذين ربطت بينهم وشائج السوء في الدنيا.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ـ٢٩].

والحقّ أن الإنسان إذا أكثر من مجالسة قوم أَلِفَهم، ومال إليهم. وأحبَّ صنيعهم وتأثّر بهم، واحتسب منهم، يوصف بمثل صفتهم، فإن صاحب الأخيار عُدَّ منهم، وإن صاحب الأشرار عُدَّ منهم أيضاً. ولهذا قال الله تعالى:

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣].

وقال: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٤٠].

وأن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قيل للنبي ﷺ: الرَّجلُ يُحبُّ القَومَ، ولما يلْحَقْ بهم؟. قال: «المرءُ معَ من أحبَّ» [رواه البخاري (٦١٧٠) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٤١) في البر].

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ: متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددْتَ لها؟». قال: حبَّ اللهِ ورسوله. قال: «أنتَ معَ من أحببْتَ» [رواه مسلم (٢٦٣٩) في البر].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبَّ قوماً، ولم يلحقَ بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «المرْءُ مع مَنْ أحبَّ» [رواه البخاري (٦١٦٩) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٤٠) في البر].

وقد رغّب النبي ﷺ بالحرص على رؤية الصالحين، والأُنس بهم، والرغبة في دعائهم. فإن لهذا أثره في الدنيا، والآخرة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيْسُ بنُ عامرٍ مع أمداد أهلِ اليمنِ، من مُرادٍ، ثم من قَرَنٍ كان به بَرَصٌ، فبرأ منه إلاَّ موضعَ دِرهمٍ، له والدةٌ هو بها برٌّ، لو أقسم على اللهِ لأبرَّه، فإن استطعتَ أن يستغفرَ لك فافعلْ» [رواه مسلم (٢٥٤٢) في فضائل الصحابة].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: استأذنتُ النبي ﷺ في العمرة،

فأذن لي، وقال: «لا تَنْسنا يا أُخيَّ من دعائكَ» فقال كلمة، ما يسرُّني أن لي بها الدنيا.

وفي رواية، قال: «أشرِكْنَا يا أخيَّ في دُعائكَ» [رواه أبو داود (١٤٩٨) في الدعاء؛ والترمذي (٣٥٥٧) في الدعوات].

وقد قص الله عز وجل في كتابه الكريم قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وفيها ما فيها من الرغبة في مجالسة الصالحين، والاستفادة من العلماء، فإن موسى عليه السلام قطع المسافات البعيدة ليلقى الخضر، ويأخذ عنه، ويستفيد منه.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٦٠ـ٧٠].

وتبعه موسى، ورأى منه العجب العجاب، واستفاد منه العلم الكثير، ولو صبر لرأى أكثر. وعلم ما لم يكن يعلم.

واجتماع بأهل الخير، ورؤيا الصالحين، ولقياهم كان أيضاً من أخلاق أصحاب النبي ﷺ.

فهذا أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيكِ؟ أما

تعلمينَ أنَّ ما عند اللهِ خير لرسوله ﷺ، فقالت: إني لا أبكي، أني لا أعلم أنَّ ما عند الله خير لرسوله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحْيَ قد انقطع من السَّماء، فهيَّجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها. [رواه مسلم (٢٤٥٥) في فضائل الصحابة].

إن رسول المحبة بين المسلمين، وسلطانَ الودِّ بينهم؛ إلقاء السلام، وإطعام الطعام، وإلى كليهما دعا الإسلام.

قال رسول الله ﷺ: «يا أيُّها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصلُّوا بالليل والناسُ نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذي (٢٤٨٥) في صفة القيامة].

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧].

وقال عزَّ وجلّ في مدح إطعام الطعام: ﴿ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ [الإنسان: ٨ـ١٢].

فمن السنّة، والأدب إذا لقى أحد أخاه أن يبادره بالسلام، ويمدَّ يده إليه بالمصافحة.

قال أبو بكر رضي الله عنه: السلام أمان من الله في الأرض.

وقال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان إلا غُفر لهما قبل أن يتفرقا» [رواه أبو داود (٥٢١٢) في الأدب].

هذا، وينبغي إكرام الكبار، واحترامهم، ومودتهم، والتواضع لهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلالِ اللهِ، إكرامَ ذي الشـيْبة المسلم» [رواه أبو داود (٤٨٤٣) في الأدب].

وقال: «ما أكرم شابٌ شيخاً لسنه إلا قيَّضَ الله له من يكرمُهُ عند سنِّهِ» [رواه الترمذي (٢٠٢٣) في البر].

فإذا كان هذا موقف الإسلام من مودّة الصالحين، ومقاربتهم، وإلقاء السلام عليهم. فإن الدين نهى عن عداوتهم، وإلحاق الأذى بهم. فإنه من المحرمات التي لا تليق بمسلم.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

* * *

الشعبة الثانية والستون

إلقاء السلام ووجوب ردّه

السلام اسم من أسماء الله تعالى الحسنى، كما ثبت ذلك من القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣].

والسلام: الأمانُ، وهو ضدُ الخوف، والحرب.

قال الله تعالى: ﴿سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

والسلام تحية أهل الجنة. قال الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

والسلام شعار المسلمين في تحيتهم، إذا لقي بعضهم بعضاً.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والسلام رسول المحبة بين المسلمين.

قال رسول الله ﷺ: «ألا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحابَبْتم، أفشُوا السَّلام بينكم» [رواه مسلم (٥٤) في الإيمان].

فإذا سلَّم المسلم على المسلم، فكأنما قدَّم إليه كل معاني الحب. والأمان، والاطمئنان، وبذل له روح السلامة من كل أذى وعدوان، وردُّ السلام يحمل نفس المعاني الجميلة، والمقاصد الكريمة.

وصيغة السلام المفضلة بين المسلمين: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» وردُّه: «وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته». وليس هناك صيغة للتحية تحمل معنى أجمل من هذه الصيغة، ولذلك لا يوجد من صيغ التحيات ما يقوم مقامها أو يغني غناءها.

قال أبو بكر رضي الله عنه: السلام أمان من الله في الأرض.

والسلام سُنّة عينية مؤكَّدة إذا كان المسلِّم واحداً، وسنة كفائية إذا كانوا جماعة، وقد جاء في الترغيب بالسلام وبيان فضله آثار كثيرة، تحثُّ المسلم على الحرص عليه، والمسارعة إليه، كلما لقي أخاه، سواء كان يعرفه، أو لم يكن يعرفه.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: «تُطْعمُ الطَّعامَ، وتَقرأ السَّلامَ، على من عرفْتَ، ومن لم تَعرِفْ» [رواه البخاري (١٢) في الإيمان؛ ومسلم (٣٩) في الإيمان].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا أيُّها النَّاس! أفشُوا السَّلامَ، وأطعمُوا الطَّعامَ، وصلُوا الأرحامَ، وصلُّوا والنَّاسُ نيام، تدخلُوا الجنَّةَ بسلامٍ» [رواه الترمذي (٢٤٨٧) في الأطعمة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا لقِيَ أحدُكم أخاهُ فليُسلِّمْ عليه، فإن حالتْ بينهما شَجرةٌ أو جدارٌ أو حجرٌ، ثم لقيهُ، فليُسلِّمْ عليه» [رواه أبو داود (٥٢٠٠) في الأدب].

وعن أبي أمامة الباهليّ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أولَى النَّاسِ باللهِ من بدأهُمْ بالسَّلامِ» [رواه أبو داود (٥١٩٧) في الأدب].

وفي رواية: يا رسولَ الله، الرَّجلان يلتقيانِ، أيُّهما يبدأ بالسلام؟ قال: «أولاهُما باللهِ تعالى» [رواه الترمذي (٢٦٩٥) في الاستئذان].

هذا الترغيب بالسلام لا يزهد بمثله إلا بخيل قليل الحظ، عديم الرغبة في الخير، ولقد كثر أمثال هذا في الناس في مثل أيامنا، فكم من مارٍّ يمرُّ على الناس، فلا يسلِّم عليهم، ولا يلوي إليهم، كأنه ليس بينه وبينهم مودة، ولا تربطه بهم أخوة، متجاهلاً أن إلقاء السلام، وردَّ السلام من شعائر الإسلام، وشعب الإيمان، التي يخاطب ويطالب بها المؤمنون، ويدعى إليها المسلمون.

حتى إن الدين رغب بالسلام عند دخول المرء بيته، ولو لم يكن فيه أحد من أهله.

قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا بُنيَّ، إذا دخلتَ على أهلك، فسلم يكن بركة عليك، وعلى أهل بيتك» [رواه الترمذي (٢٦٩٩) في الاستئذان].

وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ﴾ [النور: ٢٧].

ومن السنّة إذا دخل على الناس في مجلس أن يسلم، فإذا أراد أن يخرج فليسلّم أيضاً، فقد أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه. قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا انتهى أحدُكم إلى المجلس فَليُسلِّمْ، فإذا أراد أن يقُومَ فليُسلِّمْ، فليستِ الأولى بأحقَّ من الآخرة» [رواه أبو داود (٥٢٠٨) في الأدب؛ والترمذي (٢٧٠٧) في الاستئذان].

ومن السنَّة أيضاً أن يسلم على الصغار، وعلى النساء اللاتي تؤمن الفتنة من السلام عليهن.

عن أنس رضي الله عنه، أنه مرَّ على صِبيانٍ فسلَّم عليهم، وقال: كان رسولُ اللهِ ﷺ يفعلُ ذلك» [رواه البخاري (٦٢٤٧) في الاستئذان؛ ومسلم (٢١٦٨) في السلام].

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: «مرَّ علينا النبي ﷺ في نِسوةٍ، فسلَّمَ علينا» [رواه أبو داود (٥٢٠٤) في الأدب؛ والترمذي (٢٦٩٨) في الاستئذان].

ومن آداب السلام: أن يسلم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد،

والصغير على الكبير، والقليل على الكثير، ولا يشير بيده عند السلام من غير ضرورة، ولا ينحني لمن يسلّم عليه، ولا يلتزمه إلا أن يكون قادماً من سفر، وبكل هذا جاءت السنّة المشرّفة، على صاحبها أفضلُ الصلاة وأزكى التسليم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يسلِّمُ الراكبُ على الماشي، والماشي على القاعدِ، والقليلُ على الكثير، والصغير على الكبير» [رواه البخاري (٦٢٣٢) في الاستئذان؛ ومسلم (٢١٦٠) في السلام].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله، الرجلُ منا يلقى أخاه، أو صديقهُ، أينحني له؟ قال: «لا». قال: أفيَلْتزمهُ، ويقبلُهُ؟ قال: «لا» قال: فيأخذ بيده، ويصافحُهُ؟ قال: «نعم» [رواه الترمذي (٢٧٢٩) في الاستئذان].

هذا كله في إلقاء السلام وآدابه، أما ردُّ السلام، ففرض عين إذا كان المسلِّمُ عليه واحداً، فإذا كانوا جماعة كان الردُّ فرض كفاية، والأفضل أن يردُّوا جميعاً.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لما خلق اللهُ آدمَ - ﷺ - قال: اذهبْ فسلِّمْ على أولئك - نفرٍ من الملائكة جلوسٌ - فاستمعْ ما يحيُّونكَ، فإنَّها تحيَّتُكَ، وتحيَّةُ ذُرّيتكَ، فقال: السلامُ عليكم، فقالوا: السلام عليك، ورحمةُ اللهِ، فزادوه: ورحمة الله» [رواه البخاري (٦٢٢٧) في الاستئذان؛ ومسلم (٢٨٤١) في صفة الجنة].

وعن عمران بن الحصين رضي الله عنهما قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه، ثم جلس، فقال النبي ﷺ: «عَشْرٌ» ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه فجلس، فقال: «عشرونَ». ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه، فجلس، فقال: «ثلاثون» [رواه أبو داود (٥١٩٥) في الأدب؛ والترمذي (٢٦٩٠) في الاستئذان].

فبان بهذا أنّ السلام، وكذلك الردّ كلما كان أكمل صيغة، كان أفضل، وأكثر ثواباً.

ومما ينبغي أن يلاحظ ضرورة المحافظة على صيغة السلام عن اللقاء ولا يستبدل غيرها بها. مما اصطلح الناس عليه من الألفاظ: كصباح الخير، ومساء الخير، وغير ذلك، وأبشع من هذا أن تستعمل من الألفاظ ما كان من غير اللغة العربية.

وقد شاع ذلك في بعض المتفرنجين، والمتظاهرين بالتمدُّن، والتقدم.

فإن تحية المسلمين في الدنيا والآخرة: «السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته». ونعمت التحية من ربّ البريَّة تبارك وتعالى.

* * *

الشعبة الثالثة والستون

عيــادة المريض

عيادة المريض سنّة مؤكدة، وقال بعض العلماء: إنها واجبة ولو مرّة واحدة لمن علم به، وهي من حقوق المسلمين بعضهم على بعض، لأن المسلمين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ كالجسد، كما قال النبي المصطفى ﷺ، والمسلم أخو المسلم، ومن حقّ هذه الأخوة اهتمام المسلمين بعضهم ببعض، وسؤال بعضهم عن بعض.

قال رسول الله ﷺ: «للمسلم على المسلم ستُّ خصالٍ واجبة، فمن ترك منها خصلة ترك حقاً واجباً عليه:

أن يجيبَهُ إذا دعاه، ويسلِّمَ عليه إذا لقيَهُ، ويشمِّتَهُ إذا عطس، ويعودَهُ إذا مرض، ويشيِّعَ جنازتَهُ إذا مات، وينصحهُ إذا استنصحَهُ» [رواه أحمد: ٢/ ٣٢١].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ بعيادة المريض، واتباع الجنازة، وتَشميت العاطس، وإبرارِ المقسِم، ونصرِ المظلوم، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام» [رواه البخاري (١٢٣٩) في الجنائز؛ ومسلم (٢٠٦٦) في اللباس].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حقُّ المسلم على المسلم خَمسٌ: ردُّ السلام، وعيادةُ المريض، واتباعُ الجنائز، وإجابةُ الداعي، وتشميت العاطس» [رواه البخاري (١٢٤٠) في الجنائز؛ ومسلم (٢١٦٢) في السلام].

هذه الحقوق والأوامر، كلها من مقتضى الإيمان بالله، والأخوّة في الدين.

وقد تكاثرت الأدلة في السنّة المشرفة التي تحضُّ على عيادة المريض، وتأمر بها، وتبين فضلها، وما يترتب عليها من المثوبة عند الله تعالى، ومن هنا

كانت عيادة المريض شعبة من شعب الإيمان العظيمة.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عُودُوا المريضَ، وأطعمُوا الجائعَ، وفكُّوا العاني» [رواه البخاري (٥٦٤٩) في المرضى].

العاني: الأسير.

وعن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يعودُ مسلماً غُدْوةً إلاَّ صلَّى عليه سبعون ألف ملكٍ حتى يمسي، وإن عاده عشيَّة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح، وكان له خريف في الجنَّةِ» [رواه الترمذي (٩٦٩) في الجنائز].

والخريف: الثمر المخروف، أي المجتنى.

وعن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ المسلم إذا عاد أخاه لم يَزَلْ في خُرْفةِ الجنَّة حتَّى يرجعَ». قيل: يا رسول الله، وما خُرْفة الجنَّة؟ قال: «جناها» [رواه مسلم (٢٥٦٨) في البر].

وهذا جزاءٌ عظيم، وفضل لا ينبغي لمسلم أن يزهد فيه، فأي جزاء أعظم من أن يصلي عليه سبعون ألف ملك كلهم مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، ثم هو في رياض الجنة، يتفيأ ظلالها، ويجني جناها.

وقد كان رسول الله ﷺ يعود أصحابه إذا مرضوا، فيواسيهم، ويطيّب قلوبهم، ويدعو لهم، وربما عاد بعض أهل الكتاب، ودعاهم إلى الله عز وجل.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: جاءني رسول الله ﷺ يُعودني من وجع اشتدَّ بي» [رواه البخاري (٢٧٤٤) في الوصايا؛ ومسلم (١٦٢٨) في الوصية].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده، وكان إذا دخل على من يعوده قال: «لا بأسَ، طهُورٌ إن شاء الله» [رواه البخاري (٥٦٥٦) في المرضى].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال: عادني رسول الله ﷺ،

فقال: «اللهم اشْفِ سَعْداً، اللهم اشْفِ سَعْداً، اللهم اشْفِ سَعْداً» [رواه مسلم (١٦٢٨) في الوصية].

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يعود بعضَ أهلِه، يمسح بيده اليمنى، ويقول: «اللهم ربَّ النَّاسِ، أذهِبِ البأسَ، اشْفِ أنتَ الشافي، لا شِفَاءَ إلاَّ شفاؤكَ، شفاءً لا يغادرُ سقماً» [رواه البخاري (٥٧٤٣) في الطب؛ ومسلم (٢١٩١) في السلام].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان غلامٌ يهوديٌّ يخدم النبي ﷺ، فمرض، فأتاه النبي ﷺ يعودُهُ، فقعد عند رأسه، فقال له: «أَسْلِمْ» فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال: أطِعْ أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبي ﷺ، وهو يقول: «الحمدُ للهِ الذي أنْقَذَهُ من النَّارِ» [رواه البخاري (١٣٥٦) في الجنائز].

وقد رُوي ما يدل على لوم من ترك عيادة المريض، والعتاب له.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ يوم القيامة: يا بنَ آدَمَ، مرِضتُ، فلم تعُدْني، قال: يا ربِّ، كيف أعودُكَ، وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّ عبدي فُلاناً مرض، فلم تعُدْهُ، أما علمتَ أنَّكَ لو عدُتَهُ لوجدتني عنده؟ يا بن آدمَ، استطعمتكَ، فلم تُطعمني. قال: يا ربِّ، كيف أطعُمكَ، وأنتَ ربُّ العالمين؟ قال: أما علمتَ أنَّه استطعمكَ عبدي فُلانٌ، فلم تطعمْهُ، أما علمتَ أنَّكَ لو أطعمتَهُ لوجدت ذلك عندي. يا بن آدمَ، استَسقَيتُكَ فلم تَسْقني. قال: يا ربِّ، كيف أسقيكَ، وأنت ربُّ العالمين؟ قال: استَسْقاكَ عبدي فُلانٌ، فلم تَسقِهِ، أما علمتَ أنَّكَ لو سقيتَهُ لوجدت ذلك عندي» [رواه مسلم (٢٥٦٩) في البر].

فانظر، يا رعاك الله - كيف جعل الدينُ التقصيرَ في حقّ العباد تقصيراً في حقِّ الله تعالى، وكيف أن الإحسان إلى العباد عبادة ترضي الله عز وجل، وتستوجب الأجر والمثوبة.

قال العلماء: يُستحَبُّ في عيادة المريض أن لا يكثر من الجلوس عنده، لما يخشى من إملاله، ومضايقته، وأن لا يطعم عنده شيئاً، وأن ينظر في حاله، فإن رآه قلقاً، أو ضعيفاً لا ينشرح لحديثه أن لا يلح عليه بالمسألة، وإن رآه منشرح الصدر، فلا بأس بمحادثته، والسؤال عن حاله.

ومن أداب عيادة المريض أن يدعو له، ويبشِّره بالشفاء، ويذكره بما ينبغي أن يفعله بنفسه، وهو مريض، وقد وردت في هذا الخصوص أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ كان إذا دخل على من يعوده قال: «لا بأس طَهُورٌ إن شاء الله».

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبيَّ ﷺ كان إذا اشتكى الإنسانُ الشيءَ منه ـ أو كانت به قُرْحَةٌ، أو جُرْحٌ ـ قال النبي ﷺ بأصبُعه هكذا ـ ووضع سفيان بن عيينة، الراوي سبَّابته بالأرض، ثم رفعها ـ وقال: «بسمِ الله، تربةُ أرْضنا، بريقةِ بعضنا، يُشْفى به سقيمنا، بإذن ربِّنا» [رواه البخاري (٥٧٤٦) في الطب؛ ومسلم (٢١٩٤) في السلام].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من عاد مريضاً لم يحضُرهُ أجلُهُ، فقال عنده سبع مرات: أسأل اللهَ العظيمَ، ربَّ العرشِ العظيم، أن يَشفِيَكَ، إلا عافاهُ اللهُ من ذلك المرض» [رواه أبو داود (٣١٠٦) في الجنائز؛ والترمذي (٢٠٨٤) في الطب].

وعن أبي عبد الله بن أبي العاص رضي الله عنه، أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجدُهُ في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يدَكَ على الذي يألمُ من جسدِكَ، وقل: بسم الله ثلاثاً، وقل سبع مرَّاتٍ: أعوذ باللهِ وقدرته من شرِّ ما أجدُ وأحاذرُ» [رواه مسلم (٢٢٠٢) في السلام].

ومن دخل على مريض قد اشتدَّ مرضه، ونزلت به سكرات الموت، استحبَّ

أن يلقنه الشهادة من غير أن يلحّ عليه، ولكنه يقولها عنده من حيث يسمعها، لعله أن ينطق بها.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقِّنُوا موتاكم: لا إلـٰهَ إلا الله» [رواه مسلم (٩١٦) في الجنائز].

وعن معاذ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان آخرُ كلامِهِ لا إلـٰهَ إلاَّ الله دخل الجنَّة» [رواه أبو داود (٣١١٦) في الجنائز].

وعن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رضي الله عنهما، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «من قال: لا إلـٰهَ إلاَّ الله والله أكبَرُ، صدَّقهُ ربُّه، فقال: لا إلـٰهَ إلاَّ أنا، وأنا أكبَرُ. وإذا قال: لا إلـٰهَ إلا الله وحدَهُ لا شريكَ له، قال: يقول: لا إلـٰهَ إلاَّ أنا وحدي، لا شريكَ لي، وإذا قال: لا إلـٰهَ إلاَّ الله له الملكُ، وله الحمدُ، قال: لا إلـٰهَ إلاَّ أنا ليَ الحمدُ، وليَ الملكُ، وإذا قال: لا إلـٰهَ إلاَّ الله، ولا حوْلَ، ولا قوَّةَ إلاَّ باللهِ، قال: لا إلـٰهَ إلاَّ أنا، ولا حول، ولا قوَّة إلاَّ بي». وكان يقول: «من قالها في مرضه، ثم مات لم تطعمه النَّارُ» [رواه الترمذي (٣٤٢٦) في الدعوات].

* * *

الشعبة الرابعة والستون

الصلاة على من مات من أهل القبلة

المراد بأهل القبلة المسلمون قاطبة، فإذا مات أحدٌ من المسلمين وجب عليهم أن يغسِّلوه، ويكفنوه، ويصلوا عليه، ويدفنوه.

وهذه كلها فروض كفاية من الدين، وشعب الإيمان، تجب لكل مسلم مات احتراماً له، وأداء لحقّه، فإذا قام بعض المسلمين بهذه الواجبات كفى، وتحقق المقصود، وإن لم يقم بها أحد أثموا جميعاً.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «حقُّ المسلم على المسلم خَمْسٌ: ردُّ السلام، وعيادةُ المريض، واتباعُ الجنائز، وإجابةُ الدعوة، وتشميتُ العاطس» [رواه البخاري (١٢٤٠) في الجنائز؛ ومسلم (٢١٦٢) في السلام].

وما اتباع الجنائز إلا من أجل الصلاة على الميت، ومواراته في لحده.

وكيفية الصلاة على الميت: أن ينوي الصلاة عليه، ثم يكبر تكبيرة الإحرام، ويرفع يديه حذو منكبيه عندها، ويضع يده اليمنى على اليسرى، ويضعهما تحت صدره، كما يفعل في الصلاة المفروضة، ثم يقرأ الفاتحة وحدها بعد تكبيرة الإحرام سراً، الإمام والمأموم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه صلى على جنازة، فقرأ بفاتحة الكتاب، فقال: ليعلموا أنها سُنّة. [رواه البخاري (١٣٣٥) في الجنائز].

ثم يكبر التكبيرة الثانية مع رفع يديه، ثم إعادتهما إلى ما كانتا عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ، وأكمل هذه الصلاة الصلاة الإبراهيمية، التي تقرأ في الصلاة

المفروضة، ثم يكبر التكبيرة الثالثة، ثم يدعو للميت بعدها، ويخلص له في الدعاء.

عن أبي أمامة رضي الله عنه، أنه أخبره رجل من أصحاب النبي ﷺ أنّ السنّة في الصلاة على الجنازة أن يكبر الإمام، ثم يقرأ بفاتحة الكتاب بعد التكبيرة الأولى سرّاً في نفسه، ثم يصلي على النبي ﷺ، ويخلص الدعاء للجنازة في التكبيرات، أي الباقية، ولا يقرأ في شيء منهن، ثم يسلِّم سراً في نفسه، أي بعد التكبيرة الرابعة [رواه النسائي: ٤/ ٧٥].

والدعاء للميت بعد التكبيرة الثالثة والرابعة أهمُّ شيء في الصلاة على الميت، وقد رويت عن النبي ﷺ أدعية يُستحَبُّ الدعاء بها للميت، منها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في الصلاة على الجنازة «اللهم أنت ربُّها، وأنت خلقتها، وأنت هديتها للإسلام، وأنت قبضت روحها، وأنت أعلمُ بسرِّها، وعلانيتها، جئناك شُفعاءَ له، فاغفرْ له» [رواه أبو داود (٣٢٠٠) في الجنائز].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ صلى على جنازة فقال: «اللَّهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا، وصغيرنا وكبيرنا، وذكرنا وأنثانا، وشاهدنا وغائبنا. اللَّهم من أحييته منَّا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منَّا فتوفَّه على الإيمان، اللَّهم، لاتحرِمنا أجَرَه، ولا تفتنا بعده» [رواه الترمذي (١٠٢٤) في الجنائز].

وعن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه قال: صلَّى بنا رسول الله ﷺ على رجل من المسلمين، فسمعته يقول: «اللَّهم، إنَّ فُلانَ بنَ فُلانٍ في ذمَّتِكَ، وحَبلِ جوارك، فقِهِ فِتنةَ القبر، وعذابَ النَّار، وأنتَ أهلُ الوفاء والحمد، اللَّهم، فاغفِرْ له، وارحمهُ، إنَّكَ أنت الغفورُ الرحيمُ» [رواه أبو داود (٣٢٠٢) في الجنائز].

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه، قال صلَّى رسولُ اللهِ ﷺ على جنازة، فحفظتُ من دعائه، وهو يقول: «اللَّهم اغفر له، وارحمه، وعافهِ واعْفُ عنه، وأكرمْ نُزُلَهُ، ووسِّعْ مُدْخلَهُ، واغسلْهُ بالماءِ والثلجِ والبردِ، ونقِّهِ من الخطايا كما

يُنقَّى الثَّوبُ الأبيضُ من الدَّنسِ، وأبدِلْهُ داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهلِهِ، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخلهُ الجنَّـةَ، وأعِذهُ من عذاب القبر، ومن عذاب النار» حتى تمنَّيْتُ أن أكونَ أنا ذلك الميت. [رواه مسلم (٩٦٣) في الجنائز].

واستحبَّ العلماء أن يقول المصلي على الجنازة بعد التكبيرة الرابعة: «اللَّهم لا تحرمنَا أجره، ولا تفتنَّا بعده».

وإذا كان الميت طفلاً دعا لأبويه، فيقول: «اللَّهم اجعلْهُ لهما فَرَطاً، واجعله لهما سَلَفَاً، واجعله لهما ذُخراً، وثقل به موازينهما، وأفرغ الصبر على قلوبهما، ولا تفتنهما بعده، ولا تحرمنا أجره».

وبعد التكبيرة الرابعة يسلِّم المصلي عن يمينه، وعن شماله.

أما السقط، وهو الذي يولد قبل تمامه، فإنه إن ولد حياً، أو ظهرت عليه أمارة الحياة، بأن صرخ، أو تحرك، فإنه يعامل معاملة الكبير في الصلاة عليه، وغيرها. أما إذا ولد ميتاً، فإنه لا يصلى عليه، بل يغسل، ويكفن، ويدفن.

عن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الطفل لا يصلَّى عليه، ولا يرث، ولا يورث حتى يستهل» [رواه الترمذي (١٠٣٢)].

ومعنى يستهل: يصيح أو يتحرك، بحيث تعلم حياته.

وفي رواية: «إذا استهل السِّقْطُ صُلِّيَ عليه، وورث»[رواه ابن ماجه (١١٥٠٨)].

وأما الشهيد، وهو ميت المعركة، فإنه لا يغسل، ولا يصلَّى عليه، بل يكفن في ثيابه التي قتل فيها، ويدفن، والحكمة بقاء أثر الشهادة عليه، والتعظيم له، باستغنائه عن دعاء الناس له.

عن جابر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ أمر في قتلى أحد بدفنهم في دمائهم، ولم يغسلوا، ولم يصلِّ عليهم. [رواه البخاري (١٣٤٦) في الجنائز].

وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، ما من كلْمٍ يكلمُ في سبيلِ الله إلا جاء كهيئته حين كلم، اللَّونُ لون الدم، والريحُ ريحُ مِسْكٍ» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

ويُسنُّ عند دفن الميت أن يقول من يضعه في لحده: بسم الله، وعلى ملَّة رسول الله.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال: «بسمِ الله، وعلى سنَّة رسول الله» [رواه أبو داود (٣٢١٣)؛ والترمذي (١٠٤٦)].

ويُسنّ للمشيعين أن يمكثوا قليلاً عند القبر بعد دفن الميت.

عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، وقال: «استغفروا لأخيكم، وسلوا له التَّثبيت، فإنه الآن يسأل» [رواه أبو داود (٣٢٢١) في الجنائز].

إن تشييع الميت والصلاة عليه، ودفنه واجب على الأمة وهو عبادة لله، وتعظيم لحق الميت، ووفاء له من قبل إخوانه، وقد جاء الترغيب في كل هذا، والحرص عليه، حتى لا يزهد الناس فيه، ويتواكلوا فيما بينهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد الجنازة حتى يصلَّى عليها، فله قيراطٌ، ومن شهدها حتى تُدفَنَ فله قيراطانِ» قيل: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الجبلينِ العظيمينِ» [رواه البخاري (١٣٢٥) في الجنائز؛ ومسلم (٩٤٥) في الجنائز].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من اتَّبعَ جنازة مسلم إيماناً واحتساباً، وكان معه حتى يُصلَّى عليها، ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كلُّ قيراط مثل أحد، وإن صلى عليها، ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجعُ بقيراطٍ» [رواه البخاري (٤٧) في الإيمان].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من ميت يصلي عليه أمة من المسلمين يبلغون مئة، كلهم يشفعون له، إلا شفِّعُوا فيه» [رواه مسلم (٩٤٧) في الجنائز].

وعن ابن عباس رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من

رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلاً لا يشركون بالله شيئاً، إلا شفَّعهم الله فيه» [رواه مسلم (٩٤٨) في الجنائز].

وعن مرثد بن عبد الله اليَزَنيّ قال: كان مالك بن هبيرة رضي الله عنه إذا صلَّى على الجنازة، فتقالَّ النَّاس عليها جزَّأَهُمُ ثلاثة أجزاء، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلَّى عليه ثلاثةُ صفوفٍ فقد أوجب» [رواه أبو داود (٣١٦٦) في الجنائز؛ والترمذي (١٠٢٨) في الجنائز].

ومعنى: أوجب: أي وجبت له الجنة.

* * *

الشعبة الخامسة والستون

تشـميت العاطـس

التشميت: الدعاء بالخير، والبركة.

وتشميت العاطس: الدعاء له أن لا يكون في حال يشمتُ به فيها، فكأن المشمِّت يقول للعاطس: أبعد الله عنك الشماتة، وجنبك ما يشمتُ به فيك، وصيغة التشميت المفضلة: يرحمك الله، وإذا رحمه الله تعالى فقد صرف عنه الشماتة، وعافاه من كل ما يجرُّها إليه، وتشميت العاطس إذا حمد الله تعالى بعد عطاسه حقٌّ له على من سمعه من إخوانه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله يُحبُّ العُطاسَ، ويكره التَّثاؤبَ، فإذا عطس أحدُكم، وحمد الله تعالى كان حقّاً على كلِّ مسلمٍ سمعه أن يقول له: يَرحمُكَ اللهُ. وأمَّا التَّثاؤبُ فإنَّما هو من الشَّيْطانِ، فإذا تثاءب أحدُكم فليردَّه ما استطاع، فإنَّ أحدَكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطانُ» [رواه البخاري (٦٢٢٣) في الأدب].

قال العلماء: معنى هذا أن العطاس، سببه محمود، وهو خفة الجسم التي تكون من قلة الأخلاط، وتخفيف الغذاء، وهو أمر مندوب إليه، والتثاؤب بضدِّ ذلك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «حقُّ المسلم على المسلم خَمْسٌ: ردُّ السلام، وعيادةُ المريض، واتباع الجنائز، وإجابةُ الدَّعوة، وتشميتُ العاطس» [رواه البخاري (١٢٤٠) في الجنائز؛ ومسلم (٢١٦٢) في السلام].

ولا يستحق العاطس هذا التَّشميتَ ويجب له على إخوانه هذا الحقّ إلا إذا حمد الله تعالى بعد عطاسه.

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا عطس أحدُكم فحمد اللهَ فشمِّتُوه، فإن لم يحمَدِ اللهَ فلا تُشمِّتُوه» [رواه مسلم (٢٩٩٢) في الزهد].

وعن أنس رضي الله عنه قال: عطس رجلان عند النبي ﷺ، فشمَّتَ أحدَهما، ولم يشمِّتِ الآخر، فقال الذي لم يُشمتْهُ: عطس فُلانٌ فشمتَّهُ، وعطسْتُ فلم تُشمِّتني؟ فقال: «هذا حمد اللهَ، وإنَّكَ لم تحمدْهُ» [رواه البخاري (٦٢٢١) في الأدب؛ ومسلم (٢٩٩١) في الزهد].

وإذا شمَّت أحد العاطس كان عليه أن يجيب من شمته بقوله: يهديكم الله، ويصلح بالكم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدُكم فليقُلْ: الحمدُ لله، وليقُلْ له أخوه، أو صاحبُهُ: يرحمُكَ الله، فإذا قال له: يَرحمُكَ اللهُ، فلْيقُلْ: يهديكم اللهُ، ويُصْلحُ بالكم» [رواه البخاري (٦٢٢٤) في الأدب].

قال العلماء: ينبغي لمن عطس بحضرة غيره، أن يجهر بالحمد بعده، بحيث يسمع حمده من حضر، حتى لا يحرم نفسه دعاء إخوانه، فيما لو أخفى حمده عنهم.

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: اتفق العلماء على أنه يستحبُّ للعاطس أن يقول عقب عطاسه: الحمد لله، فلو قال: الحمد لله رب العالمين كان أحسن، ولو قال: الحمد لله على كل حالٍ كان أفضل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا عطس أحدُكم فليقُلْ: الحمدُ لله على كُلِّ حالٍ» [رواه أبو داود (٥٠٣٣)].

وقال النووي: التشميت سنَّةٌ على الكفاية، لو قاله بعض الحاضرين أجزأ

عنهم، ولكن الأفضل أن يقوله كل واحد منهم لظاهر قوله ﷺ: «كان حقاً على كل من سمعه أن يقول له: يرحمك الله».

ومن آداب العطاس أن يغطي العاطس فمه، ويخفض به صوته ما استطاع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا عطس وضع يده، أو ثوبه على فيه، وخفض، أو غضَّ بها صوته. [رواه أبو داود (٥٠٢٩) في الأدب؛ والترمذي (٢٧٤٦) في الاستئذان].

وإذا تكرر العطاس من إنسان، فالسنة أن يُشـمَّت لكل مرَّة، إلا أن يبلغَ ثلاث مرات، فإنه لا يشمت، لأنه مزكوم، ويدعى له بالعافية، والسلامة من المرض.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لرجل شمَّت عاطساً عنده ثلاث مرات، فلما أراد أن يشمته في الرابعة قال له: دَعْهُ، فإنَّهُ مَزْكُومٌ.

وإذا عطس إنسان، ونسي أن يحمد الله تعالى، فإنه يستحب لمن سمعه أن يذكره بحمد الله تعالى. حتى يُشمَّت، فينال بركة دعاء إخوانه له، وتذكيره بالحمد من باب النصيحة، والتعاون على البر.

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وقال ﷺ: «الدِّينُ النصيحةُ» [رواه مسلم (٥٥) في الإيمان].

وقال العلماء: إذا عطس العاطس، فإنه ينبغي لمن سمعه أن يتأنَّى عليه حتى يسكن ما به، ثم يشمِّته.

إن مثل هذه الشرائع والأحكام في العطاس، وغيره من محاسن هذا الدين، فإنها ترشده لأن يكون دائماً يقظ القلب، حاضر الخاطر عند كل أمر يقع منه، أو عليه، فإن كان خيراً حمد الله عزّ وجل، وشكره، وإن كان غير ذلك صبر، واسترجع، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله ليرضى عن العبد يأكلُ الأكلَةَ فيحمدُه عليها، ويشرَبُ الشَّرْبة فيحمدُه عليها» [رواه مسلم (٢٧٣٤) في الذكر].

وكذلك يرضى سبحانه وتعالى عن عبده يعطس العطسة، فيحمده عليها. فذلك كله من باب ذكر الله تعالى، وشكره.

قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

اللهمَّ أعِنَّا يا رب بفضلك وكرمك على ذكرك، وشكرك، وحُسن عبادتك.

* * *

الشعبة السادسة والستون

مباعدة الكفار والمفسدين والغلظة عليهم

مباعدةُ الكفار المعادين لنا في الحقّ، والمفسدين في الأرض، الساعين فيها بالخراب أمر واجب على أهل الإيمان، لأنه من فرائض الدين وشعبه، ومن لوازم الإيمان، لأنه ليس مقبولاً، ولا ومعقولاً أن يحبَّ الإنسان من يكرهه، ويصادق من يعاديه، ويوادّ من يريد أذاه، والله عزَّ وجلّ يقول في أولئك الكفرة:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢].

﴿وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

ومادام هؤلاء الكفرة يحملون في صدورهم مثل هذه الأحقاد على المسلمين ويتربصون بهم مثل هذه الداوئر، ويكيدون لهم أبشع الكيد، ويريدون في الأرض أسوء الخراب، فمن العبث والحماقة مقاربتهم، ومن البلاهة والغفلة محبتهم، وتحسين الظن بهم، وإنما يقضي العقل والنقل بمباعدتهم، والإغلاظ عليهم، والوقوف موقف الحزم والحذر منهم.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [التوبة: ٢٣].

أمَّا من لم يحمل من الكفار مثل هذه النفسيَّات الظالمة، والقلوب الحاقدة، والأعمال الآثمة، فإن الله عزّ وجل لم ينهنا عن الإحسان إليهم، وسلوك دروب اللِّين معهم، والكف عنهم.

قال الله تعالى: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فالأدلة إذاً واضحة في أنه لا يجوز للمؤمن أن يُحابي أولئك الأعداء، ولا أن يلاينهم، أو يتودد إليهم على حساب مصلحة دينه، وأمته، ولا أن يكون في لفظه أو لحظه ميل إليهم، ولا يجوز بحال أن يفشي إليهم أسرار المسلمين، أو يدلهم على عوراتهم، ولا ينبغي أن يأخذ عنهم من ضلالاتهم وثقافاتهم وأهوائهم ما يشكِّل خطراً على المسلمين في أخلاقهم، وعقائدهم، وتصرفاتهم، لأنهم ليسوا منا، ولسنا منهم، لنا ديننا، ولهم دينهم. ولنا مناهجنا، ولهم مناهجهم.

قال رسول الله ﷺ: «لا تَصحبْ إلاَّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاَّ تقيٌّ» [رواه أبو داود (٤٨٣٢) في الأدب].

وقال في المؤمنين والكافرين: «لا تراءى ناراهُما» [رواه أبو داود (٢٦٤٥) في الجهاد].

أي لا ينبغي أن يكون المسلم بقرب الكافر بحيث يتأثر به، أو يخضع له، أو يرضى عنه، ثم إنّ الله عزَّ وجلّ قد أوضح ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون فيما بينهم، وفيما بينهم وبين أعدائهم الذين يحاربونهم، ويكيدون إليهم، فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

فعلاقة المؤمن بالمؤمن علاقة مودة، وملاينة، ورحمة ومحبة، ونصح، وتواضع، لأنهم إخوة في الدين.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال رسول الله ﷺ: «المسلمُ أخو المسلم، لايظلمُهُ، ولايحقِرُهُ، ولايخذلُهُ» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

وقال: «لا يؤمنُ أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحبُّ لنفسه» [رواه البخاري (١٣) في الإيمان؛ ومسلم (٤٥) في الإيمان].

وقال: «مثل المؤمنين في توادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسَّهرِ، والحُمى» [رواه البخاري (٦٠١١] في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٦) في البر].

أما علاقة المؤمن بعدوه الكافر فعلاقة عزٍّ واستعلاء، وقوَّة وإباء، لا ملاينة، ولا مداهنة، ولا استخذاء، ما دام هذا الكافر قد قلب للمسلمين ظهر المجن، وسعى إليهم بالفساد والهلاك.

قال الله عزَّ وجلّ في وصف المؤمنين، وما ينبغي أن يكونوا عليه: ﴿ مُّحَمَّدٞ

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ ﴾ [الفتح: ٢٩].

هذه معايير وضعها العليم الحكيم للمسلمين، في علاقاتهم وتصرّفاتهم فيما بينهم، وفيما بينهم وبين أعدائهم، وهي معايير ثابتة، ومبادئ راسخة، لا يجوز أن تتبدَّل، ولا أن تتغير، ولا أن تنقلب رأساً على عقب، فالمؤمنون إخوة، والأخوَّةُ تقتضي التراحم والمحبة والتعاون، والكفار أعداء للمسلمين، والعداوة تستوجب الحذر، والشدَّة، والمعاملة بالمثل.

قال الله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [البقرة: ١٩٤].

فمادام الكفار لا يرقبون فينا إلاً ولا ذمّة، فمن الغفلة والبلاهة أن نعاملهم معاملة الصديق، ونمدّ إليهم يد المحبة، وهم لا يتورَّعون أن يقطعوها إن استطاعوا.

إن من المؤسف أن تنقلب هذه المعايير لدى كثيرين من المسلمين، فتراهم حُملاناً مع الأعداء، وحوشاً مع المسلمين، جبابرة على الأمة، أذلة مع أعدائها، إنها مواقف مخالفة للدين، والعقل، والمروءة.

قال العلماء: والفسّاق والفجرة وأصحاب الموبقات، ينبغي الإغلاظ عليهم، وترك الموادعة لهم، حتى يشعروا بسخط الناس عليهم، وعدم رضاهم عنهم، فعسى ذلك أن يكون رادعاً لهم عن فجورهم، ودافعاً لهم إلى إصلاح سيرهم.

* * *

الشعبة السابعة والستون

إكـرام الجـار

إكرام الجار واجب، وهـو من الإيمان، ومن شـعبه العظيمـة، وإيذاؤه حرام، وهو من الفسوق والعصيان.

والجار: كل من كان قريبـاً من المرء سـكناً، وعملاً، ويدخل فيه من كان مصاحباً في سفر.

وحدود الجوار ـ كما قيل ـ أربعون داراً من كل جانب، والجيران مراتب:

ـ جار قريب سكناً، ونسباً.

ـ وجار بعيد سكناً، ونسباً.

ـ وجار بعيد نسباً، قريب سكناً.

ـ وجار قريب نسباً، بعيد سكناً.

وقد جعل الدين بين هؤلاء الجيران حقوقاً متبادلة، تجب رعايتها، والعمل بمقتضاها، ويعود معظم هذه الحقوق إلى الإحسان، وكف الأذى. وأولى هؤلاء الجيران بالإكرام والإحسان، الجار القريب نسباً وسكناً، لأن له من الحقوق أكثر مما لغيره، والله عزّ وجل أوصى هؤلاء الجيران جميعاً أن يحنُّ بعضهم إلى بعض، ويكرم بعضهم بعضاً، ويكفوا عن أي أذى يصيب بعضهم من بعض، وهذه أمور تقتضيها الأخوة في الدين، والمروءة بين الجيران، فقرب الدار مدعاة لبذل المعروف، وكفّ الأذى.

قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ

﴿بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾
[النساء: ٣٦].

لقد نظم القرآن الكريم الجار في سلك هؤلاء الذين يجب الإحسان إليهم، والبرّ بهم، وقرن ذلك كله بعبادة الله عز وجل، واهتماماً بهذا لجانب الإنساني، واعتناءً به، فإنه من صميم الدين، ومبادئه العظيمة.

والجار ذو القربى: هو الجارُ الملاصق في المسكن، وإذا كان ذا قرابة في النسب كان حقه آكد، وأذاه أشنع، ولذا قيل:

وظلمُ ذوي القُرْبىٰ أشدُّ مضاضةً ... على النفس من وقع الحسام المهند

والجارُ الجُنبُ: هو الجار البعيد سكناً، ويتناول من كان إلى أربعين داراً من كل جانب.

عن عائشة رضي اللهُ عنها قالت: قلت: يا رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيّهما أهْدِي؟ قال: «إلى أقْرَبهما منكِ باباً» [رواه البخاري (٢٢٥٩) في الشفعة].

هذا إذا لم تتسع الهدية لكل الجوار، فالقريب أولى بالبر.

وعن أبي شُرَيْحٍ الخُزاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمنَ باللهِ، واليوم الآخر فليحْسِنْ إلى جاره..» [رواه مسلم (٤٨) في الإيمان].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» [رواه البخاري (٦٠١٨) في الأدب؛ ومسلم (٤٧) في الإيمان].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ الأصحاب عند الله تعالى خيرُهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عند الله تعالى خيرُهم لجاره» [رواه الترمذي (١٩٤٥) في البر].

وعن ابن عمر، وعائشة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «ما زال

جبريل يوصيني بالجار، حتَّى ظننْتُ أنَّـهُ سيُورِّثُه» [رواه البخاري (٦٠١٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٦٢٤) و(٢٦٢٥) في البر].

أي توقعت أن يجعل الجوار سبباً للإرث بين الجيران، كما أن القرابة سبب للميراث بين الأقارب، وهذا يدل على مزيد حق الجار، وضرورة إكرامه، وكف الأذى عنه.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذرٍّ، إذا طبخت مَرَقةً، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك» [رواه مسلم (٢٦٢٥) في البر].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا نساءَ المسلماتِ لا تَحْقرنَّ جارة لجارتها، ولو فِرْسِنَ شـاة» [رواه البخاري (٦٠١٧) في الأدب].

وقـال ﷺ: «لا يدخلُ الجنَّـة من لا يـأمنُ جارُه بوائقه» [رواه مسلم (٤٦) في الإيمان].

بوائقه: يعني شروره.

إن الإهداء إلى الجيران، والإحسان إليهم. وكفَّ الشرِّ والأذى عنهم من المعروف، ومكارم الأخلاق، ولا يخفى ما في هذا السلوك من تأليف القلوب، وجمع الشـمل، ورأب الصدق، وتمتين روابط الأخـوّة والمحبة، والمؤمنون إخوة، ولا يجوز أن يكون بينهم إلا الودُّ، والحبُّ، والمعروف.

قال رسول الله ﷺ: «كل معروف صدقة» [رواه مسلم (١٠٠٥) في الزكاة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعْ جارٌ جارَهُ أن يغرز خشـبةً في جداره»، قـال أبو هريـرة: ما لي آراكم عنها مُعْرضينَ؟ والله لأرمِينَّ بها بين أكتافكم. [رواه مسلم (١٦٠٩) في البيوع].

وهذا دليل على مدى التعاون، والتسامح بين الجيران.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة أخلاق كانت في الجاهلية، مستحبة، والمسلمون أولى بها:

أولها: لو نزل بهم ضيف، لا جتهدوا في برّه.

والثاني: لو كانت لأحدهم امرأة كبرت عنده، لا يطلقها، ويمسكها مخافة أن تضيع.

والثالث: إذا لحق بجارهم دين، أو أصابته شدَّة، أو جهد، اجتهدوا حتى يقضوا دينه، ويخرجوه من تلك الشدَّة.

قال الإمام أبو الليث السمرقندي رحمه الله تعالى:

حسن الجوار في أربعة أشياء:

أولها: أن يواسي جاره فيما عنده.

والثاني: أن لا يطمع فيما عنده.

والثالث: أن يمنع أذاه عنه.

والرابع: أن يصبر على أذاه.

وقال الحسن البصري رحمه الله تعالى: ليس حسن الجوار بكفِّ الأذى عن الجار، ولكن حسن الجوار بالصبر على أذى الجار.

فالمسلم الحق هو الذي يبرهن على صدق إيمانه، بالإحسان إلى جيرانه، بل بالإحسان إلى الناس أجمعين.

* * *

الشعبة الثامنة والستون

إكرام الضيف

إكرام الضيف من الشيم الرفيعة، والأخلاق الكريمة، لهذا كان من شُعب الإيمان. ومحاسن الإسلام، التي دعا إليها الدين، ورغب فيها.

عن أبي شُريحٍ العدوي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمنُ باللهِ واليوم الآخر فليحْسِنُ إلى جاره، ومن كان يؤمن باللهِ واليوْمِ الآخرِ، فليُكرِم ضيفَهُ، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر: فليقلْ خيراً، أو ليَسْكتْ» [رواه مسلم (٤٨) في الإيمان].

لذلك كان التقصير في حقِّ الضيف لؤماً وخسَّة، ومنافاة لمكارم الأخلاق التي بعث بها رسول الله ﷺ.

قال العلماء: ومن إكرام الضيف أن يلقاه صاحب البيت بالطلاقة والبِشر، ويحضر ما يحتاج إليه الضيف قبل الوقت الذي يتوقعه فيه، وأحسن، وأوفر ما جرت به عادته مع أهله وولده، ويبوِّئه أوسع وأحسن ما عنده من الأماكن، وأنزهها وأشرحها لصدره، ويحتمل عنه مؤنة من يصحبه من أهله، وإذا خرج زوّده بما يكفيه يومه، وشيعه إلى خارج منزله، ومشى معه مسافة تدل على احتفائه به، وإكرامه له. وقد بيّن النبي ﷺ أمد الضيافة، ومدتها.

عن أبي شُريحٍ العدوي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكْرِمْ ضيفه، جائزتُه يومٌ وليلةٌ، والضيافةُ ثلاثةُ أيام، فما كان بعد ذلك فهو صدقةٌ، ولا يحلُّ له أن يَثْوِيَ عنده، حتى يُحرِجَه» [رواه مالك في «الموطأ»: ٢/ ٩٢٩ في صفة النبي ﷺ؛ والبخاري (٦١٣٥) في الأدب؛ ومسلم (٤٨) في اللقطة، رقم (١٤)].

قال الإمام الخطابي رحمه الله تعالى: معنى قوله ﷺ: «جائزته يوم وليلة» يعني أن يتكلف له إذا نـزل به الضيف يـوماً وليلة، فيتحفه، ويزيده في البرِّ على ما يحضره في سائر الأيام، وفي اليومين الأخيرين يقدم له ما حضر، فإذا قضى الثلاثة، فقد قضى حقه، فإذا زاد عليها استوجب به أجر الصدقة.

ومعنى «يثوي عنده»: يقيم عنده.

يحرجه: يوقعه في الحرج.

وهذا يدل على أن من مكارم أخلاق الضيف، وحسن أدبه أن لا يقيم عند مضيفه فوق ثلاث ليالٍ.

وقد ضرب المسلمون أروع المثل في إكرام الضيف وإيثاره.

عن أبي هريـرة رضي الله عنه، قال: جـاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: إني مَجْهودٌ، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحقّ ما عندي إلاَّ ماء، ثم أرسل إلى أخرى، فقالت: مثل ذلك، وقُلْنَ كلهنَّ مِثْلَ ذلكَ، فقال رسول الله ﷺ: «من يُضيفُهُ يرْحمُهُ الله؟». فقام رجل من الأنصار، يقال له أبو طلحة، فقال: أنا، يارسول الله، فانْطلقَ به إلى رَحْلِهِ، فقال لامرأته: هل عندكِ شيء؟ قالت: لا، إلا قوتُ صبياني، قال: فعلِّليهمْ بشيءٍ، ونوِّميهم، فإذا دخل ضيفنا، فأريه أنَّا نأكل، فإذا أهْوَى بيده ليأكل، فقومي إلى السِّراجِ كي تصلحيه، فأطفئيه، ففعلت، فقعدوا، فأكل الضيفُ، وباتا طاويينِ، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «لقد عَجِبَ اللهُ، أو ضحكَ، من فلان، وفلانة».

فأنـزل الله عـزّ وجـلّ: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] [رواه البخاري (٤٨٨٩) في التفسير؛ ومسلم (٢٠٥٤) في الأشربة].

لقـد كان من خُلُق أصحـاب رسـول الله ﷺ. ورضي الله عنهم: أن يفرح أحدهم بالضيف يجده عنده، ويغتبط لذلك، ويحمد الله عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسولُ الله ﷺ ذات يَوْمٍ، أو ليلة،

فإذا هُوَ بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «ما أخرجكُما من بيُوتِكما هذهِ السَّاعة؟» قالا: الجوعُ، يا رسول الله، قال: «وأنا، والذي نفسي بيدِهِ، لأخْرَجني الذي أخرجكُما، قُومُوا». فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة، قالت: مَرْحباً، وأهلاً، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «أين فُلانٌ؟» قالت: ذهب يَستعذِب لنا الماءَ، إذ جاء الأنصاريُّ، فنظر إلى رسول الله ﷺ، وصاحبيه، ثم قال: الحمدُ لله، ما أحدٌ اليومَ أكرمَ أضيافاً مني، قال: فانطلقَ، فجاءهُمْ بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ، وتمرٌ، ورُطبٌ، فقال: كلُوا، وأخذ المدْيةَ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «إيَّاك، والحلُوبَ». فذبح لهم، فأكُلوا من الشَّاةِ، ومن ذلك العِذْقِ، وشربوا، فلمَّا أن شبعُوا، ورَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيده، لتُسْألُنَّ عن هذا النَّعيم يَوْمَ القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرْجعُوا حتَّى أصابكم هذا النعيمُ» [رواه مسلم (٢٠٣٨) في الأشربة].

وإن من إكرام الضيف أن يعزم عليه صاحب البيت بالأكل، ويكرر عليه الطلب إن ظن أنه تأخر عن غير شبع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قدم له قدحاً من لبن، فقال له: «اقْعُدْ، فاشرَبْ» قال أبو هريرة: فقعدتُ، فشربتُ، فقال: «اشْرَبْ» فشربت، فما زال يقول: «اشرَبْ» حتى قلت: لا، والذي بعثكَ بالحقِّ، لا أجد له مسْلكاً. [رواه البخاري (٦٤٥٢) في الرقاق].

ثم إن من أدب الضيف، وحقِّ أهل البيت عليه أن يدعو لهم بالخير والبركة إذا نزل عندهم، وأكل من طعامهم، وهذا من مكارم الأخلاق، وجميل العادات، لأن جزاء الإحسان الإحسانُ.

عن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه قال: نزل رسول الله ﷺ على أبي، فقرَّبْنا إليه طعاماً، ووَطْبَةً، فأكل منها، ثم أتي بشراب، فشربه، ثم ناوله الذي عن يمينه، قال: فقال أبي، وأخذ بلجام دابته: ادْعُ الله لنا، فقال: «اللَّهم، بارك لهم فيما رزقتهم، واغفِرْ لهم، وارحمهم» [رواه مسلم (٢٠٤٢) في الأشربة].

الوطبة: قال النووي: الحيس: يجمع التمر البرنيّ، والأقط المدقوق، والسَّمن.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ جاء إلى سعد بن عبادة رضي الله عنه، فجاء بخبْزٍ وزيْتٍ، فأكل، ثم قال: «أفطر عندكم الصَّائمونَ، وأكل طعامَكُمِ الأبرارُ، وصلَّتْ عليكم الملائكةُ» [رواه أبو داود (٣٨٥٤) في الأطعمة].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: صنع أبو الهيثمِ بنُ التَّيهان طعاماً، فدعا رسولَ الله ﷺ، وأصحابه، فلما فرغُوا، قال رسولُ الله ﷺ: «أثيبُوا أخاكم». قالوا: يا رسولَ الله، وما إثابتُهُ؟ قال: «إنَّ الرَّجُلَ إذا دُخِلَ بيتُهُ، فأكل طعامُهُ، وشُرِبَ شرابُهُ، فَدَعوْا له، فذلكَ إثابتُهُ» [رواه أبو داود (٣٨٥٣) في الأطعمة].

وعن المقداد بن عمرو رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: بعد أن طعم، ورفع رأسه إلى السَّماء: «اللَّهم أطِعمْ من أطعمني، واسْقِ من سقاني» [رواه مسلم (٢٠٥٥) في الأشربة].

* * *

الشعبة التاسعة والستون

السَّتر على أصحاب القُرُوف

القروف: هي المعاصي، والمعاصي: هي كل ما حرَّمه الله عز وجل في كتابه، أو على لسان نبيه ﷺ، فيجب تجنبها، كبيرها، وصغيرها، فكلها مفضية إلى الضلال. وباعثه إلى الشقاء، وسوء الحال.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

لكن الإنسان ليس معصوم. فقد يقع في المعصية، وعليه إذا غلبته نفسه عليها أن يستتر بها، ويستاء منها، وأن لا يظهر بها أمام النَّاسِ، وأن لا يحدّث بها، وعليه أن يتوب منها، ويقلع عنها، فإن الإصرار على الذنب ذنب آخر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أما إذا أعلنها، وتبجَّحَ بها فقد أساء، وارتكب ذنباً فوق ذنب، لأنه بذلك ـ فوق فضيحته لنفسه ـ يكون قد سنَّ سنَّةً سيّئة، سوف يلحقه وزرها، ووزر من تبجح بمثلها من بعده إلى يوم القيامة.

إن الجهر بالسوء، والإعلان بالمعاصي، إن هو إلا تشييع لهذه المنكرات، وترويج لها، وهو يحمل في طيَّاته الدعوة إليها، والترغيب فيها.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [النساء: ١٤٨].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النور: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: «كلُّ أمتي مُعافىً إلاَّ المجاهرينَ، وإن من المجاهرةِ أن يعملَ الرجلُ بالليلِ عملاً، ثم يُصبحُ وقد ستره الله، فيقولُ: يا فُلانُ، عملتُ البارحة كذا، وكذا، وقد بات يستُرُهُ ربُّهُ، ويُصبحُ يكشفُ سِتْرَ اللهِ عليه» [رواه البخاري (٦٠٦٩) في الأدب].

وعن زيد بن أسلم رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أيُّها النَّاسُ، قد آنَ لكم أن تنتهُوا عن حُدودِ الله، فمن أصاب من هذه القاذُوراتِ شيئاً فليسْتَتِر بسِتْرِ الله، فإنَّهُ من يُبْدِ لنا صَفحتَهُ نُقِمْ عليه كتابَ الله» [رواه مالك: ٢/ ٨٢٥ في الحدود].

القاذورات: المعاصي، وكل ما يقبح من قول، أو فعل.

يبد لنا صفحته: يظهر فعله السيِّئ.

نقم عليه كتاب الله: نعاقبه بما فرض الله عليه من العقوبة.

إن إعلان المعاصي والمنكرات والتظاهر بها جريمة، ووقاحة، وقلة أدب وحياء، ولا خير فيمن يفعل ذلك، ويصر عليه، ويفخر به.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ ممَّا أدْرَكَ النَّاسُ من كلامِ النبوَّةِ الأولى: إذا لم تستحِ فاصْنعْ ما شِئتَ» [رواه البخاري (٦١٢٠) في الأدب].

ومعناه أن من نزع منه الحياء فعل ما شاء من المخازي غير مبال بما يلحقه من الذَّم، واللوم.

وكما أنه لايجوز للمرء أن يظهر ذنبه، ويفضح نفسه، ويفشي سرَّه، فكذلك لا يجوز للناس أن يظهروا ما أسرَّ النَّاس من عيوبهم، وما أخفوا من معاصيهم،

لأن نشر تلك المعاصي نوع من ترويجها، وتجريء الناس عليها. بالإضافة لما في ذلك من هتك حرمة المسلم، والإساءة إليه، وليس من حقّ أحد أن يسيء إلى أخيه بذكر عيوبه ومعاصيه، بل الواجب أن يستره، ويسعى في نصحه.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ أَخُو المسلم، لا يظلمُه، ولا يُسْلمُه، ومن كان في حاجة أخيه كان اللهُ في حاجته، ومن فرَّج عن مُسلم كُرْبةً فَرَّجَ اللهُ عنه كُرْبة من كُرُباتِ يوم القيامة، ومن ستر مُسلماً سَتَرَه اللهُ يوم القيامة» [رواه البخاري(٢٤٤٢) في المظالم؛ ومسلم (٢٥٨٠) في البر].

وعن أبي هريرة رضي لله عنه، وعن النبي ﷺ قال: «لا يستُرُ عبدٌ عبداً في الدُّنيا إلاَّ ستره اللهُ يوم القيامة» [رواه مسلم (٢٥٩٠) في البر].

وعن تميم بن أوس الداريّ رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصيحةُ» قُلنا: لمن؟ قال: «للهِ، ولكتابهِ، ولرسولهِ، ولأئمةِ المسلمينَ وعامتهِمْ» [رواه مسلم (٥٥) في الإيمان].

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صعد رسولُ الله ﷺ المنبرَ، فنادى بصوت رفيع، فقال: «يا معشرَ مَن قد أسلم بلسانه، ولم يُفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لاتُؤذوا المسلمينَ ولاتعيِّرُوهم، ولاتتَّبعُوا عَوْراتِهم، فإنَّه من تتبَّع عورَةَ أخيه المسلم تتبَّعَ اللهُ عورته، ومن تتبَّع اللهُ عَوْرتَهُ يَفضحْهُ، ولو في جوف بيته».

ونظر ابن عمر رضي الله عنه يوماً إلى البيت، أو إلى الكعبة، فقال: «ما أعظمكِ، وأعظمَ حُرْمتكِ، والمؤمنُ أعظمُ حُرْمةً عند اللهِ منكِ» [رواه الترمذي (٢٠٣٣) في البر؛ وأبو داود (٤٨٨٠) في الأدب].

فتتبع عورات المسلمين، والبحث عن عيوبهم حرام، لأنه إساءة إليهم، وإهانة لهم، وإفساد في الأرض.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، قال سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «إنَّكَ إذا اتَّبعتَ عَوراتِ النَّاس أفسدتهم، أو كِدْتَ أن تُفسدَهم» [رواه أبو داود (٤٨٨٨) في الأدب].

إن الله تعالى نهى عن التجسس على المسلمين، وتتبع عوراتهم، وسوء الظن بهم، فقال عزَّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ [الحجرات: ١٢].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكْذبُ الحديث، ولا تحسَّسُوا، ولا تجسَّسُوا، ولاتنافسُوا، ولاتحاسدُوا، ولاتباغضوا، ولاتدابرُوا، وكونُوا عبادَ اللهِ إخواناً، كما أمركم، المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمهُ، ولا يخذلُهُ، ولا يحقرِهُ، التَّقوىَ ها هنا، التَّقْوى ها هنا، التَّقوى هاهنا ـ ويشير إلى صدره ـ بحسْب امرِئٍ من الشرِّ أن يَحقِّرَ أخاه المسلم، كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمُهُ وعرضُهُ، ومالُهْ، إنَّ الله لا ينظُرُ إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظُرُ إلى قلوبكم وأعمالكم» [رواه البخاري (٦٠٦٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٦٣) و(٢٥٦٤) في البر].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «المسلمُ من سَلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ، والمهاجرُ من هجر ما نهى اللهُ عنه» [رواه البخاري (١٠) في الإيمان؛ ومسلم (٤٠) في الإيمان].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «من أحبَّ أن يُزحزحَ عن النَّارِ، ويدخلَ الجنَّةَ، فالتأتهِ منيتُهُ، وهو يؤمنُ بالله واليوم الآخر، وليأتِ إلى النَّاس الذي يُحبُّ أن يُؤتى إليه» [رواه مسلم (١٨٤٤) في الإمارة].

فكما أن المرء لا يحب أن يساء إليه، فواجبه أن يمنع إساءته عن الناس، لأنهم لا يحبون ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أنه أتى برجلٍ، فقيل له: هذا فلانٌ تقطر لحيته خمراً، فقال: «إن نُهينا عن التَّجسُّسِ، ولكن إن يظهرْ لنا شيءٌ نأخذه به».

إن واجب المسلم أن يحفظ لسانه ويغضَّ طرفه، ويشتغلَ بعيوب نفسه، قبل أن يبحث عن عيوب الآخرين. كما قال بعضهم:

ابدأ بنفسكَ فانْهها عن غيّها   وإذا انتهتْ عنه فأنت حكيمُ

وقال آخر:

احفظ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ   لا يلدغنَّكَ إنَّه ثعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانِه   كانت تهابُ لقاءَهُ الشُّجعانُ

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: يا رسول الله، ما النَّجاةُ قال: «أمْسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسَعْكَ بيتُكَ، وابك على خطيئتك» [رواه الترمذي (٢٤٠٨) في الزهد].

وعن أم حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلُّ كلامِ ابن آدمَ عليه، لا له، إلا أمْرٌ بمعرُوفٍ، أو نَهْيٌ عن منكرٍ، أو ذكر الله» [رواه الترمذي (٢٤١٤) في الزهد].

قال الله عز وجل: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال ﷺ: «إن العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة من سخط اللهِ، لا يُلقي لها بالاً، يَهوي بها في جهنَّمَ» [رواه البخاري (٦٤٧٨) في الرقاق].

ويأسف الإنسان لكثرة الناس الذين اتخذوا من تتبع عورات المسلمين، والنيل من إعراضهم، والبحث عن سيئاتهم، والتشهير بهم والتندر بذكر عيوبهم،

وإذاعة ما استتر من أحوالهم مُلحْةً يتلمظون بها في النوادي والسهرات، وكلما جمعهم لقاء من ليل أو نهار.

عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخاف عليَّ؟ فأخذ بلسان نفسه، ثم قال: «هذا» [رواه الترمذي (٢٤١٢) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من وقاهُ الله شرَّ ما بين لحيته، وشرَّ ما بين رجليه، دخل الجنة» [رواه الترمذي (٢٤١٩) في الزهد].

* * *

الشعبة السبعون

الصبر على المصائب وعما تنزع النفس إليه من لذة وشهوة

الصبر معناه: حبسُ النفس على المكاره، ويستعمل في عدد من المعاني:

أولاً: الصبر على المصائب المؤلمة، والقوارع الشديدة.

الثاني: الصبر على أذى المخالفين، وعنتهم، وسوء تصرفاتهم.

الثالث: الصبر على كلف الطاعات، والعبادات، وما يلحق النفس في إقامتها من المشقة.

الرابع: الصبر على الشهوات، وعلى مجاهدة النفس في حملها على تجنّب الحرام منها، والسرف المضرّ في تناولها.

وكلُّ هذه المعاني للصبر مطلوبة من المكلف، وهي ضرورية لنجاحه وفلاحه، وبلوغه رضوان الله عز وجل، وقد جاءت الأدلة في امتداحها، والثناء عليها، وبيان الأجر والثواب فيها، وبيان العواقب الحميدة التي تترتب عليها في الدنيا والآخرة.

ففي الصبر على المصائب والقوارع يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يقول اللهُ تعالى: ما لعبدي المؤمنِ عندي جزاءٌ إذا قبضتُ صفيَهُ من أهْلِ الدُّنيا، ثم احْتسبَهُ إلاَّ الجنَّة» [رواه البخاري (٦٤٢٤) في الرقاق].

وعن أنس رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إن اللهَ عزَّ وجلَّ قال: إذا ابْتلَيْتُ عبدي بحبيبتيه - أي عينيه - فصبر عَوَّضتُهُ منهما الجنَّة» [رواه البخاري (٥٦٥٣) في المرضى].

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «ما يُصيبُ المسلمَ من نَصَبٍ، ولا وَصَبٍ، ولا همٍّ، ولا حَزَنٍ، ولا أذىً، ولا غمٍّ، حتَّى الشوكةُ يُشاكُها، إلاَّ كفَّرَ اللهُ بها من خطاياهُ» [رواه البخاري (٥٦٤١) في المرضى؛ ومسلم (٢٥٧٣) في البر].

إن الصبر في هذه الأحوال، والظروف التي يتعرض لها المؤمن لأنواع من البلاء، والرضى عن الله تعالى، والتحلّي بالهدوء، وثبات القلب؛ لَدليل على قوة الإيمان بالله تعالى؛ لأن المؤمن يؤمن بما في هذه المحن من الحكم، وأنها مادامت من طرف الله عز وجل فعليه أن يتلقّاها بالصبر والرضى عن الله تبارك وتعالى، والحمد لجلاله على كل الأحوال.

عن صهيب بن سنان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجباً لأمْرِ المؤمن، إنَّ أمْرهُ كلَّهُ له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلاَّ للمؤمن: إن أصابته سرَّاءُ شكر، فكان خيراً له، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبر، فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩٩) في الزهد].

قال علي رضي الله عنه: «اعلموا أن الصبر من الأمور بمنزلة الرأس من الجسد».

وقال الإمام أبو الليث السمرقنديُّ رحمه الله تعالى: إن العبد لا يدرك منزلة الأخيار إلاَّ بالصبر على الشدَّة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يزالُ البلاءُ

بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتَّى يلقى الله تعالى، وما عليه خطيئة» [رواه الترمذي (٢٤٠١) في الزهد].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخيرَ عجَّل له العقوبةَ في الدُّنيا، وإذا أراد اللهُ بعبده الشرَّ أمْسَكَ عنه بذنبه، حتَّى يُوافي به يوم القيامة». وقال: «إن عِظَمَ الجزاء مع عِظَمِ البلاءِ، وإنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم، فمَن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» [رواه الترمذي (٢٣٩٨) في الزهد].

وعن سعد رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل، فيُبتلى الرجلُ على حسب دينه، فإن كان دينه صُلباً اشتدَّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقَّةٌ، ابتليَ على حسب دينه، فما يَبْرَحُ البلاءُ بالعبد حتى يتركه يَمْشي على الأرض ما عليه خطيئة» [رواه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيتُ الوَجَعَ على أحدٍ أشدَّ منه على رسول الله ﷺ» [رواه الترمذي (٢٣٩٩) في الزهد].

وذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نُعيَ إليه ابنة له، وهو في السفر، فاسترجع، ثم قال: «عَوْرَةٌ سترها اللهُ، ومُؤْنةٌ كفاها اللهُ، وأجْرٌ قد ساقه اللهُ إليَّ» ثم نزل، فصلَّى ركعتين، ثم قال: «صَنَعْنا ما أمر الله تعالى به، فقال: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وليس معنى ما ذكر أن المؤمن إذا أصيب بمصيبة، لا يجوز له أن يحزن، وأن لا يتألم، لا، بل الحزن والألم في المصائب أمر فطري، وهو مباح، مادام لم يحمل الإنسان على السخط، وعدم الرضى عن الله تعالى.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ على أبي سَيْفٍ -القين- وكان ظِئراً لإبراهيم عليه السلام، فأخذ رسول الله ﷺ إبراهيمَ فقبَّلَهُ وشمَّهُ، ثم دخلنا عليه بعد ذلك، وإبراهيمُ يجودُ بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ

تذرفان، ـ فقال له عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: وأنت يارسول الله؟ فقال: «يا ابنَ عَوْفٍ، إنَّها رحمةٌ». ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إنَّ العَيْنَ تدمعُ، والقلبَ يَحْزَنُ، ولا نقولُ إلاَّ ما يرضي ربنا، وإنَّا بفراقِكَ يا إبراهيمُ لمحْزونونَ» [رواه البخاري (١٣٠٣) في الجنائز].

أبو سيف: هو زوج أم سيف، وهي مرضع إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، واسمه: البراء بن أوس.

والظئر: هي المرضع، وأطلق على أبي سيف الظئر باعتباره زوجها.

والقين: هو الحدَّادُ، ويُطلق على كل صانع. يقال: قانَ الشَّيْءَ: إذا أصلحه.

فبان من كل ما ذكرنا أن الصبر والتسليم لأمر الله واجب، وهو شعبة من شعب الإيمان، وما خالف ذلك فهو حرام.

أما صبر العبد على أذى الخلق، فذلك من مكارم الأخلاق، ورفيع الشيم، وعلوّ الهمّة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

وقال: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠].

وتخلق النبي ﷺ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم بهذا الخلق، وهم يحملون الدعوة، ويعلّمون الناس، فكان لصبرهم وثباتهم الأثر البليغ، والعواقب الحميدة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وقال رسول الله ﷺ: «والصَّبْرُ ضياءٌ» [رواه مسلم (٢٢٣) في الطهارة].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كأني أنظرُ إلى رسول الله ﷺ

يَحْكي نبياً من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ضربه قومُه فأدمَوْه، وهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهه، وهو يقول: «اللهمَّ اغْفِرْ لقومي، فإنَّهم لا يعلمونَ» [رواه البخاري (٦٩٢٩) في استتابة المرتدين؛ ومسلم (١٧٨٢) في الجهاد].

ولما اشتكى بعض أصحاب النبي ﷺ له بعض ما يلقونه من أذى المشركين بيَّن لهم المَثَل الأعلى في الصبر بمَن كان قبلهم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ ـ ١٤٨].

وعن خباب بن الأرتّ رضي الله عنه، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسّدٌ بُرْدَةً في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تَسْتنصرُ لنا؟ ألا تَدعوَ لنا؟ فقال: «قد كان مَن قبلكم يأخذُ الرجلُ، فيُحفرُ له في الأرض، فيُجعلُ فيها، ثم يُؤتى بالمنشار، فيوضعُ على رأسه، فيجعلُ نصفينِ، ويمشطُ بأمشاطِ الحديد ـ ما دون لحمِه وعظمِه ـ ما يصدُّه ذلك عن دينه، واللهِ، ليتمنَّ اللهُ هذا الأمرُ، حتَّى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حَضْرَموتَ لا يخافُ إلاَّ الله، والذئبَ على غنمه، ولكنكم تستعجلون» [رواه البخاري (٣٥٨٢) في مناقب الأنصار].

قال الله تعالى آمراً عباده المؤمنين بالصبر والمصابرة، ليتحقق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

إن الله عزَّ وجلّ حقق للنبي ﷺ وأصحابه الكرام بهذا الصبر والمصابرة ذلك النصر العظيم، وخلق لهم ذلك الفرج من الضيق الذي كانوا يعانونه، وذكَّرهم فضله ليشكروه، ويحمدوه، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

أما الصبر على كلف الطاعات، وأداء العبادات والتزام الشرائع والأحكام فأمرٌ لابدَّ منه، ولا مندوحة عنه، والنفس تحبّ الخلود إلى الراحة، والميل إلى الإهمال، وتجنّب ما في فعله مشقة، ولا ينجو العبد من هذه الحالات والأعراض، ويقوى على مقاومتها إلا بمعرفته ما للطاعة من أجر، وما للصبر عليها من فضل.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]

وقال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وبهذا الصبر الحميد، والمقاومة للنفس كان يقوى ﷺ على قيام الليل حتى تتفطر قدماه، ويجد في مناجاة ربه وهو يصلي قرّة عينه.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١ ـ ٤].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠].

ومثل الصبر على كلف الطاعات الصبر على ترك المعاصي والمخالفات، فإنها أيضاً تحتاج إلى عزيمة الرشد، وذروة الصبر، وشكيمة الأقوياء، وجهد الصالحين، والحذر من عقوبة رب العالمين، فإن النفس لا يمنعها من الوقوع في الحرام إلا الرغبة في الأجر، والخوف من العقاب.

والخلاصة، فالصبر مفتاح الفرج، ووسيلة النصر، وطريق الفوز، والظفر بكل خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

* * *

الشعبة الحادية والسبعون

الزُّهدُ وقِصَرُ الأمل

الزهد في الدنيا خلق رفيع، وحال يرضي الله تعالى، وشعبة من شُعب الإيمان، وهو يعني عدم الحرص على الزائد عن الحاجة من شهوات الدنيا، وعدم تعلّق القلب بها، بحيث يطغى حبها على كل فضيلة، ويضيع في سبيلها ما أوجب الله عزَّ وجلّ من حقوق، وصِلات، وواجبات.

والزهد في الدنيا لا يعني ترك الحلال، ولا إضاعة المال، ولا القعود عن الكسب المشروع، وطلب الرزق الشريف، وإنما الزهد يعني ترك الحرام، والتحرر من استعباد الدنيا، والفناء في شهواتها، ومن لوازم هذا الزهد الإقبال على الآخرة، والسعي إليها، والعمل لها، وبذل الجهد والطاقة من أجلها، فإنها هي الحياة الحقيقية الباقية الخالدة، وما الدنيا بما فيها إلا طريق إليها، ومعبر لدخولها، فمن عرف حقيقة الدنيا عاملها بما تستحق، وأعطاها من نفسه وجهده ما هو ضروري لها، وادّخر ما عدا ذلك لما هو باق، وخالد من عالم الآخرة، ونعيمها.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

ولما كانت النفس طلعة إلى الشهوات، توَّاقة إلى التعلّق بالملذات، حريصة على مُتع الحياة، ولو فوَّتت في سبيل ذلك الباقيات الصالحات، وضيعت النِّعم الخالدات، جاءت النصوص الكثيرة التي تشرح حقيقة الدنيا، وتعرِّف بقدرها، وتدعو إلى الزهد فيها، وعدم الركون والخلود إليها، ليخلص الإنسان من العبودية لها، ويعطيها حقَّها، وينزِّلها المنزلة اللائقة بها ويقبل على اللذة الخالدة، والنعيم السرمدي في جنة الله العالية.

قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٥ ـ ٤٦].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما الدُّنيا في الآخرة إلاَّ مِثْلُ ما يجعلُ أحدُكم إصبعَهُ في اليمِّ، فلينظرْ بِمَ يرجعُ» [رواه مسلم (٢٨٥٨) في كتاب الجنة].

ولهذا كان يقول رسول الله ﷺ: «اللَّهم، لا عَيشَ إلاَّ عَيْشُ الآخرة» [رواه البخاري (٦٤١٢) في الرقاق؛ ومسلم (١٨٠٥) في الجهاد].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ، وإنَّ اللهَ تعالى مُسْتخلفُكم فيها، فينظرُ كيف تعملون، فاتَّقوا الدُّنيا، واتَّقُوا النِّساءَ» [رواه مسلم (٢٧٤٢) في الرقاق].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدُّنيا تَعْدِلُ عند اللهِ تعالى جناحَ بعوضةٍ ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماءٍ» [رواه الترمذي (٢٣٢١) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الدُّنيا ملعُونَـةٌ، ملعُونٌ ما فيها، إلاَّ ذكـرَ اللهِ تعالى وما والاه، وعالماً، ومتعلماً» [رواه الترمذي (٢٣٢٣) في الزهد].

فإذا كان هذا حال الدنيا، وهذا شأنها ومآلها، فتعلق القلب بها، والتفاني في حبها، والتكالب عليها، من مظاهر الغفلة عن حقيقتها، ووضع الأمور في غير مواضعها.

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبيِّ ﷺ،

فقال: يا رسولَ اللهِ، دلَّني على عملٍ إذا عملتُهُ أحبَّني الله، وأحبَّني النَّاسُ، قال: «ازهدْ في الدُّنيا يُحبَّكَ اللهُ، وازْهَدْ فيما عند النَّاسِ يُحبُّكَ النَّاسُ» [رواه ابن ماجه (٤١٠٢) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «تعِسَ عبدُ الدِّينارِ، والدِّرْهمِ، والقطيفة، والخميصة، إن أُعْطِيَ رضي، وإن لم يُعطَ لم يَرْضَ» [رواه البخاري (٢٨٨٦) في الجهاد].

إن الصراع في هذه الدنيا، وإذكاء نار الحروب فيها، والكراهية التي سادت كل شعب، والأحقاد التي ملأت كل قلب، ما هي إلا من حبِّ الدنيا، والحرص عليها، والزهد في الآخرة، والإعراض عنها، وهذا عكس ما تجب أن يكون عليه الحال، والمآل.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسولُ الله ﷺ على المنْبرِ، وجلسْنَا حَوْلَهُ، فقال: «إنَّ ممَّا أخافُ عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زَهرةِ الدُّنيا وزينتها» [رواه البخاري (١٤٦٥) في الزكاة؛ ومسلم (١٠٥٢) في الزكاة].

عن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين، يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصارُ بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلَّى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرَّضُوا له، فتبسَّم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أن أبا عُبيدة قدم بشيءٍ من البحرين؟». قالوا: أجَلْ، يا رسولُ اللهِ، فقال: «أبشرُوا، وأمِّلُوا ما يسرُّكم، فواللهِ، ما الفقرَ أخشَى عليكم، ولكني أخشى أن تُبسط الدُّنيا عليكم، كما بُسِطتْ

على مَنْ كان قبلكم، فتنافسُوها كما تنافسُوها، فتهلككم كما أهلكتهم» [رواه البخاري (٣١٥٨) في فرض الخمس؛ ومسلم (٢٩٦١) في الزهد].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، ثم قال: كُنْ في الدُّنيا كأنَّكَ غَريبٌ، أو عابرُ سبيلٍ».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسَيْتَ فلا تنْتظرِ الصَّباحَ، وإذا أصبحْتَ فلا تَنتظر المساءَ، وخُذْ من صحَّتِكَ لمرضكَ، ومن حياتكَ لموتك» [رواه البخاري (٦٤١٦) في الرقاق].

قال النووي رحمه الله تعالى: قالوا في شرح هذا الحديث: معناه: لا تركن إلى الدنيا، ولا تتخذها وطناً، ولا تحدِّث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالاعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله.

لهذا قال رسول الله ﷺ: «أكثرُوا من ذكر هاذم اللّذات» يعني الموت. [رواه الترمذي (٢٣٠٨) في الزهد].

هاذم: قاطع.

إنَّ ذكر الموت من شأنه أن يزهِّد في الدنيا، ويكفكف من غلواء الآمال الطويلة فيها، ويحمل على الاستعداد للرحيل عن هذه الدنيا، والسفر إلى دار القرار، إما جنة عرضها السماوات والأرض، وإما نار ترمي بشررٍ كالقصر.

وفي الحقيقة إنك تجد أكثر الناس ذكراً للموت، هم أكثرهم في الغالب زهداً في الدنيا. وقِصراً في الآمال.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ: إذا ذهب ثلث الليل قام، فقال: «يا أيُّها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفةُ، تتبعها الرادفةُ، جاء الموت بما فيه» [رواه الترمذي (٢٤٥٩) في صفة القيامة].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصيرٍ،

فقام، وقد أثَّر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «ما لي وللدُّنيا، ما أنا في الدُّنيا إلاَّ كراكب استظلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح، وتركها» [رواه الترمذي (٢٣٧٨) في الزهد].

عن عمرو بن الحارث رضي الله عنه قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً، ولا درهماً، ولا عبداً، ولا أمةً، ولا شيئاً، إلاَّ بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة» [رواه البخاري (٢٧٣٩) في الوصايا].

إن واجب المؤمن أن تستعد للرحيل بالعمل الصالح، والقول المبرور، فإن التعلق بالدنيا والتأميل في بقائها وصفائها، إنما هو من باب خداع النفس، والتغرير بها، أشبه ما يكون بمن يظن السراب ماء، فإذا جاءه لم يجده شيئاً، ووجد الله عنده فوفَّاهُ حسابه.

قال رسول الله ﷺ: «اغتنمْ خمساً قبْلَ خمسٍ: حياتك قبل موتك، وشبابَكَ قبل هَرَمِكَ، وصحتكَ قبل سُقْمكَ، وفراغَكَ قبل شُغلكَ، وغناك قبل فقرِكَ» [رواه النسائي في (الكبرى)؛ كما في التحفة: ٣/ ٣٢٨].

قال الإمام الحليمي رحمه الله تعالى: إن الاحتياط قصر الأمل، وإن إطالته غشٌّ وخداع من المرء لنفسه، وسوء نظر لأمره وأهله وولده وسائر من يعنيه شأنه، لأنه لا ساعة إلا ويمكن أن يكون فيها انقضاء أجله. وإذا كان كذلك، فلا معنى لأن يرى أنه مخلَّد غير منقول أبداً عنها، وإذا قصر أمله صار همه الاستعداد للآخرة، وذلك أحوط.

عن أنس رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قطُّ، فقال: «لو تعلمُونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً، ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري (٤٦٢١) في التفسير؛ ومسلم (٢٣٥٩) في الفضائل].

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: «من علم أن الموتَ مَوردُهُ، والقيامة موعدُه، والوقوف بين يدي الله تعالى مشهدُهُ، فحقُّه أن يطول في الدنيا حزنُهُ».

إذا كان هذا هو الحال والمآل، فواجب العبد أن يشمر عن ساعد الجدّ، وينظر إلى أهل الخير والرشاد، فيقتدي بهم ويعمل مثل أعمالهم، فعساه أن يكون في صحبتهم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩ ـ ٧٠].

رحم الله تعالى من قال:

إنَّ للهِ عبـــاداً فُطُنـــا	طلَّقُوا الدُّنيا وخافوا الفتنا
نظـروا فيهـا فلمَّـا علمـوا	أنَّهـا ليسَـتْ لحـيٍّ وطنـا
جعلُـوهـا لُجَّـةً واتَّخـذُوا	صالح الأعمال فيها سُفُنا

عن أنس رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميّتَ ثلاثة: أهلُهُ، ومالهُ، وعملُه، فيرجعُ اثنان، ويبقى واحد، يرجع أهلُهُ، ومالُهُ، ويبقى عمله» [رواه البخاري (٦٥١٤) في الرقاق؛ ومسلم (٢٩٦٠) في الزهد].

فالسعيد من كان عمله صالحاً، فإنه الباقي معه، ومن عداه سوف يرجع عنه حتماً.

* * *

الشعبة الثانية والسبعون

الغَيْرةُ وتَرْك المذاء

الغيرةُ: هي الحمية والأنفة، وكراهة الرجل أن يرى في عرضه وشرفه ما يعاب به.

وقال في (المشارق): هي تغيُّرُ القلب، وهيجان الغضب، أي عند رؤية، أو سماع ما لا ينبغي.

يقال: رجل غيور، وأمرأة غيور.

والمذاءُ: أن يجمع بين الرجال والنساء، ثم يخليهم يماذي بعضهم بعضاً، وأخذه من المذْي.

وقيل: هو إرسال الرجال مع النساء. من قولهم: مذيتُ فرسي، إذا أوردتها ترعى.

ويقال: أمذى الرجل، وماذى: إذا قاد على أهله، فهو: قواد، والعياذ بالله تعالى.

ويُرْوى: «المذالُ من النفاق» وهو أن يقلق الرجل، وينزعج عن فراشه الذي يضاجع عليه حليلته، ويتحوَّل عنه ليفترشه غيره.

والخلاصة أن المذاء: عبارة عن اختلاط الرجال والنساء، وترك بعضهم مع بعض على وجه يثير الشهوات، ويحرك الغرائز.

وترك المذاء: تجنب هذه الأحوال المشينة، والبعد بالنساء عن الخلطة بالرجال.

وقد قيل:

وخلطة النساء بالرجال ... في شرعنا من أقبح الخصال

وما ذلك إلا لأنها تصل في النهاية إلى الفواحش والمنكرات، والمسّ بالعرض والشرف، والرضى بالعيب والإساءة إلى السمعة، وليس هناك رجل صالح، أو امرأة طاهرة يرضى أن يُعاب، أو يوصف بالسوء.

ولهذا قيل: شرُّ الناس من لا يتوقى أن يراه الناس مسيئاً.

قال بعضهم:

أحقُّ الناس في الدنيا بعيب ... مسيءٌ لا يُبالي أن يُعابا

إن الغيرة على الأهل، والبعد بهم عن مواطن الشبه والريب من الإيمان، وشعبه العظيمة، ومن كمال الأخلاق، والشيم الرفيعة.

قال العلماء: إن ما رود به الشرع من الحثِّ على الغيرة، وإلحاقها بشُعب الإيمان، أو إدخالها في جملة عرى الإسلام، وأركانه الفضيلة - موافق لما جُبل عليه الناس من الكراهية الشديدة أن يصيب أجنبي من امرأة أحد منهم، أو بنته، أو أخته ما لا يحلُّ له.

إن من واجب المسلم أن تظل عينه مفتّحة على أهله وعرضه وشرفه، لا يسمح لهم بما لا يحل، ولا يتركهم وما يريدون، إن كان في ذلك معرَّة، أو مضرَّة عليه، أو عليهم، فلا يرضى لزوجته، أو بنته، أو أخته أن تخرج سافرة متبرجة، ولا أن تغشى الرجال في نواديهم، ومجتمعاتهم، ولا أن يخلو بها أحد من غير محارمها، فإن ذلك من النذالة والمهانة، والاستهانة بالشرف والعرض، وقد روي: «الغيرة من الإيمان، والمذاء من النفاق» [رواه البزار، وفي سنده مجهول، ولكن معناه صحيح].

وليس من الغيرة أن يسيء الرجل الظن بأهله وبناته، وبحيث يتَّهمهنَّ بغير

دليل، أو يتجسس عليهن بغير شبهة، فإن هذه غيرة ممقوتة، وسوء ظن في غير موضعه.

وقد روي: «إن من الغيرة ما يحبُّ اللهُ، ومنها ما يبغضُ اللهُ، فأما الغيرة التي يحبُّ الله، فالغيرةُ في الريبة، وأما الغيرةُ التي يبغضُ اللهُ، ففي غير الريبة» [رواه النسائي: ٥/ ٧٨ ـ ٧٩ وفي سنده مجهول].

إن الدين الحنيف أوجب على الرجال والنساء الأخذ بالحيطة، وأمر بحُسن الأدب، والبعد بالنفس عن كل ما يلوِّث السمعة، ويدعو إلى الفاحشة، فدعا إلى غضِّ البصر، وتحصين الفَرْج، ونهى عن اختلاط النساء بالرجال، واختلاء أحدهما بالآخر من غير محرم معهما.

قال الله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣١].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

فخروج النساء محتشمات متسترات، يلفت نظر الناس إلى أدبهنّ، وبعدهنّ عن السوء، فيعتزل الأشرار الإساءة إليهنَّ، والغمز من مكانتهنّ.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إيَّاكم، والدُّخولَ على النّساءِ». فقال رجل من الأنصار: أفرأيتَ الحَمْوَ؟ قال: «الحَمْوُ: الموتُ» [رواه البخاري (٥٢٣٢) في النكاح؛ ومسلم (٢١٧٢) السلام].

والحمو: قريب الزوج: كأخيه، وابن أخيه، وعمه، وابن عمه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لايخلُوَنَّ أحدُكم بامرأة إلا مَعَ ذي مَحْرَمٍ» [رواه البخاري (٥٢٣٣) في النكاح؛ ومسلم (١٣٤١) في الحج].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَحِلُّ لامرأةٍ تؤمنُ باللهِ واليوم الآخر تُسافرُ مسيرةَ يومٍ وليلة إلاَّ مع ذي مَحْرمٍ عليها» [رواه مسلم (١٩٣٩) في الحج].

لقد أمر الله عز وجل في كتابه العزيز نساء النبي ﷺ بجملة من الآداب التي تصون كرامتهن، وتحمي سمعتهن من قالة السوء.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٤].

ولاشكَّ أن غير نساء النبي ﷺ مطالبات بمثل هذه الآداب الرفيعة، التي تصون العرض، وتحمي الشرف، وتبعد قالة السوء عن ساحة الفضيلة.

فترقيق المرأة صوتها عند مخاطبة الرجال، والظهور أمامهم بألوان المغريات يحرك عوامل الشهوة، ويثير كوامن الفتنة، وذلك حرام، وكل ما أدى إلى حرام فهو حرام، وكل ما قاد إلى شرٍّ فهو شرٌّ، ولذلك قيل: الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

إن الرجل مسؤول بين يديّ الله تعالى عن أهله، ومؤاخَذ إن هو فرَّط، أو أساء لهم.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

وقال ﷺ: «إن الله تعالى سائل كلّ راعٍ عما استرعاه، حفظ، أم ضيع» [الجامع الصغير (١٧٤٥)].

وعن عبـد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنَّ رسـول الله ﷺ قال: «ثـلاثة لا يدخلـون الجنَّـةَ: العاقُّ لوالديـه، والدَّيـوث، ورجُلَـةُ النسـاء» [الجامع الصغير (٣٥٢٩)].

والديوث: من لا يغار على أهله إذا رأى المنكر فيهم.

والرجلة من النساء: هي المتشبهة بالرجال في زيها وهيأتها.

* * *

الشعبة الثالثة والسبعون

الإعراض عن اللغو

اللغو: الباطل، ويشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال.

قال القرطبي: اللغو: كل سَقْطٍ من قول، أو فعل، ويدخل فيه الغناء الخليع، واللهو، وغير ذلك مما قاربه، وذكر النساء، وغير ذلك من المنكر.

وقال الحليمي: اللغو: الباطل الذي لا يتصل بفعل صحيح، ولا يكون لقائله فيه فائدة في العاجل، ولا في الآجل، والاشتغال به تضييع للزمان.

وقال البيهقي: اللغو: الباطل الذي لا يعنيه، ولا يتصل بقصد صحيح، ولا يكون لقائله فائدة فيه، وربما كان وبالاً عليه.

فإذا كان اللغو بهذا الوجه القبيح، فإن تجنبه من مظاهر الإيمان، ومن شعبه العظيمة، لأن الإيمان كمال، ودعوة إلى الكمال، والإيمان طهر، ودعوة إلى الطهر، وليس من شأن المؤمن أن يرضى بالقبيح، أو يتعاطاه، أو يميل إلى أهله.

قال الله عز وجل في شأن عباده المؤمنين: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

نعم، إنهم يعرضون عنه إعراض الساخط له، النافر منه، لا يلوون عليه، ولا على أهله، وكيف يميل المؤمن الصالح إلى أسلوب في الحياة يقتل عمره في غير فائدة، ويضيع حياته بغير ثمرة، ويثقل ظهره بما لا يعنيه في العاجل، ولا في الآجل.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «من حُسْنِ إسلامِ المرْءِ تَرْكُهُ ما لا يعنيهِ» [رواه الترمذي (٢٣١٨) في الزهد].

وعن أنس رضي الله عنه قال: توفِّيَ رجل، فقال رجل آخرُ ـ ورسولُ الله ﷺ يسمعُ ـ: أبشرْ بالجنَّةِ، فقال رسول الله ﷺ: «ما يُدْرِكَ؟ لعلَّهُ تكلَّم بما لا يعنيه، أو بخلَ بما لا يُغنيه» [رواه الترمذي (٢٣١٧) في الزهد].

قال الله عز وجل: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخر فليقُلْ خيراً، أو ليصمُتْ» [رواه البخاري (٦٠١٨) في الأدب].

إن من مظاهر وعي المؤمن، وفهمه، ورجاحة عقله أن يزن تصرفاته بعواقبها، ويحكم عليها بنتائجها، فإن رجى منها أن تثمر خيراً أقبل عليها، وسعى إليها، وإلاّ تركها، وأحجم عنها، ولا يعمل المؤمن عملاً عبثاً لا قصد فيه، ولا خير منه.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٣].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: إذا أراد أحدكم الكلام، فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة تكلم، وإن شك لم يتكلم.

وقال النووي: ينبغي للعاقل أن يتكلم إذا كان الكلام خيراً، وهو الذي ظهرت له مصلحته، ومتى شك في ظهور المصلحة فلا يتكلم. وهذا رأي سديد، وتوجيه صحيح، فإن كلام العبد محسوب عليه، ومرصود له، فإن كان خيراً كتب

له، وأثيب عليه، وإن كان شراً أُخذ به، وعُوقب عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

وقال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [سورة قٓ: ١٨].

قال بعضهم:

احفظ لسانَكَ أيُّها الإنسانُ لا يلدغنَّكَ إنَّه ثُعبانُ
كم في المقابر من قتيل لسانه كانت تهاب لقاءَهُ الشجعانُ

وقال الآخر:

ما إن ندمتُ على سكوتي مرَّةً فلقد ندمت على الكلام مراراً

عن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، حدِّثني بأمرْ اعتصم به، قال: «قُلْ ربي اللهُ، ثم اسْتقِمْ» قال: قلت: يا رسول الله، ما أخوفُ ما تخاف علي؟ قال: فأخذ بلسانه نفسه، ثم قال: «هذا» [رواه الترمذي (٢٤١٢) في الزهد].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عن قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاةُ؟ قال: «أمْسِكْ عليك لسانَكَ، وليَسَعْكَ بيتكَ، وابْكِ على خطيئتكَ» [رواه الترمذي (٢٤٠٨) في الزهد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة من رضوانِ اللهِ تعالى، لا يلقي لها بالاً يرفعهُ اللهُ بها درجاتٍ، وإنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمة من سَخَطِ اللهِ تعالى، لا يُلقي لها بالاً يَهْوي بها في جهنم» [رواه البخاري (٦٤٧٨) في الرقاق].

وعن أمِّ حبيبة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ كلامِ ابنِ آدمَ

عليه، لا لهُ، إلا أمْرٌ بمعروف، أو نهيٌ عن منكرٍ، أو ذكرٌ لله تعالى» [رواه الترمذي (٢٤١٤) في الزهد].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكثروا الكلام بغير ذكرِ اللهِ تعالى، فإنَّ كثرةَ الكلام بغير ذكر الله تعالى قَسوةٌ للقلب، وإنَّ أبعدَ النَّاسِ من الله القلبُ القاسي» [رواه الترمذي (٢٤١٣) في الزهد].

إن واجب المسلم أن يحرص على الخير، ويسعى إليه، ويصرف حياته فيما يعود عليه بالمصلحة، والمنفعة في الدنيا والآخرة، أما العبث واللغو، وقتل العمر في اللهو والمعاصي، فليس هذا من شأن المسلم العاقل، فرحم الله سلفنا الصالح، وأصحاب النبي ﷺ الكرام، فكم كانوا يسألون عن الخير ليفعلوه، ويسألون عن الشر ليحذروه.

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنتُ مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصبحتُ يوماً قريباً منه، ونحن نسير، فقلتُ: يا رسول اللهِ، أخبرني بعمل يُدْخلني الجنَّة، ويُباعدني من النار، قال: «لقد سألتني عن عظيمٍ، وإنه ليسيرٌ على من يسَّرهُ اللهُ عليه، تعبُدُ الله، ولا تُشْركُ به شيئاً، وتقيمُ الصَّلاةَ، وتؤتي الزَّكاة، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيت» ثم قال: «ألا أدُلُّكَ على أبواب الخيْرِ؟» قلت: بلى، يا رسولَ اللهِ. قال: «الصومُ جُنَّةٌ، والصَّدقةُ تُطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجلِ في جوف الليل» ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]. ثم قال: «ألا أخبركَ رأسِ الأمرِ وعمودِهِ، وذِروةِ سَنامهِ؟». قلت: بلى، يا رسولَ اللهِ، قال: «رأسُ الأمر الإسلامُ، وعمودُه الصلاة، وذِروَة سنامه الجهاد». ثم قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟». قلت: بلى، يا رسولَ اللهِ، فأخذ بلسانه، ثم قال: «كُفَّ عليكَ هذا». قلت: وإنّا لمؤاخذُونَ بما نتكلمُ به؟ فقال: «ثكلتْكَ أمُّكَ، وهَلْ يُكبُّ النَّاسَ في النَّار على وجوههم، إلا حصائدُ ألسنتهم» [رواه الترمذي (٢٦١٩) في الإيمان].

هذا هو برنامج المسلم، في الحياة، الذي يحميه من العبث، ويصونه من اللغو، وهذا منهجه الذي يسلم به من آفات الدنيا، وعوامل الفساد، ويظفر به بسعادة الدارين.

قال أبو ذر رضي الله عنه: «اجعلوا الكلام كلمتين: كلمة نافعة في أمرِ دنياكم، وكلمة باقية في أمر أخراكم».

وروي عن سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كل كلام ليس بذكر الله تعالى فهو لغوٌ، وكلُّ سكوت ليس بفكر فهو غفلة، وكل نظر ليس بعبرة فهو لهو، فطوبى لمن كان كلامه ذكراً لله تعالى، وسكوته تفكراً، ونظره عبرة».

قال البيهقي: «أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا الحسن بن محمد بن إسحاق، قال: سمعت أبا عثمان الحنَّاط قال: سمعت ذا النون يقول: «مَن حبَّ اللهَ عاش، ومَن مال إلى غيره طاش، والأحمقُ يغدو ويروح في لاش، والعاقل عن خواطر نفسه فتَّاش».

* * *

الشعبة الرابعة والسبعون

الجود والسخاء

الجود، والسخاء من شيم الكرام، ومن شعب الإيمان، ذلك لأن الله عز وجل كريم جواد، يجب الكرم والجود، ويعطي عليهما ما لا يعطي على غيرهما.

قال الله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

إن هذه الصدقات، والنفقات التي تقدِّمها يد الجود والكرم بيد سخيَّة، ونفس رضية، وثقة بالله تعالى، لتقع من الله عز وجل موقعاً كريماً، وإن الله تبارك وتعالى ليتقبلها تقبلاً حسناً، ثم هو عز وجل يربيها وينميها لصاحبها حتى تكون الصدقة الصغيرة مثل الجبل الكبير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ قال: «من تصدَّقَ بعَدْلِ تمرَةٍ من كسْبٍ طيِّبٍ - ولا يقبلُ اللهُ إلاَّ الطيِّبَ - فإنَّ اللهَ يقبلُها بيمينه، ثم يُربِّيها لصاحبها كما يُربِّي أحدُكم فَلُوَّهُ، حتَّى تكونَ مِثلَ الجبل» [رواه البخاري (١٤١٠) في الزكاة؛ ومسلم (١٠١٤) في الزكاة].

فلوَّه: مُهْرَه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله تعالى: أنفقْ يا ابن آدَمَ أُنْفِقْ عليكَ» [رواه البخاري (٥٣٥٢) في النفقات؛ ومسلم (٩٩٣) في الزكاة].

وعن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «أنفقي، ولا تحصي، فيحصي الله عليك، ولا تُوعي، فيوعي الله عليك» [رواه البخاري (١٤٣٣) في الزكاة؛ ومسلم (١٠٢٩) في الزكاة].

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقوا النَّار، ولو بشقِّ تَمرةٍ» [رواه البخاري (٦٠٢٣) في الأدب؛ ومسلم (١٠١٦) في الزكاة].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا حسدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ آتاهُ اللهُ مالاً، فسلَّطه على هلكته في الحقِّ، ورجلٌ آتاه اللهُ حكمة، فهو يقضي بها ويعلِّمُها» [رواه البخاري (٧٣) في العلم؛ ومسلم (٨١٦) في صلاة المسافرين].

لقد بيَّن النبي ﷺ أن المال ينتفع به العبد إنما هو في الحقيقة المال الذي قدمه بين يديه ابتغاء مرضاة الله تعالى، لأن هذا المال سوف يبقى ذخراً لصاحبه، يجده وافياً نامياً عند الله عز وجل في يوم يكون العبد فيه أحوجَ ما يكون إلى هذا المال:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟» قالوا: يا رسولَ اللهِ، ما منَّا أحدٌ إلاَّ ماله أحبُّ إليه، قال: «فإن مالَهُ ما قدَّم، ومال وارثه ما أخَّر» [رواه البخاري (٦٤٤٢) في الرقاق].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يُصبحُ العبادُ فيه إلاَّ ملكان يَنزِلانِ، فيقول أحدُهما: اللَّهم أعْطِ مُنْفقاً خلَفاً، ويقولُ الآخرُ: اللَّهم أعْطِ مُمسكاً تلفاً» [رواه البخاري (١٤٤٢) في الزكاة؛ ومسلم (١٠١٠) في الزكاة].

وعن أبي كَبْشةَ رضي الله عنه، أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقولُ: «ثلاثةٌ أُقْسِمُ عليهنَّ، وأحدِّثكم حديثاً فاحْفظُوهُ:

ما نقص مال عبدٍ من صدقةٍ، ولا ظُلم عبدٌ مَظلمةً صبر عليها إلاَّ زاده اللهُ عزّاً، ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلاَّ فتح اللهُ عليه باب فقرٍ - أو كلمةً نحوها - وأحدِّثكم حديثاً فاحفظوه»، قال: «إنَّما الدُّنيا لأربعة نفَرٍ: عبدٌ رزقه اللهُ مالاً وعلماً، فهو يتَّقي فيه ربَّهُ، ويصلُ فيه رحمه، ويعلمُ للهِ فيه حقَّهُ، فهذا بأفضل المنازل. وعبدٌ رزقه اللهُ علماً، ولم يرزقهُ مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملتُ بعمل فُلانٍ، فهو نيَّتُهُ، فأجرهما سواء. وعبدٌ رزقه اللهُ مالاً، ولم يرزقْهُ علماً، فهو يخبطُ في ماله بغير علم، لايتقي فيه ربه، ولا يصلُ فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقّاً، فهو بأخبث المنازل. وعبدٌ لم يرزقهُ الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملتُ فيه بعمل فلانٍ، فهو نيتُهُ، فوزرُهما سواء» [رواه الترمذي (٢٣٢٦) في الزهد].

هذا مثل رائع، وبيان مشرق يصوِّر فيه رسول الله ﷺ فضائل الجود والسخاء، وتبعات البخل والشحِّ، ويظهر فيه أثر النوايا الحميدة، وأثر النوايا الخبيثة، فمن علم خيراً أو نواه لقي أجره وثوابه، ومن عمل سوءاً أو نواه استحقَّ وزره، وجزاءه.

قال الله عزَّ وجلّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

وقال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمالُ بالنياتِ، وإنَّما لكل امرئ ما نَوى» [رواه البخاري (١) في أولِّ صحيحه؛ ومسلم (١٩٠٧) في الإمارة].

إن الله عزَّ وجلّ امتدح الجود والسخاء، ووعد على البذل والعطاء، وذم الشح والبخل، وأنكر على البخلاء والأشحّاء فقال عزَّ وجلّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٥ ـ ١١].

وقال عز وجلّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقوا الظُّلمَ، فإنَّ الظُّلم ظُماتٌ يومَ القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ من كان قبلكم، حملهم على أن سفكُوا دماءَهُمْ، واستحلُّوا محارمهم» [رواه مسلم (٢٥٧٨) في البر].

إن فائدة المال في إنفاقه، لا في إمساكه، وفي المواساة به، لا في منعه والبخل به.

إن السخاء والجود، وبذل المال في وجوهه يكسب المرء الذكر الحسن، والأحدوثة الكريمة، وإن البخل والشحَّ يكسب صاحبه مذمة الدنيا والآخرة.

وصدق من قال:

أماويَّ، إنَّ المالَ غادٍ ورائحُ ... ويبقى من المال الأحاديثُ الذكرُ

ولذا كان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

عن جابر رضي الله عنه قال: «ما سئل رسولُ الله ﷺ شيئاً قطُّ، فقال: لا» [رواه البخاري (٦٠٣٤) في الأدب؛ ومسلم (٢٣١١) في فضائل النبي ﷺ].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسولُ الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا

أعطاه، ولقد جاءه رجل، فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: ياقوم، أسلموا، فإنَّ محمداً ليعطي عطاءً ما يخاف الفقر، وإن كان الرجلُ ليُسْلمُ ما يريدُ إلاَّ الدُّنيا، فما يَلبَثُ إلا يسيراً حتَّى يكُونَ الإسلامُ أحبَّ إليه من الدُّنيا، وما عليها» [رواه مسلم (٢٣١٢) في فضائل النبي ﷺ].

وفي الختام يقول الله عزَّ وجلّ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣_١٣٤].

* * *

الشعبة الخامسة والسبعون

رُحْمُ الصغير، وتوقير الكبير

وهذا من مكارم الأخلاق، ومحاسن الدين، وشعب الإيمان؛ لأن المخاطب بهذا إنما هو المؤمن بالله ورسوله ﷺ.

إن المسلم مكلف أن ينزل الناس منازلهم، ويعامل كل فرد بما يليق به.

عن عائشة رضي الله عنها قالتْ: «أُمِرْنا أن ننزلَ النَّاسَ منازلهم».

ولا شك أن الآمر إنما هو رسول الله ﷺ القائل: «إنما بعثت لأتمِّمَ مكارم الأخلاقِ» [رواه البيهقي: ١٠/ ١٩٢].

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «أنزلُوا النَّاسَ منازلهم» [رواه أبو داود (٤٨٤٢) في الأدب].

وقال ﷺ: «وخالقِ النَّاسِ بخُلقٍ حَسنٍ» [رواه الترمذي (١٩٨٨) في البر].

فمن حقِّ الشيخ الكبير، والرجل المهيب أن يكرمَ، ويبجّلَ، وأن يحاطَ بمظاهر الاحترام والتقدير.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ من إجلالِ اللهِ تعالى إكرامَ ذي الشيبة المسلم، وحاملِ القرآن غير الغالي فيه، والجافي عنه، وإكرام ذي السُّلطانِ المقْسِطِ» [رواه أبو داود (٤٨٤٣) في الأدب].

وإكرام هؤلاء: تقديمهم في المجالس، والكلام، والشراب، ونحو ذلك، وقد كان رسول الله ﷺ يقول لمن يريد أن يتكلم بين يدي من هو أكبر منه: «كَبِّرْ، كَبِّرْ» [رواه البخاري (٦٨٩٨) في الديات؛ ومسلم (١٦٦٩) في القسامة].

أي ليتكلم الأكبر.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ قال: «أراني في المنام أتسوَّكُ، فجاءني رجُلان، أحدُهما أكبرُ من الآخرِ، فناولتُ السِّواكَ الأصغرَ، فقيل لي: كبِّرْ، فدفعتُه إلى الأكبر منهما» [رواه مسلم (٢٢٧١) في الرؤيا].

وقد أخذ أصحاب رسول الله ﷺ فيما بينهم بهذا الأدب، فكان يكرم صغيرهم كبيرهم، ويخدمه، ويجلّه.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صحبتُ جريرَ بنَ عبد اللهِ البجليَّ، فكان يخدمني، فقلت: لا تفعل، فقال: إني رأيت الأنصار يكرمون رسول الله ﷺ، ويعملون به شيئاً، آليْتُ أن لا أصحب أحداً منهم إلا أكرمته، وخدمته. [رواه البخاري (٢٨٨٨) في الجهاد؛ ومسلم (٢٥١٣) في فضائل الصحابة].

وليس هذا غريباً أن يصدر عن جرير نحو رجل مثلِ أنس خدم رسول الله ﷺ عَشْرَ سنين، وإن كان جرير أكبر سناً من أنس رضي الله تعالى عنهما. فإن رسول الله ﷺ علم أصحابه مثل هذا الأدب، وربّاهم على مثل هذا الخُلق، وقال ﷺ: «ليلني منكم أولو الأحلامِ والنُّهى، ثُمَّ الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» [رواه مسلم (٢٣٢) في الصلاة].

وعن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه قال: «لقد كنت على عهد رسول الله ﷺ غلاماً، فكنت أحفظ عنه، فما يمنعني من القول، إلاَّ أنَّ ها هنا رجالاً هم أسنَّ مني» [رواه مسلم (٩٦٤) في الجنائز، رقم (٨٨)].

هذ حقُّ الكبير، والشيخ المسنِّ، وذي الشيبة في الإسلام، أما الصغير فمن حقِّه العطف، والرحمة، والشفقة، ولين الجانب.

ولقد جمع رسول الله ﷺ في هديه وتوجيهه الصغير مع الكبير في الإحسان إليهما، فقال: «ليس منَّا من لم يرحَمْ صغيرنا، ويعرفْ شرف كبيرنا» [رواه أبو داود (٤٩٤٣) في الأدب].

ولرسول الله ﷺ مواقف كريمة مع الأطفال والصغار تصلح منائر يُقتدى

بها، ومعالم يُهتدى بنورها، من هذا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قبّلَ رسولُ الله ﷺ الحسنَ بن علي رضي الله عنهما، وعنده الأقرعُ بن حابس التميمي، فقال الأقرع: إن لي عَشْرَةً من الولد ما قبلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسولُ الله ﷺ، ثم قال: «من لا يَرحَمْ لا يُرْحَمْ» [رواه البخاري (٥٩٩٧) في الأدب؛ ومسلم (٢٣١٨) في الفضائل].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ، فقال: تُقبلُّون الصِّبْيانَ، فما نُقبلُهم، فقال النبيُّ ﷺ: «أوَ أملكُ لكَ أن نزع اللهُ من قلبك الرحمة» [رواه البخاري (٥٩٩٨) في الأدب].

فالرحمة صفة خير يجعلها الله في قلوب الطيبين من عباده، والرحمة صفة من صفات ربنا عز وجل يرحم بها عباده، فيعفو عن سيئهم، ويرزق حتى فاجرهم.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الله عز وجل جعل الرحمة في مئة جزء، فأمسك عنده تسعةً وتسعين جُزءاً، وأنزل في الأرض جزءاً واحداً، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق، حتى ترفع الفرسُ حافرها عن ولدها خشية أن تُصيبَهُ. [رواه البخاري (٦٠٠٠) في الأدب؛ ومسلم (٢٧٥٢) في التوبة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُنزعُ الرَّحمةُ إلاَّ من شقيٍّ» [رواه الترمذي (١٩٢٤) في البر].

وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«أهلُ الجنَّةِ ثلاثةٌ: ذو سُلطانٍ مُقسطٌ مُوفقٌ، ورجلٌ رحيمٌ، رفيقُ القلب لكلِّ ذي قُربى مسلم، وعفيف مُتعففٌ ذو عيال» [رواه مسلم (٢٨٦٥) في الجنة].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ نساءٍ ركبنَ الإبلَ صالحُ نساءِ قُريشٍ، أحناه على ولدٍ في صِغرِهِ، وأرعاهُ على زَوجٍ في ذاتِ يدهِ» [رواه البخاري (٥٠٨٢) في النكاح؛ ومسلم (٢٥٢٧) في فضائل الصحابة].

وعن بريدة رضي الله عنه وعن أبي قتادة رضي الله عنه، قال: خرج علينا

النبيُّ ﷺ، وأمامةُ بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضعها، إذا رفع رفعها» [رواه البخاري (٥٩٩٦) في الأدب].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: كان رسولُ الله ﷺ يأخذني، فيقعدُني على فخذه، ويقعدُ الحسن بن علي رضي الله عنهما على فخذه الأخرى، ثم يضمهما، ثم يقول: «اللَّهم ارحمْهُما، فإني أرحمُهما» [رواه البخاري (٦٠٠٣) في الأدب].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة، ومعها ابنتان لها تسألني، فلم تجد عندي شيئاً غير تمرةٍ واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتْها، فشقتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها شيئاً، ثم قامت، وخرجت، وابنتاها، فدخل علي النبي ﷺ، فحدَّثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيءٍ، فأحسن إليهنَّ كن له سِتْراً من النار» [رواه البخاري (١٤١٨) في الزكاة؛ ومسلم (٢٦٢٩) في البر].

هذه مواقف وأقوال وأفعال تصوِّر الرحمة بالصغار، وتدعو إلى وجوب العطف عليهم، والرحمة بهم، وليس ذلك غريباً فهذا الدين دين الرحمة بالخَلق عامة، وإنما يرحم الله تعالى من عباده الرحماء، اللهم اجعلنا منهم، يا أرحم الراحمين.

* * *

الشعبة السادسة والسبعون

إصلاح ذات البَيْن

إصلاح ذات البَيْن: معناه: إزالة ما بين المسلمين من خلاف، وخصام، وشقاق، وقطيعة، وهذا خلق كريم، وعمل مبرور، دعا إليه الدين، ورغب فيه الإسلام، لما فيه من إعادة الألفة إلى القلوب، والوحدة إلى الصفوف، والاجتماع على الخير.

فالمسلمون أمة واحدة، كالجسد الواحد، لا يصح أن يتفرقوا، ولا يجوز أن يتحاسدوا، وقد نبه إلى ذلك النبي المصطفى ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشُوا، ولا تباغضُوا، ولا تدابروا، ولا يبعْ بعضُكم على بيعِ بعضٍ، وكونوا عباداً اللهِ إخواناً» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ: «مثلُ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم؛ مَثَلُ الجسد إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر، والحُمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٦) في البر].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضاً، وشبك بين أصابعه» [رواه البخاري (٦٠٢٦) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٥) في البر].

وبناءً على هذا، فلا يجوز أن تبقى القطيعة بين المسلمين، ولا أن تستمر الشحناء والخصومة بينهم، وأحسن الناس عند الله عز وجل أسرعهم فيئة إلى أخيه، وأعجلهم مودة له.

عن أبي أيوب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لمسلمٍ أن يهجُرَ أخاه فوْقَ ثلاث ليالٍ: يلتقيانِ، فيعرضُ هذا، ويعرضُ هذا، وخيرُهما الذي يبدأ بالسَّلامِ» [رواه البخاري (٦٠٧٧) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٦٠) في البر].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحلُّ لمؤمن أن يهجُرَ مؤمناً فوق ثلاثٍ، فإن مرَّت به ثلاث، فليلقَهُ، وليسلِّمْ عليه، فإن ردَّ عليه السلام، فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرُدَّ عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلم من الهِجْرةِ» [رواه أبو داود (٤٩١٢) في الأدب].

وعن أبي خراش رضي الله عنه، أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «من هجر أخاه سنةً، فهو كسفْكِ دمه» [رواه أبو داود (٤٩١٥) في الأدب].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «تُعرَض الأعمالُ في كلِّ إثنين، وخميسٍ، فيغفرُ اللهُ لكلِّ امرئ لا يشركُ باللهِ شيئاً، إلا امرأً كانت بينه وبين أخيه شحْناءُ، فيقولُ: اتركُوا هذين حتى يصطلحا» [رواه مسلم (٢٥٦٥) في البر].

لهذا كان الصلح بين المسلمين، سواء من طرف المتخاصمين، أم من طرف المسلمين واجباً.

قال اللهُ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١].

وقال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨].

وقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

وعن أم كُلثومٍ بنتِ عُقبة بن أبي مُعيطٍ رضي الله عنها قالت: سمعتُ رسولُ الله ﷺ يقولُ: «ليس الكذابُ الذي يُصلحُ بين النَّاسِ، فينْمي خيراً، أو يقولُ خيراً» [رواه البخاري (٢٦٩٢) في الصلح؛ ومسلم (٢٦٠٥) في الأدب].

وقال الله عزَّ وجلّ: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

ولأهميته الصلح بين المسليمن أباح الإسلام لمن تحمل ديناً في صلاح ذات البين أن يأخذ من الزكوات ما يستعين به على قضاء دينه، وذلك راجع إلى الترغيب في الإصلاح.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب إلى عماله إذا جاءهم الخصوم أن يردُّوهم حتى يصطلحوا، ولايعجلوا بإصدار أحكامهم، وكان يقول: إن فصل القضاء يورث بينهم الضغائن.

وكان رسول الله ﷺ يسعى بنفسه لإزالة الخلافات التي تقع بين بعض أصحابه، ويبادر إلى إزالتها، حتى لا يستفحل الشر، وتستمر القطيعة.

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ بلغه أن بني عمرو بن عوفٍ كان بينهم شرٌّ، فخرج رسول الله ﷺ يصلحُ بينهم في أناس معه، فحُبس رسولُ الله ﷺ، وحانت الصَّلاةُ، فجاء بلالٌ إلى أبي بكر رضي الله عنهما، فقال: يا أبا بكر، إن رسول الله ﷺ قد حُبِسَ، وحانت الصلاة، فهل لك أن تؤم الناس؟ قال: نعم، إن شئت. فأقام بلالٌ الصَّلاةُ، وتقدَّم أبو بكر، فكبَّر، وكبَّر النَّاسُ، وجاء رسول الله ﷺ يَمشي في الصفوف، حتى قام في الصف، فأخذ الناس في التصفيق، وكان أبو بكر لا يلتفت في الصلاة، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فإذا رسولُ الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ، فرفع أبو بكرٍ رضي الله عنه يده، فحمده الله، ورجع القهقرى وراءه حتى قام في الصف، فتقدَّم رسول الله ﷺ فصلَّى للناس، فلما فرغ أقبل على الناس، فقال: «أيُّها النَّاسُ، ما لكم حين نابكم شيءٌ في الصلاة أخذتم في التصفيق، إنَّما التصفيق للنساء، من نابه شيءٌ في صلاته، فليقلْ: سُبحانَ اللهِ، فإنَّه لا يسمعُهُ أحد حين يقول: سُبحانَ اللهِ إلا التفت. يا أبا بكر، ما منعكَ أن تصلِّي بالناس حين أشرت إليك؟».

فقال أبو بكر: ما كان ينبغي لابن أبي قُحافةَ أن يصلي بالناس بين يدي رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (١٢٣٤) في كتاب السهو؛ ومسلم (٤٢١) في الصلاة].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله ﷺ صَوْتَ خُصومٍ

بالباب، عاليةً أصواتُهما، وإذا أحدُهما يستوْضعُ الآخر، ويسترْفقُهُ في شيءٍ، وهو يقولُ: واللهِ، لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ، فقال: «أين المتألّي على الله لا يفعلُ المعروفَ؟ فقال: أنا يا رسـول الله، وله أيُّ ذلـك أحبَّ» [رواه البخاري (٢٧٠٥) في الصلح؛ ومسلم (١٥٥٧) في البيع].

يستوضع: يسأله أن يضع عنه بعض الدين.

يسترفعه: يسأله الرفق.

المتألي: الحالف.

وقال الله عزَّ وجلّ في توجيه المسلمين إلى نبذ الفرقة، واتحاد الصفوف: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلّ: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحجرات: ٩].

وقال عز وجل في الإصلاح بين الزوجين: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥].

وقال: ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ [النساء: ١٢٨].

* * *

الشعبة السابعة والسبعون

أن يُحبَّ الرجل لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه

هذه الشعبة هي الأخيرة في سلسلة هذه الشعب المباركة التي تُمثّل شجرة الإيمان، ويخاطب بها المؤمنون جملة وتفصيلاً، وهذه الشعبة هي نص حديث شريف.

قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه» [رواه البخاري (١٣) في الإيمان؛ ومسلم (٤٥) في الإيمان].

ومن لوازمه أن يكره له ما يكره لنفسه.

فالمؤمنون أخوة، والأخوَّة تفرض مثل هذا التعامل بين المسلمين، وتقتضي مثل هذا السلوك، وترتب التزامات كثيرة لا بدَّ من تحقيقها، لتتجسد هذه الأخوَّة بمظهرها ومخبرها الكامل. ووجهها المشرق النافع.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال في وصفهم: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مَثَلُ الجسدِ، إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعى له سائرُ الجسدِ بالسهر والحُمَّى» [رواه البخاري (٦٠١١) في الأدب؛ ومسلم (٢٥٨٦) في البر].

وقال ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهَ بعضاً، وشبَّكَ بين أصابعه» [رواه البخاري (٢٤٤٦) في المظالم؛ ومسلم (٢٥٨٥) في البر].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمُهُ، ولا يَحقرُهُ، ولا يخذلُه، يحسْبِ امرئ من الشرِّ أن يحقِرَ أخاه المسلم، كُلُّ المسلم على المسلم حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعرضُهُ» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسْلِمُهُ، من كان في حاجة أخيه كان اللهُ في حاجته، ومن فرَّجَ عن مسلمٍ كُرْبةً فرج اللهُ عنه بها كُرْبةً من كُرَبِ يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره اللهُ يوم القيامة» [رواه البخاري (٢٤٤٢) في المظالم؛ ومسلم (٢٥٨٠) في البر].

وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «انصرْ أخاكَ ظالماً، أو مظلوماً» قالوا: يا رسول اللهِ، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذُ فوقَ يده» [رواه البخاري (٢٤٤٤) في المظالم].

وانظر إلى الحيطة التي سنها الدين في كف الأذى عن المسلمين.

عن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من مرَّ في شيءٍ من مساجدنا، أو أسواقنا، ومعه نبل فليُمسكْ، أو ليقبضْ على نصالها بكفِّهِ، أن يُصيبَ أحداً من المسلمين منها بشيءٍ» [رواه البخاري (٤٥٢) في الصلاة؛ ومسلم (١٢١٥) في البر].

وقال ﷺ: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلونَ مِنْ لِسَانِه، ويَدِهِ» [رواه البخاري (١٠) في الإيمان؛ ومسلم (٤٠) في الإيمان].

وبناءً على هذه الإرشادات النبوية، والتوجيهات الدينية، قال العلماء: لا ينبغي للمسلم أن يتمنّى بقلبه لأخيه المسلم من الشرِّ ما يكرهه لنفسه، أو يكره له من الخير ما يتمناه ويحبه لنفسه.

وإذا عرضت للمسلمين مصيبة فلا ينبغي لأحدهم أن يسعى لخلاص نفسه بإسلام الآخرين، والإغراء بهم، بل ينظر لهم كما ينظر لنفسه، بحيث لا يضر بأحد منهم.

وقال العلماء أيضاً: ينبغي للمسلم أن يقارب إخوانه من أهل دينه، ويتحبب إليهم بكل ما يمكنه، ويبرهم، ويصلهم، ولا يؤذي أحداً منهم، ولا يخاطبه بما يكره، ولا يلمزه، ولا يسخر منه، ولا يغتابه، ولا يرضى لأحد أن يغتابه عنده، أو يتجسس عليه، ولا يفشي له سرّاً، ولا يتبع له عورة، ولا يفسد عليه حالاً قد رضيها لنفسه، وسكن إليها قلبه.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات: ١١ ـ ١٣].

وقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

ومن آداب الأخوّة، وحقوقها في الدين، أن لا يدخل أحد بيت غيره إلا بإذنه، وأن لا يبيع على بيعه، ولا يخطب على خطبته إلاّ بإذنه، لأن ذلك يؤدّي إلى الأذى والقطيعة.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدُوا، ولا تناجشُوا، ولا تباغضُوا، ولا تدابروا ولا يبعْ بعضكم على بيعَ بعضٍ، وكونوا عبادَ اللهِ إخواناً» [رواه مسلم (٢٥٦٤) في البر].

وقال ﷺ: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه، حتى يترك الخاطب قبله، أو يأذن له الخاطب» [رواه البخاري (٥١٤٢) في النكاح؛ ومسلم (١٤١٢) في النكاح].

قال العلماء: ومما يدخل في حقوق الأخوَّة: ترك الاحتكار؛ لأن المحتكر جِشع، لا يحب للناس ما يحب لنفسه، ولا يكره لهم ما يكره لنفسه. لهذا جاء النهي عن الاحتكار والوعيد عليه.

عن مَعْمر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من احتكر، فهو خاطئ».

وفي رواية: «لا يحتكرُ إلاَّ خاطئ» [رواه مسلم (١٦٠٥) في المساقاة].

وفي رواية: «الجالبُ مرزوق، والمحتكر ملعون» [رواه ابن ماجه (٢١٥٣) وفي سنده ضعف].

ومما يدخل في هذا الباب: حسن التقاضي من المدين، وإنظار المعسر، والحطُّ عنه، فكل هذا من مقتضيات الأخوة في الدين، ومكارم الأخلاق.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنْظَرَ مُعْسراً، أو وضع له، أظلَّهُ الله يوم القيامة تحت ظلّ عرْشهِ، يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه» [رواه الترمذي (١٣٠٦) في البيوع].

وعن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رحم اللهُ رجُلاً سمْحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى» [رواه البخاري (٢٠٧٦) في البيوع].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «كان رجلٌ يُداينُ

النَّاسَ، وكان يقولُ لفتاه: إذا أتيت مُعْسراً فتجاوزْ عنه، لعلَّ الله أن يتجاوزَ عنَّا، فلقيَ الله، فتجاوز عنه» [رواه البخاري (٢٠٧٨) في البيوع؛ ومسلم (١٥٦٢) في البيوع].

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُوسبَ رجلٌ ممن كان قبلكم، فلم يُوجدْ له من الخير شيءٌ إلاَّ أنَّه كان يُخالط الناس، وكان مُوسراً، وكان يأمرُ غلمانَهُ أن يتجاوزوا عن المعْسِرِ. قال الله تعالى: نحنُ أحقُّ بذلك منه، تجاوزوا عنه» [رواه مسلم (١٥٦١) في البيوع].

وقال العلماء: ينبغي للمسلم إذا دعا لنفسه بالمغفرة والعافية، أو سعة الرزق، أو دوام النعمة، أن يدخل إخوانه المؤمنين معه في دعائه، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ومما يدخل في باب حب المسلمين، وكراهة الشرّ لهم: إماطةُ الأذى عن طرقاتهم، وتنحية ما يؤذيهم في ممراتهم، وهذا من شعب الإيمان، كما نصَّ عليه المصطفى ﷺ في حديث شعب الإيمان.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «الإيمانُ بضْعٌ وسبعون، أو بضع وستون شُعبةً، فأفضلُها قول: لا إلـهَ إلاَّ الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبة من الإيمان» [رواه البخاري (٩) في الإيمان؛ ومسلم (٣٥) في الإيمان، واللفظ له].

وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «عُرِضتْ عليَّ أعمالُ أمتي: حسنُها وسيِّئُها، فوجدتُ في محاسنِ أعمالها: الأذى يُماطُ عن الطريق، ووجدتُ في مساوئ أعمالها: النُّخاعةُ تكونُ في المسجد، لا تُدْفنُ» [رواه مسلم (٥٥٣) في المساجد].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لقد رأيتُ رجلاً يتقلَّبُ في الجنَّةِ في شجرة قطعها من ظهرِ الطريق، كانت تُؤذي المسلمين» [رواه مسلم (١٩١٤) في البر؛ رقم (١٢٩)].

هذه شُعب الإيمان استعرضناها، وما يدور حولها، ويلحق بها من النصوص، والأدلة، سائلين المولى أن يجعلنا ممن يعلم، فيعمل، فينفعه الله تعالى في الدنيا والآخرة، اللهم أعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وعافنا واعف عنا، ولغيرك، يا ربُّ لا تَكِلنا، ومن شرّ خلقك سلِّمنا، واغفر لنا، ولآبائنا وأمهاتنا، وأزواجنا وأولادنا، ومَنْ له حقٌّ علينا، وللمسلمين والمسلمات، إنّك يا مولانا سميع قريب مجيب الدعوات. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله وسلم على سيدنا وحبيب قلوبنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم وسار على هديهم إلى يوم الدين.

كان الفراغ من تبييض هذا الكتاب بعد ظهر يوم الثلاثاء الواقع في الخامس من شهر صفر الخير سنة ١٤١٨ للهجرة الشريفة، الموافق لليوم العاشر من شهر حَزيران سنة ١٩٩٧ للميلاد، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

الفهـــرس

* * *